هكذا تكلم زرادشت

أسامة عبد الرحمن

مقدمة

زرادشت الذى نحن بصدده مؤسس المذهب الزرادشتي كان يُعَلِّم الناس ديانةً توحيدً تقوم على الاختيار بين النور(الحقيقة) والظلام(الباطل) بدأ بحركةٍ جديدة تطورت لاحقًا لتصبح في النهاية مذهبًا جديدًا سُمِّى الزرادشتية يُعتَقَد أن زرادشت عاش في شرق إيران في الفترة مابين ١٥٠٠ ق.م و ٥٠٠ ق.م حيث أن الزمان والمكان المحددين لميلاده غير معروفين حتى الآن، وكل التواريخ المعطاة قائمة على التوقعات.

وُلد زرادشت في إحدى القبائل البدوية، ودرس الدين المنتشر في سنٍ صغيرة ، وبعد فترةٍ من الزمن ارتقى وبدأ بانتقاد الممارسات الدينيه في تلك الأيام، مما أدّى إلى استياء المجتمع الكهنوتي القوي منه بشكلٍ كبير، ففي الوقت الذي كان الناس يعبدون عددًا من الآلهة المختلفة، أعلن أنّه لا أحد غير الكائن الاعظم Ahura Mazda يستحق العبادة، مما عرَّضه لمضايقاتٍ كثيرة حتى تلقى رعاية الملكين فيشتاسبا وباكتريا في عمر الأربعين.

أخذ بعد ذلك المذهب بالانتشار على نطاقٍ واسع، وعند وفاته في عمر السابعة والسبعين، كان قد انتشر في جميع أنحاء بلاد فارس وفي يومنا هذا يعد المذهب الزرادشتي أحد أقدم المذاهب الدينية التي مازالت موجودة حتى الآن، ويُعتقد انه أحد أفضل الناس الذين ساعدوا في ارتقاء البشرية إلى مستوياتٍ عالية.

وُلِد زرادشت في منزل سبيتاما ، وقد استنتج الباحثون أنّه من قبيلةٍ بدويةٍ بسبب أسماء أفراد عائلته، حيث يُدعى والده بروشاسبا ووالدته دوجدوفا وهو الولد الثالث لعائلته المؤلفة من خمسة أطفال.

بدأ الأوروبيون في منتصف القرن الثامن عشر الاهتمام بالمذهب الزرادشتي بعد أن قام العالم الفرنسي أبراهام أنكيتيل دوبيرون - بترجمة الأفستا عرفه الأوروبين من خلال هكذا تكلم زرادشت لفريدريك نيتشه الذى بين أيدينا.

أسامة عبد الرحمن

الجزء الأول

مستهل زرادشت

مستهل زرادشت

١

لما بلغ زارا الثلاثين من عمره هجر وطنه وبحيرته وسار إلى الجبل حيث أقام عشرسنوات يتمتع بعزلته وتفكيره إلى أن تبدلت سريرته، فنهض يوما من رقاده مع انبثاق الفجر وانتصب أمام الشمس يناجيها قائلا : لو لم يكن لشعاعك من يُنير أكان لك غبطةٌ أيها الكوكب العظيم؟؟

منذ عشر سنوات ما برحت تشرق على كهفي، فلولاي ولولا نْسري وأفعواني، لكنت مللت أنوارك وسئمت ذرع هذا السبيل، ولكننا كنا نترقب بزوغك كل صباح لنتمتع بفيضك ونرسل بركتنا إليك أصغ إلى ، لقد كرهت نفسي حكمتي كالنحلة أتخمها ما جمعت، فمن لي بالأكف تنبسط أمامي لأهب وأغدق إلى أن يغتبط الحكماء من الناس بجنونهم ويسعد الفقراء منهم بثروتهم.

تلك هي الأمنية التي تهيب بي للجنوح إلى الأعماق، كما تجنح أنت كل مساء منحدراً وراء البحار حاملا إشعاعك إلى الشقة السفلى من العالم، أيها الكوكب الطافح بالكنوز .

لقد وجب عليَّ أن أتوارى أسوة بك، وجب عليَّ أن أرقد على حد تعبير الأناسي الذين أهفو إليهم.

باركني إذن أيها الكوكب، فأنت المقلة المطمئنة التي يسعها أن تشهد ما لا يُحد من السعادة دون أن تختلج كمقلة الحاسدين.

بارك الكأس الدهاق تسكب سلسبيلا مذهبا ينثر على الآفاق وهجا من مسراتك .

انظر !إن هذه الكأس تريد أن تتدفق ثانية، وزارا يريد أن يعود إنسانًا.

٢

وانحدر زارا من الجبال فما لقي أحداً حتى بلغ الغاب حيث انتصب أمامه شيخ خرج من كوخه بغتة ليفتش عن بعض الجذور والأعشاب، فقال الشيخ : ليس هذا الرحالة غريبًا عن ذاكرتي، لقد اجتاز هذا المكان منذ عشر سنوات، ولكنه اليوم غيره بالأمس.

لقد كنت تحمل رمادك في ذلك الحين إلى الجبل، يا زارا، فهل أنت تحمل الآن نارك إلى الوادي؟ أفما تحاذر يا هذا أن ينزل بك عقاب من يضرم النار؟.

لقد عرفت زارا، هذه عينه الصافية، وليس على شفتيه للاشمئزاز أثر، أفما تراه يتقدم بخطوات الراقصين؟.

لقد تبدلت هيئة زارا؛ إذ رجع بنفسه إلى طفولته، لقد استيقظت يا زارا فماذا أنت فاعل قرب النائمني؟.

كنت تعيش في العزلة كمن يعوم في بحر يحمل أثقاله، وأراك الآن تتجه إلى اليابسة، أفتريد الاستغناء عمن حملك لتسحب هامتك على الأرض بنفسك؟

فأجاب زارا :إنني أحب الناس.

فقال الشيخ الحكيم :إنني ما طلبت العزلة واتجهت إلى الغاب إلا لاستغراقي في حبهم، أما الآن فقد حولت حبي إلى الله، وما الإنسان في نظري إلا كائن ناقص، فإذا ما أحببته قتلني حبه.

فأجاب زارا :ومن يصف لك الحب الآن !إنني لا أقصد الناس إلا لأنفحهم بالهدايا.

فقال الحكيم القديس :إياك أن تعطيهم شيئًا، والأجدر بك أن تأخذ منهم ما تساعدهم على حمله، ذلك أجدى لهم على أن تغنم سهمك من هذا الخير، وإذا كان لا بد لك من العطاء فلا تمنح الناس إلا صدقة على أن يتقدموا إليك مستجدين أولا .

فأجاب زارا :أنا لا أتصدق؛ إذ لم أبلغ من الفقر ما يجيز لي أن أكون من المتصدقين.

فضحك القديس مستهزئًا وقال :حاول جهدك إذن إقناعهم بقبول كنوزك، إنهم يحاذرون المنعزلني عن العالم، ولا يصدقون بأننا نأتيهم بالهبات، إن لخطوات الناسك في الشارع وقعا مستغربًا في آذان الناس، إنهم ليجفلون على مراقدهم؛ إذ يسمعونها فيتساءلون :إلى أين يزحف هذا اللص؟ .

لا تقترب من هؤلاء الناس لا تبارح مقامك في الغاب، فالأجدر بك أن تعود إلى مراتع الحيوان، أفلا يرضيك أن تكون مثلي دبًا بين الدببة وطيرًا بني الأطيار؟

فسأل زارا :وما هو عمل القديس في هذا الغاب؟

فأجاب القديس :إنني أنظم الأناشيد لأترنم بها، فأراني حمدت الله؛ إذ أسر نجواي فيها بني الضحك والبكاء؛ لأنني بالإنشاد والبكاء والضحك والمناجاة أسبِّح الله ربي، ومع هذا، فما هي الهدية التي تحملها إلينا؟

فانحنى زارا مسلما وقال للقديس :أي شيء أعطيك؟ دعني أذهب عنك مسرعاً كيلا آخذ منك شيئًا.

وهكذا افترقا وهما يضحكان كأنهما طفلان .

وعندما انفرد زارا قال في نفسه :إنه لأمر جد مستغرب، ألما يسمع هذا الشيخ في غابه أن الإله قد مات.

٣

وإذ وصل زارا إلى المدينة المجاورة، وهي أقرب المدن إلى الغاب، رأى الساحة مكتظة بخلق أعلنوا من قبل أن بهلوانا سيقوم هناك بالألعاب، فوقف زارا في الحشد يخطبه قائلا:

إنني آت إليكم بنبأ الإنسان المتفوق، فما الإنسان العادي إلا كائن يجب أن نفوقه، فماذا أعددتم للتفوق عليه؟

إن كلا من الكائنات أوجد من نفسه شيئًا يفوقه، وأنتم تريدون أن تكونوا جزرا يصد الموجة الكبرى في مدها، بل إنكم تؤثرون التقهقر إلى حالة الحيوان بدل اندفاعكم للتفوق على الإنسان، وهل القرد من الإنسان إلا سخريته وعاره؟ لقد اتجهتم على طريق مبدؤها الدودة ومنتهاها الإنسان، غير أنكم أبقيتم على جل ما إن الصحراء تتسع وتمتد فويل لمن يتصف به ديدان الأرض، لقد كنتم من جنس القرود فيما مضى، على أن الإنسان لم يفتأ حتى اليوم أعرق من القرود في قرديته.

ليس أوفركم حكمة إلا كائن مشوش لا يمت بنسبه إلى أصل صريح، فهو مزيج من النبات والأشباح، وما أدعو الإنسان ليتحول إلى شبح أو إلى نبات.

لقد أتيتكم بنبأ الإنسان المتفوق.

إنه من الأرض كالمعنى من المبنى، فلتتجه إرادتكم إلى جعل الإنسان المتفوق معنى لهذه الأرض وروحًا لها.

هذه الخطوة الأولى وسنرى أي إله يقول نيتشه بموته وأي إله يتجه هذا الفيلسوف إلى اكتشافه في سريرة الإنسان.

أتوسل إليكم، أيها الإخوة بأن تحتفظوا للأرض بإخلاصكم فلا تصدقوا من يمنونكم بآمال تتعالى فوقها، إنهم يعللونكم بالمحال فيدسون لكم السم، سواء أجهلوا أم عرفوا ما يعملون أولئك هم المزدرون للحياة، لقد رعى السم أحشاءهم فهم يحتضرون، لقد تعبت الأرض منهم فليقلعوا عنها.

لقد كانت الروح تنظر فيما مضى إلى الجسد نظرة الاحتقار فلم يكن حينذاك من مجد يطاول عظمة هذا الاحتقار لقد كانت الروح تتمنى الجسد ناحلاً قبيحاً جائعاً متوهمة أنها تتمكن بذلك من الانعتاق منه ومن الأرض التي يدب عليها، وما كانت تلك الروح إلا على مثال ما تشتهي لجسدها ناحلة قبيحة جائعة، تتوهم أن أقصى لذاتها إنما يكمن في قسوتها وإرغامها

أفليست روحكم، أيها الإخوة، مثل هذه الروح؟ أفما تعلن لكم أجسادكم عنها أنها مسكنة وقذارة وأنها غرور يسترعي الإشفاق؟ والحق ما الإنسان إلا غدير دنس، وليس إلا لمن أصبح محيطا أن يقتبل انصباب مثل هذا الغدير في عبابه دون أن يتدنس.

تعلموا من هو الإنسان المتفوق.

إن هو إلا ذلك المحيط تُغرقون احتقاركم في أغواره.

وهل تتوقعون بلوغ معجزة أعظم من هذه المعجزة؟

لقد آن للاحتقار أن يبلغ أشده فيكم، بعد أن استحال شرفكم ذاته كما استحالت عقولكم وفضائلكم إلى كره واشمئزاز.

لقد آن لكم أن تقولوا :ما يهمني شرفي، وما هو إلا مسكنة وقذارة وغرور، في حين أن على الشرف أن يبرر الحياة نفسها.

لقد آن لكم أن تقولوا :ما تهمني القوى العاقلة فيَّ، إذا لم تطلب الحكمة بجوع الأسد، وما هي الآن إلا مسكنة وقذارة وغرور.

لقد آن لكم أن تقولوا :ما تهمني فضيلتي فإنها لما تصل بي إلى الاستغراق، وقد أتعبني خيري وشري، وما هما إلا مسكنة وقذارة وغرور

لقد آن لكم أن تقولوا :ما يهمني عدلي، إن العادل يقدح شررا وملا اشتعل.

لقد آن لكم أن تقولوا :ما تهمني رحمتي، أفليست الرحمة صليبًا يسمر عليه من يحب البشر، ورحمتي ملا ترفعني على الصليب.

أقلتم مثل هذا وناديتم به؟ ليتني سمعتكم تهتفون بمثله!

أتوسل إليكم، أيها الإخوة بأن تحتفظوا للأرض بإخلاصكم فلا تصدقوا من يمنونكم بآمال تتعالى فوقها، إنهم يعللونكم باملحال فيدسون لكم السم، سواء أجهلوا أم عرفوا ما يعملون أولئك هم املزدرون للحياة، لقد رعى السم أحشاءهم فهم يحتضرون، لقد تعبت الأرض منهم فليقلعوا عنها.

لقد كانت الروح تنظر فيما مضى إلى الجسد نظرة الاحتقار فلم يكن حينذاك من مجد يطاول عظمة هذا الاحتقار لقد كانت الروح تتمنى الجسد ناحلا قبيحاً جائعاً متوهمة أنها تتمكن بذلك من الانعتاق منه ومن الأرض التي يدب عليها، وما كانت تلك الروح إلا على مثال ما تشتهي لجسدها ناحلة قبيحة جائعة، تتوهم أن أقصى لذاتها إنما يكمن في قسوتها وإرغامها.

أفليست روحكم، أيها الإخوة، مثل هذه الروح؟ أفما تعلن لكم أجسادكم عنها أنها مسكنة وقذارة وأنها غرور يسترعي الإشفاق؟.

والحق ما الإنسان إلا غدير دنس، وليس إلا لمن أصبح محيطاً أن يقتبل انصباب مثل هذا الغدير في عبابه دون أن يتدنس.

تعلموا من هو الإنسان المتفوق.

وهل تتوقعون بلوغ معجزة أعظم من هذه المعجزة؟

لقد آن للاحتقار أن يبلغ أشده فيكم، بعد أن استحال شرفكم ذاته كما استحالت عقولكم وفضائلكم إلى كره واشمئزاز.

لقد آن لكم أن تقولوا :ما يهمني شرفي، وما هو إلا مسكنة وقذارة وغرور، في حين أن على الشرف أن يبرر الحياة نفسها.

لقد آن لكم أن تقولوا :ما تهمني القوى العاقلة فيَّ، إذا لم تطلب الحكمة بجوع الأسد،وما هي الآن إلا مسكنة وقذارة وغرور.

لقد آن لكم أن تقولوا :ما تهمني فضيلتي فإنها لما تصل بي إلى الاستغراق، وقد أتعبني خيري وشري، وما هما إلا مسكنة وقذارة وغرور.

لقد آن لكم أن تقولوا :ما يهمني عدلي، إن العادل يقدح شررا ولما اشتعل.

لقد آن لكم أن تقولوا :ما تهمني رحمتي، أفليست الرحمة صليبًا يسمر عليه من يحب البشر، ورحمتي لما ترفعني على
الصليب

أقلتم مثل هذا وناديتم به؟ ليتني سمعتكم تهتفون بمثله!

إن ما يرفع عقيريته إلى السماء إن هو إلا غروركم لا خطاياكم، إن هو إلا حرصكم حتى في خطاياكم أين هو اللهب الذي يمتد إليكم ليطهركم؟ أين هو الجنون الذي يجب أن يستولي عليكم؟ هأنذا أنبئكم عن الإنسان المتفوق .إن هو إلا ذلك اللهب وذلك الجنون.

وما فرغ زارا من كلامه حتى ارتفع صوت من الحشد قائلاً لقد كفانا ما سمعنا عن البهلوان، فليبرز لنا الآن لنراه.

فضحك الجميع مستهزئني بزارا، وتقدم البهلوان ليقوم بألعابه وهو يعتقد أنه كان موضوع الحديث.

٤

وبهت زارا مجيلاً أنظاره في القوم، ثم قال :ما الإنسان إلا حبل منصوب بني الحيوان والإنسان المتفوق فهو الحبل المشدود فوق الهاوية.

إن في العبور للجهة المقابلة مخاطرة، وفي البقاء وسط الطريق خطرا، وفي الالتفات إلى الوراء وفي كل تردد وفي كل توقف خطر في خطر.

إن عظمة الإنسان قائمة على أنه معَبرٌ وليس هدفًا، وما يستحب فيه هو أنه سبيل وأفق غروب .

إنني أحب من لا غاية لهم في الحياة إلا الزوال، فهم يمرون إلى ما وراء الحياة.

أحب من عظم احتقارهم لأنهم عظماء، أحب املتعبدين يدفعهم الشوق إلى المروق كالسهم إلى الضفة الثانية.

أحب من لا يتطلبون وراء الكوكب معرفة ما يدعو إلى زوالهم أو ما يهيب بهم إلى الأرض، لتصبح هذه الأرض يوما ميراثًا للإنسان والتضحية؛ لأنهم يقدمون ذاتهم قربانً التفوق.

أحب من يعيش ليتعلم، ومن يتوق إلى المعرفة ليحيا الرجل المتفوق بعده، فإن هذا ما يقصد طالب المعرفة من زواله.

أحب من يعمل ويخترع ليبني مسكنًا للإنسان المتفوق فيهيئ ما في الأرض من حيوان ونبات لاستقباله، فإن هذا ما يقصد طالب المعرفة من زواله.

أحب من يحب فضيلته، فما الفضيلة إلا الطموح إلى الزوال وإن هي إلا السهم تُنشبه أشواقه.

أحب من لا يحتفظ لنفسه بشرارة واحدة من روحه، فيتجه إلى أن يكون بكليته روحا لفضيلته؛ لأنه بهذا يجعل روحه تجتاز الصراط.

أحب من يكون من فضيلته ميوله ومطمحه؛ لأنه بمثل هذه الفضيلة يتوق إلى إطالة حياته كما يتوق إلى قصرها.

أحب من لا يريد الاتصاف بعديد الفضائل؛ إذ في الفضيلة الواحدة من الفضائل أكثر مما في فضيلتني، والفضيلة الواحدة حلقة ترتبط فيها الحياة.

أحب من يجود بروحه فلا يطلب جزاء ولا شكورا، ولا يسترد، فهو يهب دائما ولا يفكر في الاستبقاء على ذاته.

أحب من يخجل من سقوط زهر النرد لحظه فيرتاب بغش يده، إن أمثاله هم التائقون إلى الزوال.

أحب من يبذل الوعود وهاجة ثم يتجاوز عمله وعده، إن أمثاله هم التائقون إلى الزوال.

أحب من يبرر أعمال الخلف ويدافع عن السلف لأنه بذلك يسلم نفسه إلى نقمة معاصريه، فهو ممن يتوقون إلى الزوال.

أحب من يعلن حبه لربه بتوجيه اللوم إليه؛ إذ يجب أن يهلك بغضب ربه.

أحب من يبلغ التأثر أعماق روحه في جراحها فيعرضه أتفه حدث للفناء، إن أمثاله يعبرون الصراط دون أن يترددوا

أحب من تفيض نفسه حتى يسهى عن ذاته؛ إذ تحتله جميع الأشياء فيضمحل فيها ويفنى بها.

أحب من تحرر قلبه وتحرر عقله حتى يصبح دماغه بمثابة أحشاء لقلبه، غير أن قلبه يدفع به إلى الزوال.

أحب جميع من يشبهون القطرات الثقيلة التي تتساقط متتالية من الغيوم السوداء المنتشرة فوق الناس، فهي التي تنبئ بالبرق وتتوارى.

ما أنا إلا منبئٌ بالصاعقة، أنا القطرة الساقطة من الفضاء، وما الصاعقة التي أبشر بها إلا الإنسان المتفوق.

٥

وبعد أن ألقى زارا هذه الكلمات أجال أنظاره في الحشد وسكت ثم قال في قلبه :لقد تملكهم الضحك، فهم لا يفهمون ما أقول، وما أنا بالصوت الذي يلائم هذه الأسماع.

أعليَّ أن أسد آذانهم ليتمرنوا على الإصغاء بعيونهم؟ أم يجب أن أضرب الصنج أسوة بوعاظ الصيام؟ لعل هؤلاء القوم لا يتقون إلا بالألكن من المتكلمين.

إن لهؤلاء الناس ما يباهون به فما عساه أن يكون؟

إنهم يسمونه مدنية ليميزوا بها أنفسهم على الرعاة، فهم لذلك ينفرون من لفظة الاحتقار إذا ما ذُكرت في معرض الكلام عنهم، فلسوف أخاطبهم إذن عن غرورهم.

سأخاطبهم عن أحقر الكائنات، عن الإنسان الأخير وتوجه إلى الحشد قائلاً لقد آن للإنسان أن يضع هدفًا نصب عينيه، لقد آن له أن يزرع ما يُنبت أسمى رغباته ما دام للأرض بقية من ذخرها؛ إذ سيأتي يوم ينفذ هذا الذخر منها فتجدب ويمتنع على أية دوحة أن تنمو فوقها.

ويل لنا !لقد اقتربت الأزمنة التي لن يفوق الإنسان فيها سهام شوقه محلقة فوق البشرية؛ إذ تخونه قوسه وتتراخى أوتارها.

الحق ما أقوله لن يخرج من الإنسان كوكب وهاج للعالم حني تزول بقية السديم من نفسه، وهذا السديم لم يزل فيكم.

ويل لنا !لقد اقتربت الأزمنة التي لن يدفع الإنسان فيها بالكواكب للعالم، ويل لنا؟ لقد اقترب زمان الإنسان الحقير الذي يمتنع عليه أن يحتقر نفسه.

اسمعوا !هأنذا منبئكم عن الرجل الأخير.

إنه من يقف متسائلا عن نفسه فلا يعلم أمحبةٌ هي أم إبداع أم تشوق، أم توهج كوكب .

وستصغر الأرض في ذلك الزمان فيطفر على سطحها الرجل الأخري الذي يحول إلى حضارة كل ما يدور به، إن سلالة هذا الرجل لا تباد، فهي أشبه بالبراغيث، والإنسان الأخير أطول البشر عمراً.

ويقول أناسي الزمن الأخير متغامزين :لقد اخترعنا السعادة اختراعاً.

لقد هجر هؤلاء البقاع التي تقسو عليها الحياة؛ لأنهم شعروا بحاجتهم إلى الحرارةً فأصبح كل واحد يحتك بجاره وقد احتاجوا إلى الدفء جميعاً.

إنهم يقتحمون الحياة باحتراس؛ لأن الوجل والمرض في عينهم خطأ، وما سلم من الجنون من يتعثر منهم بالحجارة وبالناس.

إنهم يأخذون قليلاً من السموم حيث يجدونها طلباً لملاذ الأحلام ويكرعون منها ما يكفي دفعة واحدة طلبًا للذة الموت.

وإذا هم عملوا فإنما يعملون للتسلية محاذرين أن تذهب هذه التسلية بهم إلى حدود الإنهاك.

ليس بينهم من يصبح غنيًا أو يمسي فقيراً، وكلا الفقر والغنى يُجلب الضنى، وما منهم من يطمح إلى الحكم أو يرضى بالخضوع وكلاهما محرج مرهق.

وليس هنالك إلا قطيع واحد إن كلا من الناس يتجه إلى رغبة واحدةٍّ ليس هنالك راع فالمساواة سائدة بين الجميع، ومن اختلف شعوره عن شعور الممجموع يسري بنفسه مختاراً إلى مأوى المجانين.

ويغمز أمكر هؤلاء الناس بعينهم ويقولون :لقد كان الجميع مجانين فيما مضى.

لقد ساد الاحتراس بين هؤلاء القوم؛ لأنهم أخذوا بالعبر، فهم يتلقون الحادثات متهكمين، وإذا نشأ بينهم خلاف بادروا إلى حسمه صلحا؛ لأنهم يحاذرون أن تصاب معدهم بالعلل والأدواء.

لهؤلاء الناس لذات للنهار ولذات أخرى لليل، غير أنهم يراعون صحتهم أولا لقد اخترعنا السعادة اختراعاً ذلك ما يقوله أناسي الزمن الأخير وهم يغمزون.

عند هذا أنهى زارا خطابه أو بالأحري تمهيد خطابه فتعالت أصوات التهليل من الحشد وهو يقول :إلينا بهذا الرجل الأخير يا زارا، اجعلنا على مثال أناسي الزمن الأخير فقد تخلينا لك عن الإنسان المتفوق.

ولكن زارا وجم أمام هذا الحشد يسوده مثل هذا الروح فاستولى الحزن عليه وقال في نفسه :إنهم لا يفهمون كلامي، فلست بالصوت الذي تتطلبه هذه الأسماع .

لقد عشت طويلا في هذه الجبال وأنصت طويلا إلى هدير الغدران وحفيف الأشجار،فأنا أكلم هؤلاء الناس الآن كأنني أخاطب رعاة الماعز.

إن روحي صافية تغمرها الأنوار كما تغمر القمم تباشيرُ الصباح، ولكنهم يحسون بالصقيع في قلبي ويحسبونني مهرجا يأتيهم بالمفجع من النكات.

إنهم يحدجونني بأنظارهم ويتضاحكون، ففي قلبهم ثورة البغضاء وعلى شفاههم بسمة الثلوج.

٦

وطرأ حادث كمم الأفواه واسترعى الأبصار، وكان البهلوان بدأ بألعابه فاندفع من النافذة وأخذ يتمشى على الحبل الممدود بين برجين فوق الساحة وما عليها من المتفرجين، وما وصل إلى وسط الحبل حتى فتحت النافذة مرة ثانية، واندفع منها فتى مخطط بالألوان كالمهرجين وسار متبعاً خطوات البهلوان صارخاً إلى الأمام أيها الأعرج !إلى الأمام أيها الكسلان، أيها المرائي ذو الوجه الشاحب !إذهب لئلا تداعبك نعلي، ما هو عملك بين هذين البرجين؟ أفليس في البرج مكان سجنك؟ أنك تسد الطريق في وجه من هو أفضل منك وكان الفتى يتقدم خطوة كلما قال كلمة حتى أصبح على قاب قوسين من البهلوان، وعندئذ وقع الحادث الذي كم الأفواه واسترعى الأبصار؛ فإن الفتى لم يلبث أن صرخ صرخة الجن وقفز فوق العقبة القائمة في سبيله.

ولما رأى البهلوان انتصار خصمه عليه أخذه الدوار، وخلت رجله عن الحبل فرمى عارضة التوازن من يديه وسقط في الفضاء حيث لاحت رجلاه ويداه كعجلة تدور في الهواء . وماج الحشد على الساحة كالبحر اجتاحته العاصفة وانفرط الناس مولِّني الإدبار، وانفرج المكان حيث كان يتجه الجسم بانحداره.

ولكن زارا لم يتحرك فوقع الجسم على مقربة منه حيث تقطعت أوصاله وتهشم، غير أنه كان لم يزل حيّا، وما عتم أن عاد روع الجريح إليه فرأى زارا جاثيًا قربه فرفع رأسه وقال له :ماذا تفعل هنا؟ ما كنت أجهل أن الشيطان سيُضل خطواتي وها هو ذا الآن يجرني إلى جحيمه، أفتريد أن تمنعه؟ فقال زارا :وشرفي يا صديقي إن ما تذكره لا وجود له، فليس من شيطان وليس من جحيم، إن روحك ستموت بأسرع من جسدك فلا تخش بعد الآن شيئًا.

فرفع الرجل بصره مشككا وقال :إذا كان ما تقوله صحيحا فإنني لا أفقد شيئًا بفقد الحياةُ، فلست أنا إذن إلا حيوانًا وقد رقِّصت بالضرب وغذِّيت بأفخر غذاء.

فقال زارا :لا، ليس الأمر كما تقول فإنك اتخذت المخاطرة مهنة لك ولم يكن فيها ما يشين، أما الآن فمهنتك هي أن تفنى، من أجل هذا سأدفنك بيدي.

ولم يحر المدنف جوابًا بل حرك يده باحثًا عن يد زارا ليصافحها دلالة على شكره .

٧

وأمسى المساء مرخيًا سدوله على الساحة، فتفرق عنها املتفرجون وقد أرهقهم الفضول والرعب، وبقي زارا جالسا على الأرض قرب الميت فاستغرق في تفكيره ناسيًا مرور الزمان حتى هبت نفحات الليل عليه منفردا، فناجى نفسه قائلا :لقد كان صيدك موفقا اليوم يا زارا !لقد أفلت الناس منك فاصطدت جثة هامدة.

إن حياة الإنسان محفوفة بالأخطار، وهي فوق ذلك لا معنى لها ... فإن مهرجا يمكنه أن يقضي عليها.

أريد أن أعلِّم الناس معنى وجودهم؛ ليدركوا أن الإنسان المتفوق إنما هو البرق الساطع من الغيوم السوداء :من الإنسان.

ولكنني لم أزل بعيدا عن هؤلاء الناس وفكرتي بعيدة عن مداركهم، فأنا لم أزل متوسطا المدى بين مجنون وجثة هامدة.

إن الليل مظلم ومسالك زارا مظلمة أيضا، تعال أيها الرفيق المتيبِّس في صقيعه !إنني ذاهب بك إلى حيث أواريك التراب بيدي.

٨

ورفع زارا الجثة على كاهله ومشي، ولكنه ما قطع مائة خطوة حتى زحمه رجل، وما كانّ هذا الرجل إلا مهرج البرج، فأسر إليه :اذهب من هذه المدينة يا زارا، فإن مبغضيك فيها كثيرون، هنا يكرهك أهل الصلاح والعدل، فيصفونك بالعدو والمزدرى، ويكرهك المؤمنوً بالدين الحق فيرون بك خطرا على عامة الناس، وقد كان من حظك أن هزأ الحشد بك؛ لأنك كنت تتكلم كالمهرجين، وكان من حظك أيضا أن اشتركت والكلب الميت، فقد كان خلاصك هذه المرة في إسفافك إلى هذه المهاوي، ولكنك لن تسلم في الثانية فاذهب من هذه المدينة وإلا فإنني قافز غدا فوق جثة أخرى . قال الرجل هذا وتوارى وتابع زارا سيره في الشوارع المظلمة، ولما بلغ باب المدينةُ التقى وحفَّار القبور فوجهوا إلى رأسه أشعة مصابيحهم وإذ عرفوا فيه زارا أشبعوه سخريةً وهزءًا وقالوا :مرحى يا زارا !لقد صرت الآن حفارا للقبور، إنك تحمل الكلب الميت لقد أحسنت، فإن أيدينا أطهر من أن تدنس بجثته، أتريد يا زارا أن تختلس من الشيطان ولكن الشيطان أمهر منك، ولعله يسرقكما كليكما فيلتهمكما التهاماً.

ودار حفَّار القبور بزارا يتفرسون فيه، أما هو فلزم الصمت وسار في طريقه، وبعد أن مشى ساعتين يقطع الأحراج والمستنقعات، شعر بالجوع لكثرة ما عوت حوله الذئاب الجائعة، فوقف أمام بيت منفرد لاحت له الأنوار من نوافذه، وقال :لقد عضني الجوع وداهمني كاللص بين الأحراج في الليل البهيم .

إن لجوعي نزوات مستغربة وقد يداهمني حتى بعد الطعام، ولكنه اليوم ند عني منذ الصباح حتى المساء فأين كان هذا الجوع؟ وطرق زارا باب البيت فظهر له منه شيخ يحمل مشعلاً، وقال له :من الآتي إليَّ وإلى رقادي المضطرب؟.

فأجاب زارا :أتيناك اثنين حي وميت، أعطني مأكلا ومشربًا فقد نسيت الغذاء النهار بطوله، إن من يشبع الجياع يولي نفسه قوة، هكذا قالت الحكمة.

فغاب الشيخ وعاد بخبز وخمر وقال :إنها لأماكن موحشة للجياع، وذلك ما دعاني إلى السكن هنا حيث يهرع إليَّ البشر والحيوان في وحدتي، أفلا تدعو رفيقك ليأكل ويشرب معك فهو أشد تعبًا منك.

فقال زارا :إن رفيقي ميت ولا يسهل عليَّ إقناعه بتناول الطعام.

فتمتم الشيخ :ذلك لا يهمني، إن من يطرق بابي عليه أن يأخذ ما أقدمه له، كلا هنيئًا

وعاد زارا إلى السير فمشي ساعتين أيضا وهو يهتدي إلى رسوم الطريق بنور النجوم، وقد كان معتادا السير ويحب أن يتفرس في كل ما يروق له، وعندما لاح الصباح كان زارا وصل إلى غابة كثيفة حيث انقطع كل طريق أمامه، فتوقف ووضع الجثة في فراغ شجرة حواها حتى رأسها ليقيها هجمات الذئاب، ورقد بعد ذلك متوسداً نبات الأرض وما عتم حتى استغرق في نومه منهوك الجسم مرتاح الضمير .

٩

وطال نوم زارا حتى غمرت وجهه أنوار الضحى بعد أن داعبته تباشير الفجر، ففتح عينيه مبهوتًا وسرح أبصاره على الغاب ثم حولها يستكشف نفسه ساكنًا مستغربًا.

وهب من مجلسه فجأة كما يهب الملاح تبدو لعينه الأرض فهتف وقد هزه المرح؛ لأنه اكتشف حقيقة جديدة فخاطب قلبه قائلاً لقد انفتحت عيناي إنني بحاجة إلى رفاق أحياء لا إلى رفاق أموات وجثث أحملهم إلى حيث أريد.

إنني أطلب رفاقًا أحياء يتبعونني؛ لأنهم يريدون أن يتبعوا أنفسهم أيَّان توجهت.

لقد انفتحت عيناي؛ ليس على زارا أن يخاطب جماعات بل عليه أن يخاطب رفاقًا، يجب ألا يكون زارا راعيًا للقطيع وكلبًا له.

إنني ما جئت إلا لأخلص خرافًا عديدة من القطيع، وسوف يتمرد الشعب والقطيع عليَّ، إن زارا يريد أن يعامله الرعاة معاملتهم للصوص.

قلت رعاة غير أنهم يُدعون بالصالحين والعادلين، قلت رعاة غير أنهم يدعون بالمؤمنين بالدين الحق.

انظروا إلى أهل الصلاح والعدل لتعلموا من هو ألد أعدائهم، إنه من يحطم الألواح التي حفروا عليها سننهم، ذلك هو الهدام ذلك هو املجرم، غير أنه هو المبدع.

انظروا إلى المؤمنين بجميع المعتقدات تعلموا من هو ألد أعدائهم إنه من يحطم الألواح التي حفروا عليها سننهم، ذلك هو الهدام ذلك هو المجرم، غير أنه هو المبدع.

إليَّ بالرفاق، إنني أطلبهم مبدعين ولا أطلبهم جثثًا وقطعانًا ومؤمنني.

إن المبدع لا يتخذ له رفاقًا إلا من كانوا مثله مبدعين، إنه يتخذهم ممن يحفرون سننً جديدة على ألواح جديدة.

إن من يطلب المبدع إنما هم الحصاد يعاونونه في الحصاد؛ لأن كل شيء قد أصبح في عينه ناضجاً للحصاد، ولكن المائة منجل ليست بين يديه فهو يتميز غضبًا ويقتلع السنابل من أصولها.

إن المبدع يطلب رفاقًا له بين من يعرفون أن يشحذوا مناجلهم، وسوف يدعوهم الناس هدامين ومستهزئين بالخير والشر، غير أنهم يكونون هم الحاصدين والمحتفلين بالعيد.

إن زارا يطلب من هم مثله مبدعون يشاركونه في الحصاد وفي الراحة فلا حاجة له بالقطعان والرعاة وأشلاء الأموات.

وأنت يا رفيقي الأول، ارقد بسلام لقد أحسنت دفنك في فراغ الشجرة ووقيتك افتراس الذئاب.

غير أنني سأفترق عنك لأن الزمان قد مر سريعا، وقد انبثقت حقيقة جديدة في أفق نفسي ما بين فجرين.

لن أكون راعيًا، ولن أكون حفار قبور، ولسوف لا أقف بعد الآن في الجماعات خطيبًا فقد وجهت آخر خطبي إلى ميت.

أريد أن أنضم إلى المبدعين، إلى أولئك الذين يحصدون ويرتاحون فأريهم قوس قزح والمراتب التي يرقاها الواصلون إلى الإنسانية المتفوقة.

سأهتف بنشيدي للمعتزلين ولمن يشعرون بمثنويَّتهم في انفرادهم إنني سأملأ بغبطتي قلب كل من له أذنان تصغيان إلى ما لم تسمعه أذن بعد.

إنني أسير إلى هدفي وأتبع طريقي فأقفز فوق المترددين والمتأخرين، وهكذا سيكون سيري جنوحا إلى الغروب.

١٠

وكان زارا يناجي نفسه بهذا القول والشمس في الهاجرة، وإذا به يسمع صوتً الفضاء ولاح له نسر يعقد حلقات في طيرانه، وقد تعلق به أفعوان وما كان النسر يقبض عليه بمخلبيه كفريسة، بل كان الأفعوان حول عنقه التفاف المحب .

فهتف زارا والحبور يملأ فؤاده :هذان نسري وأفعواني؛ فالنسر أشد الحيوانات افتخارا، والأفعوان أشدها مكراً تحت الشمس، وكلاهما ذاهبان مستكشفَين فى الفضاء ليعلما ما إذا كان زارا لم يزل في الحياة، فهل أنا لم أزل حيًا بعد؟.

لقد اعترضني من المخاطر بين الناس ما لم أجد مثله بين الحيوانات، إنني أتبع السبل الخطرة فلأقتدين بنسري وأفعواني.

وتذكر زارا القديس المنعزل في الغاب فتنهد وقال :لأكونن أوفر حكمة لأكونن ماكرا كأفعواني، غير أنني أطلب المستحيل لذلك أتوسل إلى افتخاري أن يلازم حكمتي ولا ينفصل عنها.

وإذا ما تخلت حكمتي عني يوما وهي تتوق إلى الطيران وأسفاه؛ فإنني لأرجو أن يطير افتخاري مستصحبًا جنوني .

وهكذا بدا جنوح زارا إلى المغيب .

الجزء الثانى

خطب زرادشت

التحول في ثلاث مراحلَ:

سأشرح لكم تحول العقل في مراحله الثلاث فأنبئكم كيف استحال العقل جملاً، وكيفً استحال الجمل أسداً، وكيف استحال الأسد أخيرا فصار ولداً.

ما أوفر الأحمال التي تثقل العقل الجلْد الصليب وهو مجلى الوقار، فإن صلابته تتوق إلى الحمل الثقيل بل إلى أثقل الأحمال. يفتش العقل السليم عن أثقل الأحمال؛ فينيخ كالجمل ظهره متوقعاً رفع خير حِملً إليه إن العقل السليم ينادي الأبطال قائلاً :أي حمل هو الأثقل لأرفعه فتغتبط به قوتي؟ .

أفليس أثقل الأحمال هو في الاتضاع لإنزال العذاب بالغرور؟ أفليس أثقلها أن يبدي الإنسان اختلالا لتظهر حكمته جنونًا؟ .

أم أثقلها في تخلي الإنسان عن مطلب حين يقترن هذا المطلب بالنصر، أم في ارتقاء قمم الجبال لتحدي من يتحدى؟.

أم أثقلها في أن يتغذى الإنسان بأقماع السنديان والأعشاب ويتحمل مجاعة نفسه من أجل الحقيقة.

أم أثقلها في احتمال المرض وطرد العواد المعزين، أم في مخادنة الصم الذين لا يسمعون ولا يعون ما تريد؟ أم أثقلها في الانحدار إلى المياه القذرة إذا كانت الحقيقة فيها والرضى بملامسة الضفادع اللزجة والعقارب التي تقطر صديدًا .

أم أثقلها في محبة من يحتقرنا وفي مد يدنا لمصافحة شبح يقصد إدخال الرعب إليّ قلوبنا إن العقل السليم يحمل ذاته جميع هذه الأثقال المرهقة، وكالجمل الذي يسارع إلى طريق الصحراء عندما يُرفع الوقر عن ظهره هكذا يندفع هو أيضاً نحو صحرائه.

وهنالك في الصحراء القاحلة يتم التحول الثاني؛ إذ ينقلب العقل أسدا؛ لأنه يطمح إلى نيل حريته وبسط سيادته على صحرائه.

وفي هذه الصحراء يفتش عن سيده ليناصبه العداء كما ناصب سيده السابق، فهو يستعد لمكافحة التنيّن والتغلب عليه.

ومن هو هذا التنين الذي يتمرد العقل عليه فلا يريد بعد الآن أن يرى فيه ربه وسيده؟.

وعقل الأسد يريد أن ينطق بكلمة يجب عليك إن التنين هو كلمة أريد إن كلمة الواجب تترصد الأسد على الطريق تنينًا يدرع بآلاف الأصداف وعلى كل قطعة منها تتوهج بأحرف مذهبة كلمة يجب عليك وعلى هذه الأصداف تشع شرائع ألف عام والتنين الأعظم يعج قائلا إن جميع الشرائع تتوهج عليَّ.

كل ما هو سنَّة قد أوجد من قبل، وبي تتمثل جميع السنن الكائنة، والحق إن كلمة أريد يجب ألا ينطق بها أحد بعد !هكذا قال التنين.

فأية حاجة لكم أيها الإخوة بأسد العقل؟ أفما يكفيكم الحيوان القوي الجليل الممنَّع بامتناعه؟.

من العبث أن تطمحوا إلى خلق سنن جديدة، إن الأسد نفسه ليعجز عن هذا الخلق؛إذ لا يسعه إلا أن يستعد بتحرير نفسه لخلق جديد، لأن قوته لن تتجاوز هذا الحد.

أيها الإخوة، إن العمل الذي تحتاجون فيه إلى الأسد إنما هو تحرير أنفسكم والوقوف ببطولة الامتناع في وجه كل شيء حتى في وجه الواجب، ذلك أيها الإخوة هو العمل الذي تحتاجون إلى الأسد للقيام به.

إن الاستيلاء على حق إيجاد سنن جديدة يقضي بالجهاد العنيف على العقل الخشوع الصبور، ولا ريب أن في هذا الجهاد قسوة لا يتصف بها إلا الحيوانات المفترسة.

لقد كان العقل فيما مضى يتعشق كلمة الواجب كأنها أقدس حق له، وقد أصبح عليه الآن أن يجد حتى في هذا الحق المفدى ما يحدو به إلى التعسف والتوهم، ليتمكن بإرهاق عشقه أن يستولي على حريته وليس غير الأسد من يقوم بهذا الجهاد.

ولكن ما هو العمل الذي يقدر عليه الطفل بعد أن عجز الأسد عنه؟ وملاذا يجب أن يتحول الأسد المكتسح إلى طفل؟.

ذلك لأن الطفل طهر ونيسان؛ لأنه تجديد ولعب وعجلة تدور على ذاتها فهو حركة البداية وعقيدة مقدسة.

أجل أيها الإخوة إن العمل الإلهي للإبداع يستلزم عقيدة مقدسة، فإن العقل يطلب الآن إرادته، ومن فقد الدنيا يريد الآن أن يجد دنياه.

لقد ذكرت لكم تحولات العقل الثلاثة فأوضحت كيف استحال العقل جملا وكيف استحال أسداً وكيف استحال أخيرًا إلى طفل.

هكذا قال زارا، وكان في ذلك الحين مقيما في مدينة اسمها البقرة العديدة الألوان.

منابر الفضيلة:

وبلغ زارا خبر حكيم أطنب الناس في علمه ومقدرته في التكلم عن الكرى وعن الفضيلة فحبَوه بالتكريم والتبجيل، واتَّبعه عدد من الشبان أصبحوا دعامة لمنبره العالي، فذهب زارا وجلس معهم أمام المنبر مصغيًا إلى الحكيم فكان يقول:

مجدوا الكرى وعظموه؛ لأن له المقام الأول وتحاشوا مرافقة من ساء رقادهم ومن استحوذ عليهم الأرق.

إن اللص ليقف خاشعا أمام الكرى فيدلج في الليل مخرسا وقع أقدامه، ولكن الساهرالمجازف لا يتورع عن حمل بوقه.

ليس بالسهل أن يعرف الإنسان كيف يستسلم لسنة الكرى، وليس إلا لمن عرف كيف ينتبه طول النهار أن ينام ملء جفنيه.

يجب عليك أن تقاوم نفسك عشر مرات في النهار فتغنم خير التعب وتهيئ المخدر لروحك.

عليك أن تصالح نفسك عشر مرات في النهار؛ لأنه إذا كان في قهر النفس مرارة فإن في بقاء الشقاق بينك وبينها ما يزعج رقادك.

عليك أن تجد عشر حقائق في يومك كيلا تضطر إلى السعي وراءها في نومك فتبقى نفسك جائعة.

عليك أن تضحك عشر مرات في يومك لتكون مرحاً كيلا تزعجك معدتك في ليلك والمعدة بيت الداء.

قليل من يعرف هذا من الناس، ولن يتمتع بالرقاد الهنيء إلا من حاز جميع الفضائل،فإذا ما المرء أدى شهادة زور أو تلطخ بالزنا وإذا هو اشتهى خادمة قريبه فقد حرم وسائل الهناء في نومه.

غير أن المرء يحتاج فوق فضائله إلى شيء آخر وهو أن يندفع إلى الرقاد بفضائله نفسها في الزمن المناسب.

إن من الفضائل من هي كالغانيات المتجنِيات، فأقم بينهن حائلاً كيلا ينتهني إلى عراك تكون أنت ضحيته.

ليكن سلام بينك وبين ربك وبين الأقربين، فلا نوم هنيء بدون هذا السلام، وسالم شيطان جارك أيضاً لئلا يراودك في رقادك.

أكرم السلطة واخضع لها حتى ولو كانت هذا السلطة عرجاء إن ذلك ما يقتضيه النوم الهنيء.

وما أنا بالجاني إذا كان يحلو للسلطة أن تسير متعارجة.

إن خير الرعاة من يقود قطيعه إلى المروج ذلك ما يقتضيه الرقاد الهنيء.

لا أطلب كثيراً من المجد ولا وفيرًا من المال وكلاهما يؤدي إلى الاضطراب، ولكن المرء لا ينام هنيئًا ما لم يكن له شيء من الشهرة ولديه شيء من المال.

أفضل أن يزورني القليل من الناس على أن يرتاد مسكني عَشراءُ السوء، وهذا العدد القليل يجب عليه ألا يطيل السمر عندي لئلا يعكر صفو رقادي

تسرني مجالسة البلهاء؛ لأنهم يجلبون النعاس، ولشد ما يغتبطون عندما نحبِّذ حماقاتهم ونشهد بإصابتهم.

على هذه الوتيرة يقضي فضلاء الناس نهارهم، أما أنا فإنني إذا أمسى المساء أحترس من أن أراود النعاس؛ لأنه سيد الفضائل ولا يرتاح إلى تحرش الساهرين وتحت جنح الظلام أستعرض ما فكرت فيه وما فعلته في يومي، فأنطوي على نفسي كالحيوان الصبور وأسائلها عما قهرت به أميالها عشر مرات وعما عقدت به الصلح مع ذاتها عشر مرات، وعن الحقائق العشر والمسرات العشر التي أفعمت بها.

وبينما أكون مستغرقًا تهزني الأربعون خاطرة، يستولي النعاس عليَّ فجأة، وهكذا يسودني الكرى سيد الفضائل دون أن أتوجه بدعوة إليه.

يشغل النعاس جفني فتغمضان، ويلمس فمي فيبقى مفتوحا.

إنه يدلف إليَّ كلص محبوب فيسرق أفكاري وأبقى أنا منتصبًا كعامود من خشب، ثم لا تمر لحظات حتى أنطرح ممددا على فراشي.

وبعد أن أصغى زارا إلى هذه الأقوال يقرع الحكيم بها الأسماع تملَّك ضحكه، وأشرقَ نور في جوانب نفسه فناجاها قائلا : يتراءى لي أن هذا الحكيم قد جن كخواطره الأربعين .

ولكنه جد خبري بحالات الكرى، فما أسعد من يجاور هذا الحكيم !لأن مثل هذا النعاس شديد الانتقال بالعدوى حتى إلى ما وراء الجدران.

إن شيئًا من السحر يفوح من منبره العالي، وما يجتمع هذا العدد من الشبان عبثًاً حول خطيب الفضائل.

إن قاعدة هذا الحكيم إنما هي :اسهروا لتناموا وفي الحقيقة لو لم يكن للحياة معناها ووجب أن أختار لها حكمة لا معنى لها لما كنت أجد أفضل من هذه القاعدة لقد أدركت الآن ما كان يطلب الناس قبل كل شيء عندما كانوا يفتشون على أوليات الفضائل، إنهم كانوا يطلبون النوم الهنيء والفضائل التي يتجلى على مفرقهاّ تاج المخدرات، وما كانت الحكمة في عرف حكماء المنابر، وقد نالوا الإعجاب والثناء، إلا قاعدة نوم لا تقلقه الأحلام إنهم لم يكتشفوا معنى أفضل من هذا المعنى للحياة وكم في أيامنا هذه من أناس يشبهون هذا الواعظ في دعوته إلى الفضيلة غير أنهم أقلَّ إخلاصا منه، ولكن هذا الزمان لم يعد زمانهم ولن يطول وقوفهم والكرى يراود أفكارهم فهم عن قريب سيُمددون.

طوبى لمن دب إلى عيونهم النعاس !إنهم عما قريب سيرقدون.

المأخوذون فى العالم الثانيً:

ترامى زارا يوما بخياله إلى ما وراء الإنسانية، فتراءى هذا العالم لديه كما يراه جميع رب متألم مضطرب، فقال :رأيت الدنيا كأنها أحلام نائم المأخوذين بالعالم الثاني خليقةٌ أبدعت أبخرة حوالة متلونة ترتد عنها ألوهية النفس على غير رضى، وقد لاح لي الخير والشر والأفراح والأحزان، وذاتي وذات الآخرين كما تلوح الأبخرة الملونة لعين المبدع، ولعل المبدع أراد أن يتحول ببصريته عن ذاته فأوجد العالم.

لا ينتشي المتألم بمسرة أشد من مسرته حينما يُعرض عن آلامه وينسى نفسه، هكذا ، وهو يتقلب أبدا في نقائصه معكساً تكشف لي العالم يوما فرأيت مسرته ثملاً ونسياناً للتناقض الأبدي.

نظرت إلى العالم يوما فلاح لي مسرة مسكرة يتمتع بها مبدع غير كامل خلقتُه أناءِ فجاء ككل أعمال البشر جنَّة بشرية.

ما كان هذا الإله إلا إنسانًا، بل جزءًا من شخصية إنسان؛ لأنه نشأ من ترابي ومن لهبي، إنه لشبح من هذا العالم لا من وراء هذا العالم.

شهدت ذلك، أيها الإخوة، فتفوقت على ذاتي بآلامي، وحملت ترابي إلى الجبل حيث أوقدت نارا تشع نورا فإذا بالشبح يتوارى مبتعداً عني

فإذا ما آمنت الآن بمثل هذا الشبح، فلا يكون إيماني إلا توجعا وصغارا، ذلك ما أقوله للمأخوذين بالعالم الثاني. ما أوجدت العوالم الأخرى في هذا العالم سوى الآلام والشعور بالعجز، ذلك ما أوجدته تلك العوالم، فأوجدت معه هذا الجنون السريع الزوال بسعادة ما ذاقها من الناس إلا أشدهم آلاما.

إن المتعب الذي يطمح إلى اجتياز أبعد مدى بطفرة واحدة بطفرة قاتلة، وقد بلغت به مسكنته وجهالته حدا لا يستطيع عنده أن يريد، إنما هو نفسه مبدع جميع الآلهة وجميع العوالم الأخرى.

صدقوني، أيها الإخوة، إن الجسد قد قطع رجاءه من الجسد، فغدا يجس بأنامله مواضع الروح المضللة، وذهب يتلمسها من وراء الحواجز القائمة على مسافة بعيدة.

صدقوني، أيها الإخوة، إن الجسد قد تملكه اليأس من الأرض فسمع صوتًا يناديه من قلب الوجود، فأراد أن يخترق برأسه أطراف الحواجز، بل حاول العبور منها إلى العالم الثاني، غير أن العالم الثاني جد خفي عن الناس؛ لأنه بتخنثه وابتعاده عن كل صفة إنسانية ليس إلا سماءً من العدم إن قلب الوجود لا يخاطب الناس إذا لم يكلمهم كإنسان.

والحق إنه ليصعب علينا إثبات الوجود واستنطاقه أجيبوا أيها الإخوة، أفما يلوح لكم أن أغرب الأمور أثبتها دليلا؟

أجل !إن هذه الذات على ما فيها من تناقض واختلال تثبت بكل جلاء وجودها فتبتدع وتعلن إرادتها لتضع المقاييس وتعني قيَم الأشياء، وما تطلب هذه الذات في إخلاصها إلا الجسد حتى في حالة استغراقه في أحلامه، وتحفزه للطيران بأجنحته المحطمة.

إن هذه الذات تتدرب على الإفصاح عن رغباتها بإخلاص، وكلما ازدادت تدربًا الهمت البيان للإشادة بالجسد وبالأرض.

لقد علَّمتني ذاتي عزة جديدة أعلمها الآن للناس :علمتني ألا أخفي رأسي بعد الآن في رمال الأشياء السماوية، بل أرفعها رأسا عزيزة ترابية تبتدع معنى الأرض.

إنني أعلِّم الناس إرادة جديدة يتخيرون بها السير على الطريق التي اجتازها الناس عن غباوة من قبلهم، أعلمهم أن يطمئنوا إلى هذه الطريق فلا تنزلق أرجلهم عنها كما انزلقت أرجل الأعلاء المتهكمين، وما هؤلاء إلا من ابتدعوا الأشياء السماوية واخترعوا قطرات الدماء المراقة لافتداء البشر، على أن هذه السموم التي أخذوا بلذتها ورهبتها لم يستخرجوها إلا من الجسد ومن الأرض.

لقد شاءوا الفرار من الشقاء وتراءت لهم الكواكب بعيدة صعبة المنال فوجموا يدفعون بالزفرات قائلين واأسفاه !لم لا تنفتح أمامنا سبل في السماء ننسحب عليها إلى وجود آخر وسعادة أخرى.

في ذلك الحين اخترعوا أوهامهم وكئوسهم الصغرية المترعة بالدماء حسب هؤلاءً الناس في عقوقهم أنهم فازوا بالنعيم بعيداً عن جسدهم وعن الأرض، وتناسوا أن تنعمهم ورعشة ملذتهم إنما نشأت من جسدهم ومن هذه الأرض.

فهو يرى معبود الناس قائما من وهمهم أو بتعبير آخر إن الإنسان قد خلقه الله فصوره من ترابه ونفخ فيه نسمة من لهبه، ولو أننا وقفنا عند كل فكرة جانحة من أفكار نيتشه لنحللها ونرجع منها إلى إيماننا الِمكين لاضطررنا إلى التحول من الترجمة إلى البحث، غير أننا لا نجد بدا الآن من دعوة القارئ إلى الإمعان في الصفات تتراءى لنيتشه كأنها هي الألوهية فيتأكد أن الإله الذي يهاجمه هذا الفيلسوف هو غير إلهنا، وعالمه الثاني هو غير عالمنا الروحي الذي يقيم فينا قبل أن نقيم فيه.

إن نيتشه كان قد خرج على الدين وكان فكره الجبار ينتقد آثار الدين في المجتمع، وقد وقف موقفه السلبي؛ فلا هو يُسكت صراخ نفسه المتمردة، ولا هو يهتدي إلى الدين الحق الذي تسكن الروح إليه، وينتظم المجتمع بأحكامه، وها نحن نورد كلمة لنيتشه قالها وهو يكتب زرادشت وفيها عبرة للمؤمنين وللجاحدين.

في حديقة من حدائق لوزرن جلس نيتشه إلى السيدة لو سالومه وهي حسناء روسية ملكت لبَّه،وفي حديثه معها ملكه الصمت، فرأت لو دموعه تنهمر وبدأ يقص عليها تاريخ تطوره الفكري، فوصف لها سني فتوته التي قضاها في التعبد، ثم عرض مراحله في شكوكه واضطرابه في عالم لا بد من إمرار الحياة فيه دون أن يكون لهذا العالم إله فقال والسيدة نفسها دونت قوله للتاريخ :هكذا بدأت مغامراتي الفكرية وما وصلت إلى محجة منها، فإلى أين أتجه أفلا يجدر بي أن أعود إلى الإيمان، أوإن زارا ليشفق على الأعلاء فلا يغضب لما أوجدوه من وسائل السلوان ولا يتمرمر؛ لأنهم عقُّوا جسدهم وأرضهم، بل هو يرجو لهم الشفاء والتغلب على أنفسهم ليوجدوا لهم أجسادا أرقى من أجسادهم.

إن زارا لا يغضب أيضاً على الناقه(النقاهه فترة ما بعد المرض والناقه هو الشخص الذى كان مريضاً ويتعافى) الذي يحن إلى وهمه فيذهب في منتصف الليل ليطوف بقبر إلهه، ولكنه لا يرى في دموع هذا الناقه إلا أثر المرض والجسم المريض.

لقد وجد في كل زمان كثير من المرضى المستغرقني المتشوهين فهم يكرهون إلى حد الهوس كل من يطلب المعرفة، ويكرهون أبسط الفضائل وهي فضيلة الإخلاص .

أنهم يلتفتون دائما إلى الوراء، إلى الأزمنة المظلمة؛ إذ كان للجنون وللإيمان حلَّتهما الخاصة، فكان الإله يتجلى في هوس العقل، وكانت كل ريبة خطيئة.

لقد عرفتهم جد المعرفة، أولئك المتجلين على صورة الله ومثاله فتيقنت أن جميع رغباتهم تتجه إلى أن يؤمن الناس بهم وأن يصبح كل شك فيهم خطيئة، وما فات مداركي ذلك الإيمان الذي يدعون رسوخه فيهم، فإنهم لا يؤمنون لا بالعوالم الأخرى ولا بقطرات الدماء تفتدي العالم، بل هم كسائر الناس يعتقدون بالجسد، ويرون أن أجسادهم نفسها هي الكائن الواجب الوجود.

غير أن هؤلاء الناس يرون الجسد كائنًاً معتلاً، فيودون أن يبارحوا جلودهم وذلك ما يدفعهم إلى الإصغاء للمبشرين بالموت وما يهيب بهم إلى التبشير بالعوالم الأخرى أما أنتم، يا إخوتي، فأصغوا إلى صوت الجسد الذي أبل من دائه؛ لأن هذا الجسد يخاطبكم بصوت أنقى وأخلص من تلك الأصوات.

إن الجسد السليم يتكلم بكل إخلاص وبكل صفاء، فهو كالدعامة المربعة من الرأس حتى القدم وليس بيانه إلا إفصاحاً عن معنى الأرض وفَّق إلى إيمان جديد؟ على أنه خير لي إذا أنا لم أوفق إلى الوصول لهدف أن أعود أدراجي من أن أقف أنا في حيرتي

المستهزئون بالجسد:

نقلاً عن كتاب دانيال هالا في المستهزئين بالجسد

لأقولن للمستهزئين بالجسد كلمتي فيهم :إن واجبهم ألا يغيروا طرائق تعاليمهم، ولكن عليهم أيضاً أن يودعوا أجسادهم فيستولي على ألسنتهم الخرس.

يقول الطفل :أنا جسد وروح، فلماذا لا يتكلم هؤلاء الناس كالأطفال؟ أما الإنسان الذي انتبه وأدرك ذاته فيقول :إنني أسير جسد لا غيري، وما الروح إلا كلمة أطلقت لتعيين جزء من هذا الجسد.

ما الجسد إلا مجموعة آلات مؤتلفة للعقل، ومظاهر متعددة لمعين واحد إن هو إلا ميدان حرب وسلام، فهو القطيع وهو الراعي.

إن آلة جسدك إنما هي أداة عقلك الذي تدعوه روحا، أيها الأخ، إن هو إلا أداة صغيرة وألعوبة صغيرة لعقلك العظيم.

إنك تقول أنا، وتنتفخ غروراً بهذه الكلمة، غير أن هنالك ما هو أعظم منها، أشئت أن تصدق أم لم تشأ، وهو جسدك وأداة تفكيره العظمى، وهذا الجسد لا يتبجح بكلمة أنا لأنه هو أنا، هو مضمر الشخصية الظاهرة.

إن ما تتأثر الحواس به وما يدركه العقل لا نهاية له في ذاته، غير أن الحس والعقل يحاولان إقناعك بأن فيهما نهاية الأشياء جميعها، فما أشد غرورهما! ما الحس والعقل إلا أدوات وألعوبة، والذات الحقيقية كامنة وراءهما مفتشة بعيون الحس ومصغية بآذان العقل.

إن الذات ما تبرح مفتشة مصغية، فهي تقابل وتستنتج، ثم تهدم متحكمة في الشخصية سائدة عليها، فإن وراء إحساسك وتفكيرك، يا أخي، يكمن سيد أعظم منهما سلطانًا؛ لأنه الحكيم المجهول، وهذا الحكيم إنما هو الذات بعينها المستقرة في جسدك وهي جسدك بعينه أيضاً.

أفلا يرى القارئ الكريم إثبات واجب الوجود في محاولة إنكاره، وإثبات الإيمان الفكري الأسمى في أضل منطق وأصرح جحود؟ ذلك هو رد الفعل الذي أشرنا إليه في مقدمتنا، فإن الإيمان الغربي قد اعتبر الجسد آلة شهوة محتقرة يجب إذلالها، فأنكر الحياة وما الحياة في نظر الشرق المؤمن إلا مقدمة وباطنه ظاهراً، للخلود، وما ثار نيتشه إلا على هذا التصور للكيان الإنساني، فهب يقلب ظاهره باطنًا الشخصية عقلاً وإدراكاً زائلين.

ويشطره إلى ذات وإلى شخصية معتبراً إن في جسدك من العقل ما يفوق خير حكمة فيك، ومن له أن يعلم السبب الذي يجعل جسدك بحاجة إلى خير ما فيك من حكمة .

إن ذاتك تهزأ بشخصيتك وبألعابها قائلة :ما هي خطرات الفكر وتساميه إن لم تكن جنوحاً إلى هدفي، أفلست أنا رائدة الشخصية وملهمة أفكارها؟ تقول الذات للشخصية :اشعري بألم، فتتألم وتفتكر بالتخلص من هذا الألم وقد تحتم عليها أن تتجه إلى هذه الغاية.

وتقول الذات للشخصية :اشعري بالسرور، فتسر وتفتكر بإطالة أمد هذا السرور،وقد تحتم عليها أن تتجه إلى هذه الغاية.

لي كلمة أقولها للمستهزئين بالجسد، وهي أن احتقارهم إنما هو في الحقيقة حرمة واعتبار؛ إذ من هو يا ترى موجد الاحترام والاحتقار والتقدير والإرادة؟.

إن الذات المبدعة أوجدت لنفسها الاحترام والاحتقار كما أوجدت اللذة والألم، إن الجسم المبدع أوجد العقل لخدمته كساعد يتحرك بإرادته.

إنكم لتخدمون الذات الكامنة فيكم حتى في جنونكم وفي احتقاركم، وأنا أقول لكم أيها المستهزئون بالجسد إن ذاتكم نفسها تريد أن تموت، وقد تحولت عن الحياة؛ لأنها عجزت عن القيام بما كانت تطمح إليه، وما أقصى رغباتها إلا إبداع من يتفوق عليها ولقد مضى زمن تحقيق هذه الرغبة، لذلك تطمح ذاتكم إلى الزوال أيها المستهزئون بالأجساد.

إن ذاتكم أصبحت تتوق إلى الزوال، وهذا ما يدفع بكم إلى الاستهزاء بالأجساد؛ إذ قد امتنع عليكم أن تخلقوا من هو أفضل منكم.

إن هذا العجز قد ولَّد فيكم النقمة على الحياة والأرض، وها هي ذي تتجلى شهوة في لحظاتكم المنحرفة دون أن تعلموا.

إنني لا أسير على طريقكم أيها المستهزئون بالأجساد؛ لأنني لا أرى فيكم المعبر الذي يؤدي إلى مطلع الإنسان االمتفوق.

حوافز مجردة خفية إنما هو بنفسه الذات الواجبة الوجود التي تندفع إلى التكامل لتبلغ بالإنسان مرتبة الألوهية.

الملذات والشهوات:

إذا كان لك فضيلة يا أخي، وكانت هذه الفضيلة خاصة بك فإنك لا تشارك فيها أحدا سواك، ولا ريب في أنك تريد أن تدعوها باسمها وتداعبها لتتسلى بها، ولكنك بهذا أشركت بها الناس بما أطلقت عليها من تعريف، فأصبحت أنت وفضيلتك مندمجين في القطيع.

خير لك يا أخي أن تقول :إن ما تلذ به روحي وتتعذب به يتعالى عن الإيضاح، ويجل عن أن يسمى، وهذا العجز عن إدراكي له يخلق المجاعة في أحشائي .

لتكن فضيلتك أسمى من أن تستخف بالأشياء عند تحديدها، وإذا ما اقتحمت هذا التحديد، فلا تستحي من أن تتلفظ به تمتمة، فقل وأنت تتمتم :إن هذا هو خيري الذي أحب، إن هذا ما يثير إعجابي، فأنا لا أريد الخير إلا على هذه الصورة، لا أريد هذه الأشياء تبعا لإرادة رب من الأرباب ولا عملا بوصية أو ضرورة بشرية، فأنا لا أريد أن يكون لي دليل يهديني إلى عوالم عليا وجنات خلود قل :ما أحب سوى فضيلة هذه الأرض، لأن ما فيها من الحكمة قليل، وأقل منه ما فيه من صواب متفق عليه، إن هذا الطير قد بنى عشه على مقربة مني، لذلك أحببته وعطفت عليه، وها هو ذا الآن يحتضن عندي بيضه الذهبي على هذه الوتيرة تكلم وأنت تتمتم ممتدحاً فضيلتك.

لقد كان لك فيما مضى شهوات كنت تحسبها شرورا، أما الآن فليس فيك إلا الفضائل، وقد نشأت هذه الفضائل من شهواتك نفسها؛ لأنك وضعت في هذه الشهوات أسمى مقاصدك فتحولت فيك إلى فضائل وملذات هي منك ولك، ولسوف ترى جميع شهواتك تستحيل إلى فضائل، ولسوف ترى كل شيطان فيك يستحيل ملاكا حتى ولو كنت ممن يستسلمون للغيظ والشهوات وكنت من فئة الحاقدين المتعصبين.

لقد كانت الكلاب المفترسة تسكن دهاليزك من قبل، فها هي ذي الآن أطيار مغردةً لقد استقطرت بلسما من سمومك وحلبت ناقة الأوصاب، وأنت الآن تكرع لذيذ درها .

لن يخلق منك شر بعد الآن، غير أن هناك شرا قد ينشأ من تخاصم فضائلك فاصغ إليَّ ، يا أخي !إنك إذا شعرت بسعادة فما يكون ذلك إلا لفضيلة مستقرة فيك وهي تسهل اجتياز الصراط عليك.

إنها لمزية أن تكون للإنسان فضائل عديدة، غير أن تعدد الفضائل يرمي بالإنسان إلى أشقى الحظوظ، وكم من مجاهد أرهقه النزال في ساحات الفضائل فتوارى لينتحر في الصحراء.

إذا كنت ترى المعارك والحروب شرورا فاعلم يا أخي أنها شروط لا بد منها؛ لأن أن كلا من فضائلك للحسد والريبة والشتيمة مقامها المحترم بني فضائلك نفسها، تبصرتر تطمح إلى المقام الأسمى، وتطمع في الاستيلاء على جميع أفكارك لتستعبدها وتحصر بها وحدها كل ما في غضبك وحبك من قوة.

إن كلا من فضائلك تحسد الأخرى، والحسد هائل مريع يتناول الفضائل أيضاً فيبيدها.

إن من يحيط به لهيب الحسد تنتهي به الحال إلى ما تنتهي العقرب إليه فيوجه حمته المسمومة إلى نحره .

أفما رأيت، يا أخي، من الفضائل من تشتم نفسها وتنتحر؟ .

ليس الإنسان إلا كائنًا وجب عليه أن يتفوق على نفسه، لذلك حق عليك، يا أخي، أن تحب فضائلك لأنك بها ستفنى .

المجرم الشاحب:

انما تريدون ان تنزلوا القصاص، أيها القضاة والمضحون، ما لم يهز الحيوان رأسه؟.

إليكم رأس المجرم الشاحب، إنها لترتعش، وها إن أفظع احتقار يتكلم في نظراته. إن عيني المجرم تقولان لكم :ما الشخصية إلا شيء وجب علينا أن نتسامى فوقه، وما شخصيتي إلا عظيم احتقاري للبشر.

لقد انتهى أجل هذا المجرم عندما أصدر حكمه على نفسه، فلا تتركوا لتساميه سبيلا يندفع منه إلى الانحطاط عاجلوه بالموت فهو المنْفَذ الوحيد لمن بلغ عذابه بنفسه هذا الحد البعيد.

ليكن قصاصكم، أيها القضاة، رحمة لا انتقاما، وإذا ما حكمتم بالموت فلتكن غايتكم تبرير الحياة لا يكفيكم أن تقيموا السلم بينكم وبين من تقتلون، بل يجب أن يكون حزنكم تعبيرًا عن ولهكم بالإنسان المتفوق، وهكذا تبررون الاستبقاء على أنفسكم قولوا إن هذا الرجل عدو، ولا تقولوا إنه سافل صفوه بالمرض لا بالدناءة اعتبروه مختلا لا مجرما، وأنت أيها القاضي، لو أنك تعلن للملأ، وأنت في برودك الحمراء، ما ارتكبت من مآت في تفكيرك، لكنت تسمع الناس يهتفون قائلني :اخلعوا هذا الرجل عن كرسيه فهو ممتلئ أقذار ا وسموماً .

ولكن الفكرة شيء والعمل شيء آخر، كما أن شبح العمل شيء مستقل بنفسه أيضا، فليس بين هذه الأشياء الثلاثة أية علاقة يصح أن تعتبر علاقة العلة بالمعلول.

إن شبح الجريمة كان صورة لاحت لهذا الرجل فعلا وجه الاصفرار؛ لأنه عندما ارتكب جرمه كانت قوته على مستواها، ولكنه ما أتم الجرم حتى وهنت تلك القوة، فلم يستطع أن يتفرس في شبح جرمه.

لقد لاح لهذا الرجل أنه ارتكب فعلة واحدة لا غير، وبذلك يقوم جنونه لأن الشواذ تحول إلى قاعدة في كيانه إن الدائرة التي يرسمها المجرم تصبح قيداً لتفكيره كالفرخة يرسم المنوم حولها دائرة فلا تستطيع اجتياز خطها، وهكذا لا يكاد المجرم يخرج من جرمه حتى يدخل في دائرة جنونه . أصغوا إليَّ، أيها القضاة، إن الجنون الذي يتلو العمل إنما تقدمه جنون آخر قبله،وأنتم لم تسبروا روح المجرم إلى أقصاها.

إن القاضي الأحمر يتساءل عن سبب إقدام المجرم على القتل، فيقول في نفسه: إن القاتل أراد السرقة أولا، أما أنا فأقول :إن نفس المجرم لم تقصد السرقة بل طلبت إراقة الدماء؛ لأنها كانت ظامئة إلى إغماد النصل إن عقلية المجرم لم تفهم هذا الجنون فاندفع إلى ارتكاب جرمه، وعقليته تناجيه قائلة :ما يهمك أن تريق الدماء ما دام جرمك يوصلكَّ إلى السرقة أو الانتقام، لقد أصغى المجرم إلى صوت عقليته المسكينة؛ لأن ما أسرت به إليه كان ثقيلاً كالرصاص، فسرق بعد أن قتل لأنه أراد أن يبرر جنونه ولا يخجل منه

وعاد جرمه فثقل عليه كالرصاص أيضاً، فثقل عقله المسكين فاستولى عليه التخدر والشلل، ولو أن هذا المجرم تمكن من أن ينتفض بهامته لكان تهاوى حمله الثقيل عنه، ولكن من كان سيهز له رأسه يا ترى؟ لو أنك أمعنت النظر في هذا الإنسان، لما تجلى لك إلا مجموعة علل تتطلع بالعقل إلى العالم الخارجي مفتشة عن غنيمة تظفر بها.

ليس هذا الإنسان إلا كتلة أفاع اشتبكت، وهي في تدافع مستمر لا تسكن إلا لتتفكك منسابة في شعاب الدنيا تسعى وراء غنائمها.

انظروا إلى هذا الجسم المسكين !إن روحه الضعيفة طمحت إلى استكناه ما في الجسم من ألم ورغبات، فخيّل لها أنها متشوقة إلى القتل.

إن من يتسلط عليه هذا المرض في هذه الأيام لتباغته شرورها فيريد أن يعذِّب الآخرين بما يتعذب هو به، غير أنه قد مر زمان من قبل كان له خير وشر هما غير خير هذه الأيام وشرها ذلك زمان كانت تحتسب فيه شكوك الإنسان ومطامعه جرائم عليه، فكان المبتلى عن المجتمع فيعمد هو إلى تعذيب الآخرين بعذابه بالشكوك والمطامع يعد ساحرًا ومنشق إنكم لا تريدون الإصغاء إلى أقوالي؛ إذ ترونها تلحق الضرر بالصالحين بينكم، ولكنني لا أقيم وزنًا لرجالكم الصالحين.

إن في هؤلاء الرجال من تشمئز منه نفسي، وليس ما أكره فيهم ما يعد من الشرور ،فإنني أتمنى لهم جنونًاً يوردهم الردى كجنون المجرم الشاحب .

والحق إنني أريد أن يدعى هذا الجنون حقيقة أو إخلاصاً أو عدلاً؛ لأن فضيلة هؤلاء الناس لا تقوم إلا على إطالة عمرهم لقضائه بالملذَّات السافلة ولا ملذة لهم إلا بالارتياح إلى نفوسهم والرضى عنها.

ما أنا إلا حاجز قائم على ضفة النهر، فمن له قدرة على التمسك بي فليفعل، ومن لا طاقة له على ذلك فلا يظن أني سأكون طوع يده يقبض عليَّ كما يقبض الكسيح على عصاه.

القراءة والكتابة:

إنني أستعرض جميع ما كتب، فلا تميل نفسي إلا إلى ما كتبه الإنسان بقطرات دمه.

اكتب بدمك فتعلم حينئذ أن الدم روح، وليس بالسهل أن يفهم الإنسان دما غريبًا، إنني أبغض كل قارئ كسول؛ لأن من يقرأ لا يخدم القراءة بشيء، وإذا مر قرن آخر على طغمة القارئين فلا بد من أن تتصاعد روائح النتن من التفكير.

إذا أعطي لكل إنسان الحق في أن يتعلم القراءة، فلن تفسد الكتابة مع مرور الزمان إذا أَفحسب، بل إن الفكر نفسه سيفسد أيضاً.

لقد كان الفكر فيما مضى إلها فتحول إلى رجل، وها هو ذا الآن كتلة من الغوغاء إن من يكتب سَوَرا بدمه لا يريد أن تُتلى تلك السور تلاوة، بل يريد أن تستظهرها القلوب.

إن أقرب الطرق بين الجبال إنما هو الخط الممتد من ذروة إلى ذروة، ولا يمكنك أن تتبع هذا السبيل؛ إذ لم تكن لك رجلاً مارد .يجب أن تكون التعاليم شامخة كهذه الذرى، وأن يكونمملن تُلقن لهم قوة الجبابرة وعظمتهم.

لقد رق النسيم وصفا، وهذه المخاطر تحدق بي عن كثب، وفكرتي تتخطر مرحة في قسوتها، أمامي الصراط الممهد فلأتخذن من الجن أتباعاً، أنا رب الجسارة والعزم، ومن توصل بأقدامه إلى طرد الأشباح لا يصعب عليه أن يخلق من الجن له أتباعاً.

لقد تاقت شجاعتي إلى الضحك، وقد انقطع كل حبل بيني وبينكم ان السحب المتمخضة بالعواصف لهي سحبكم السوداء الثقيلة وأنا أهزأ الآن بها.

إنكم تنظرون إلى ما فوقكم عندما تتشوقون إلى الاعتلاء، أما أنا فقد علوت حتى أصبحت أتطلع إلى ما تحت أقدامي، فهل فيكم من يمكنه أن يضحك وهو واقف على الذرى؟.

من يحوم فوق أعالي الجبال يستهزئ بجميع مآسي الحياة، ويستهزئ بمسارحها،بل بالحياة نفسها.

تريدنا الحكمة شجعانًا لا نبالي بشيء، تريدنا أشداء مستهزئين؛ لأن الحكمة أولا تحب الأنثى إلا الرجل المكافح الصلب.

تقولون لي إن الحياة وقر ثقيل، فقولوا لي أيضاً ملاذاً تقابلون الصباح بغروركم، ثم يجيء المساء فلا يجد فيكم إلا المذلة والخضوع؟.

إن الحياة جد ثقيلة، ولكن ما هذا الخور الذي يبدو عليكم؟ أفلسنا كلنا دوابّا ولكل دابة منا وقرها؟ وهل من شبه بيننا وبين برعم الورد يرتجف متضايقًا لسقوط قطرة الندى عليه!.

لا ريب أننا نحب الحياة، وليس سبب ذلك لأننا تعودنا الحياة، بل السبب أننا تعودنا حب الحياة.

إن في الحب شيئًا من الجنون، ولكن في الجنون شيئًا من الحكمة، وأنا نفسي التائق إلى الحياة يتراءى لي أن خير من يدرك السعادة إنما هي الفراشات وكرات الصابون الفارغة، ومن يشبهها من الناس، ولا شيء يُبكي زارا ويدفعه إلى الإنشاد كنظره إلى هذه الأزواج الصغيرة الخفيفة الرائعة الدائمة الخفقان في جنونها .

إن الإله الذي يمكنني أن عندما تراءى لي الشيطان رأيته جامداً مستغرقًاً ملؤه الجد والجلال، فقلت هذا هو الروح الذي تتساوى جميع الحالات لديه.

إذا أردت القتل فلا تستعن بالغضب، بل استعن بالضحك فهيَّا بنا نقتل الروح الثقيل.

إنني ما زلت راكضاً منذ تعلمت المشي، وهأنذا أطير الآن ولست بحاجة إلى من يدفعني لأتحرك فأنا أطير مشعراً بأنني أحلِق فوق ذاتي، وأن إلهاً يرقص في لقد أصبحت خفيًف داخلي.

دوحة الجبل:

وارتقى زارا ذات مساء الربوة المشرفة على مدينة البقرة الملونة فالتقى هناك وفتًى كان يلحظ فيما مضى صدوده عنه، وكان هذا الفتى جالساً إلى جذع دوحة يرسل إلى الوادي نظرات ملؤها الأسى، فتقدم زارا وطوق الدوحة بذراعيه وقال :لو أنني أردت هز هذه الدوحة بيدي لما تمكنت، غير أن الريح الخفية عن أعيننا تهزها وتلويها كما تشاء هكذاٌ نحن تلوينا وتهزنا أياد لا تُرى.

فنهض الفتى مذعوراً وقال :هذا زارا يتكلم !وقد كنت موجهاً أفكاري إليه، فقال زارا :ما يخيفك يا هذا؟ أليس للإنسان وللدوحة حالة واحدة؟ فكلما سما الإنسان إلى الأعالي، إلى مطالع النور تذهب أصوله غائرة في أعماق الأرض، في الظلمات والمهاوي .

فصاح الفتى :أجل !إننا نغور في الشرور، ولكن كيف تسنَّى لك أن تكشف خفايا نفسي؟.

فابتسم زارا وقال :إن من النفوس من لا نتوصل إلى اكتشافها إلا باختراعها.

وعاد الفتى يكرر قوله :أجل إننا نغور في الشرور قلت حق ثقتي بنفسي منذ بدأت بالطموح إلى الارتقاء فحرمت أيضاً ثقة الناس، فما هو السبب يا ترى؟ إنني أتحول بسرعة فيدحض حاضري ما مضى من أيامي، ولَكم حلَّقت فوق المدارج أتخطاها وهي الآن لا تغفر لي إهمالي، إنني عندما أبلغ الذروة أراني دائمًا منفرداً في وحدتي فترتجف عظامي، وما أدري ماذا أتيت وليس قربي من يكلمني، ويلفحني القَّى طلب فوق الذرى!..

إن احتقاري يساير رغباتي في نموها، فكلما ازددت ارتفاعا زاد احتقاري للمرتفعين فلا أدري ما هم في الذرى يقصدون، ولكم أخجلني سلوكي متعثرا على المرتقى، ولكم هزأت بتهدج أنفاسي إنني أكره المنتفضين للطيران، فما أتعب الوقوف على الذرى العالية!.

ونظر زارا إلى الدوحة يتكئ الفتى عليها ساكتًا فقال :إن هذه الدوحة ترتفع منفردة على القمة وقد نمت وتعالت فوق الناس وفوق الحيوانات، فإذا هي أرادت أن تتكلم الآن بعد بلوغها هذا العلو فلن يفهم أقوالها أحد إنها انتظرت ولم تزل تتعلل بالصبر، ولعلها وقد بلغت مسارح السحاب تتوقع انقضاض أول صاعقة عليها .

فهتف الفتى متحمساً :نطقت بالحق يا زارا، إنني اتجهت إلى الأعماق وأنا أطلب الاعتلاء، وما أنت إلا الصاعقة التي توقعتها تفرس فيَّ، وانظر إلى ما آلت إليه حالتي منذ تجليت لنا، فما أنا إلا ضحية الحسد الذي استولى عليَّ.

وكانت الدموع تنهمر من مآقي الفتى وهو يتكلم، فتأبط زارا ذراعه وسار به على الطريق، وبعد أن قطعا مسافة منها قال زارا :لقد تفطر قلبي، إن في عينيك ما يفصح بأكثر من بيانك عما تقتحم من الأخطارإنك لما تتحرر يا أخي، بل ما زلت تسعى إلى الحرية، وقد أصبحت في بحثك عنها مرهف الحس كالسائر في منامه.

إنك تريد الصعود مطلقًا من كل قيد نحو الذرى، فقد اشتاقت روحك إلى مسارح النجوم، ولكن غرائزك السيئة نفسها تشتاق للحرية أيضاً.

إن كلابك العقورة تطلب حريتها، فهي تنبح مرحة في سراديبها، على حين أن عقلك يطمح إلى تحطيم أبواب سجونك كلها، وما أراك بالطليق الحر فأنت لم تزل سجينًا يتوق إلى حريته، وأمثال هذا السجين تتصف أرواحهم بالحزم غير أنها تصبح واأسفاه مراوغة شريرة.

على من حرر عقله أن يتطهر مما تبقى فيه من عادة كبْت العواطف والتلطخ بالأقذار؛ لتصبح نظراته براقة صافية إنني لا أجهل الخطر المحدق بك؛ لذلك أستحلفك بحبي لك وأملي فيك ألا تطرح عنك ما فيك من حب ومن أمل .

إنك لم تزل تشعر بالكرامة ولم يزل الناس يرونك كريما بالرغم من كرههم لك وتوجيههم نظرات السوء إليك فاعلم أن الناس لا يبالون بالكرماء يمرون بهم على الطريق، غير أن أهل الصلاح يهتمون بهم، فإذا ما صادفوا في سبيلهم من يتشح الكرامة دعوه رجلاً صالحا؛ ليتمكنوا من القبض عليه لاستعباده.

لقد عرفت من الناس كراما دلَّت طلائعهم على أنهم سيبلغون أسمى الأماني، فما لبثوا حتى هزءوا بكل أمنية سامية، فعاشوا تسير الوقاحة أمامهم، وتموت رغباتهم قبل أن تظهر فما أعلنوا في صبيحتهم خطة إلا شهدوا فشلها في المساء

قال هؤلاء الناس :ما الفكرة إلا شهوة كغيرها من الشهوات.

وهكذا طوت الفكرة فيهم جناحيها فتحطما، وبقيت هي تزحف زحفًا وتدنِّس جميع ما تتصل به.

لقد فكر هؤلاء الناس من قبل أن يصيروا أبطالاً، فما تسنى لهم إلا أن يصبحوا متنعمسن، يحزنهم شبح البطولة ويلقي الخوف في روعهم.

أستحلفك بحبي لك وأملي فيك ألا تدفع عنك البطل الكامن في نفسك؛ إذ عليك أن تحقق أسمى أمانيك

المنذرون بالموت:

ماأكثر المنذرين بالموت !والعالم مليء بمن تجب دعوتهم إلى الإعراض عن الحياة.

إن الأرض مكتظة بالدخلاء وقد أفسدوا الحياة، فما أجدرهم بأن تستهويهم الحياة الأبدية ليخرجوا من هذه الدنيا.

لقد وصف المنذرون بالموت بالرجال الصفر والسود، ولسوف أصفهم أنا فينكشفون عن ألوان أخرى أيضاً.

إنهم لأشد الناس خطراً؛ إذ كمن الحيوان المفترس فيهم، فغدوا ولا خيار لهم إلا بين حالتين؛ حالة التحرق بالشهوة وحالة كبتها بالتعذيب، وما شهوتهم إلا التعذيب بعينه إن هؤلاء المسوخ لم يبلغوا مرتبة الإنسانية بعد، فليبشروا بكره الحياة، وليقلعوا عن مرابعها.

هؤلاء هم المصابون بسل الروح، فإنهم لا يكادون يولدون للحياة حتى يبدأ موتهم،وقد شاقتهم مبادئ الزهد والملال.

يود هؤلاء الناس أن يدرجوا في عداد الأموات، فعلينا أن نحبّذ إرادتهم، ولنحترس من أن يود هؤلاء الناس أن نعمل على بعث هؤلاء الأموات وعلى تشويه هذه النعوش المتحركة.

إذا هم صادفوا مريضاً أو شيخاً أو جثة ميت، فإنهم يقولون :لقد انتفت الحياة ولوٌ أنصفوا لقالوا إنهم هم نفي للحياة، وإن عيونهم دحض لها لأنها لا تتجه إلا إلى مظهر واحد من مظاهر الوجود.

هم يتلفعون برداء وسيع من الأسى ويتشوقون إلى الحوادث التي تجر وراءها الموت، هم يتلفَّ ولكنهم يتوقعون الموت وأسنانهم تصطك فرقَّاً، غير أنهم في الوقت نفسه يمدون أيديهم إلى ما لذَّ وطاب هازئين، فكأن الحياة قشة يهزءون بها ولكنهم يحرصون عليها إن حكمة هؤلاء الناس تهتف قائلة :الحياة جنون، أفظع منه التمسك بالحياة، وقد بلغ الجنون بنا هذا الحد الفظيع يقولون إن الحياة آلام، إنهم يقولون حقّا، فلماذا لا يضعون حداً لهذه الحياة إن لم يكن فيها سوى العذاب؟ تلك تعاليم ترمي إلى وجوب الانتحار، فيقول البعض وهو يدعو إلى الموت :إن الملاذَّ الجنسية خطيئة فيجب الامتناع عنها والإضراب عن التوليد يقول البعض الآخر إن الولادة مؤلمة، فعلام تلد النساء وهن لا يقذفن إلى الوجود إلا بالأشقياء؟.

وهذه الفئة هي أيضاً من المنذرين بالفناء.

وتقول لك فئة أخرى إن الرحمة لازمة فخذ ما نملك، بل خذ ما تتكون شخصيتنا منه، فإن فعلت فإنك تقطع من الأسلاك التي تشد بنا إلى الحياة

ولو أن رحمة هذه الفئة من الناس تتغلغل في صميم ذاتهم لكانوا يبذلون الجهد في سبيل دفع سواهم إلى كره الحياة ليستمر هؤلاء الناس على ما هم عليه؛ لأن رحمتهم الحقيقية كامنة في إيقاع الأذى.

إن ما يقصد هؤلاء الناس إنما هو التملص من تكاليف البقاء فلا يهمهم إن هم ألقوا بأغلالهم على الآخرين.

وأنتم أيضا، أيها المتحملون من الدنيا همومها وجهودها المرهقة، أفما تعبتم من الحياة؟ أفما أنضجت المحن نفوسكم لتقوم هي أيضاً منذرة بالموت؟ .

أنتم يا من تحبون الأعمال الوحشية، وكل حادث يمتعكم بكل جديد وغريب سريع الزوال !لقد ضقتم ذرعاً بأنفسكم، فما تتهالكون في العمل إلا تهربًا من الحياة وطلبًا للاستغراق؛ لتصلوا بذواتكم إلى نسيان ذاتها، ولو كنتم أشد إيمانًا بالحياة لما كنتم تستسلمون هذا الاستسلام الكامل لحاضركم، لقد خلت سرائركم من القوة اللازمةَ للانتظار، بل خلت مما يستلزم كسلكم نفسه من جلَد

إن صوت المنذرين بالموت يدوي في كل مكان، والعالم مكتظ بمن وجبت دعوتهم إلى الموت أو بالحري إلى الحياة الأبدية، ولا فرق عندي بين ذاك وهذه إذا كان هؤلاء الناس يسارعون إلى إخلاء الأرض.

الحرب والمحاربون:

لا نريد أن يراعينا خيرة أعدائنا، كما لا نريد أيضاً أن يراعينا من نحبهم من صميم الفؤاد دعوني أُعلن لكم الحقيقة.

إنني أحبكم من صميم الفؤاد، أيها الرفاق في المعارك، فما أنا الآن إلا، كما كنت في الأمس، جندي مثلكم، فأنا إذن من خيار أعدائكم دعوني أعلن الحقيقة لكم إنني عارف ما في قلوبكم من حقد وحسد، فأنتم من العظمة بحيث لا يمكنكم أن تتجاهلوا الحقد والحسد، فلتكن عظمتكم رادعة لكم عن الخجل بما في قلوبكم، وإذا امتنع عليكم أن تكونوا أولياء في معرفة الحق فكونوا على الأقل جنوداً يكافحون من أجل هذه المعرفة، وما المكافحون إلا طليعة الأولياء.

لقد كثر عدد الجنود فليتني أرى مثل هذا العدد من المحاربين، وعسى ألا تكون سرائرهم على طراز واحد كالألبسة التي يرتدونها.

لتكن أنظاركم منطلقة تفتش على عدو لكم، وقد لاحت في لمعانها بوادر البغضاء.

عليكم أن تجدوا العدو لتصلوا معه حربًا تناضلون فيها من أجل أفكاركم، حتى إذا سقطت هذه الأفكار في المعترك، ينتصب إخلاصكم هاتفًا بالظفر

أحبوا السلام كوسيلة لتجديد الحروب، وخير السلام ما قصرت مدته إنني لا أشيرً عليكم بالسلم، بل بالظفر، فليكن عملكم كفاحاً وليكن سلمكم ظفراً.

لا اطمئنان في الراحة إذا لم تكن السهام مسددة على أقواسها، وما راحة الأعزل إلا مدعاة للثرثرة والجدال، فليكن سلمكم ظفرا. ً

تقولون إن الغاية المثلى تبرر الحرب، أما أنا فأقول لكم إن الحرب المثلى تبرر كل غاية، فقد أتت الحروب والإقدام بعظائم لم تأت بمثلها محبة الناس، وما أنقذ الضحايا حتى الآن إلا إقدامكم لا إشفاقكم.

إنكم تتساءلون عن الخير، وما الخير إلا الاتصاف بالشجاعة، فدعوا صغيرات الأطفال يقلن إن الخير في اللطف والجمال.

يقولون أن لا قلوب لكم، ذلك لأن قلوبكم تنبض بالإخلاص، وأنا أحب تواضعكمِ وإخلاصكم إنكم تستحون لأن أمواجكم تندفع في مدها، وسواكم يخجل من تراجعها في جزرها.

إن قبحكم مريع، فتدثروا به أيها الإخوة؛ لأن في دثار القبح ما ليس في سواه من الروعة والبهاء.

إن النفس لتقف صاخبة عندما تعتلي، والقسوة كامنة في اعتلائكم، فما خفيت حالكم عني، ففي ميدان القسوة يلتقي الشديد العزم بمنهوك القوى فلا يمكنهما أن يتفاهموا إنني أعرف من أنتم .

إذا ظفرتم بعدو فصبوا عليه بغضكم، وحاذروا أن تصبوا عليه احتقاركم، فماً عدوكم إلا مدعاة مباهاتكم، فإذا عملتم بوصيتي يصبح انتصاره انتصاراً لكم.

إن الثورة مفخرة للعبيد، فليكن افتخاركم أنتم قائماً على طاعتكم، وليكن أمر الآمرِّ فيكم جزءًا من هذه الطاعة نفسها إن المحارب الصادق يفضل ما يجب عليه على ما يريده فعليكم أن توجهوا ما تؤمرون به إلى هدف رغباتكم، وليكن حبكم للحياة تعبيراً عن أسمى أمانيكم، ولتكن هذه الأماني عبارة عن أرفع فكرة في الحياة وما أرفع فكرة لكم، وأنا أستميحكم إبداءها لكم كأمر، إلا هذه القاعدة :ما الإنسان إلا كائن يجب أن نتفوق عليه.

الصنم الجديد:

لم يزل في بعض الأماكن من الأرض شعوب وجامعات، أما نحن فليس عندنا سوى حكومات وما أدراكم ما هي الحكومات؟.

أعيروني أسماعكم لأخاطبكم عن موت الشعوب :ليست الحكومة إلا أبرد مسخ بين المسوخ الباردة، فهي تكذب بكل رصانة؛ إذ تقول :أنا الحكومة أنا الشعب إياكم وتصديق ما تقول، فما كون الشعوب إلا المبدعون الذين نشروا الإيمان والمحبة، فأتوا بأجل خدمة للحياة، وما الناصبون الأشراك للجموع الغفيرة إلا من يهدمون كيانها؛ليشيِّدوا الحكومات على أنقاضها، ويعلقوا نصلا قاطعاً فوق رأس الشعب، وينصبوا مئات الشهوات أمام عينه

إن الشعب، حيث بقي له مرتع على الأرض، لا يفهم ما هي الحكومة، بل هو ينفر هادماً للشرائع والتقاليد، وإليكم الدليل:

إن لكل شعب بيانه عن الخير والشر، وجرية هذا الشعب لا تفهم هذا البيان الذي أوجده لنفسه محدداً به شرائعه وتقاليده، على حين أن الحكومة تكذب في جميع تعابيرها عن الخير والشر، فليس ما تقوله إلا كذبًا، وليس ما تملكه إلا نتاج سرقتها واختلاسها. إن كل ما للحكومة مزيَّف، فهي تنهش بأسنان مستعارة، وأحشاؤها مختلَقة اختلاقًاً،وما شعارها إلا البيان المبهم المشوش عن الخير والشر فهي تتجه به نحو الفناء، وتقوم بنشره بدعوة صريحة للمنذرين بالموت.

إن عدد من يدخلون الدنيا قد تجاوز الحد، وما أوجدت الحكومة إلا لخدمة الفضوليين الدخلاء على الحياة انظروا إلى هذه الحكومة كيف تجذب إليها الدخلاء فتضمهم إلى صدرها وتشبعهم عناقاً وتقبيلاً اسمعوها تهدر قائلة :ليس أعظم مني على وجه الغبراءِ فأنا يد الألوهية المنظمة. وعندما تهتف هذا الهتاف، تتهاوى الركاب جاثية، وبين الراكعين كثير من غير طوال الآذان وقصار النظر.

إن هذه الأكاذيب تجد مصدقين لها، وا أسفاه، حتى بينكم أنتم، يا من تجول فيكم النفوس الأبيَّة؛ لأن الحكومة تعرف أن تدغدغ قلوبكم الطافحة بالمكارم الطامحة إلى الجود، إنها لتخترق سرائركم، أنتم أيضاً، يا من تغلبتم على الألوهية القديمة، فهي تعرف أنكم تعبتم من الكفاح فتستخدم ملالكم لعبادة الصنم الجديد

إنه لصنم يتمنى أن يحيط به الأبطال وفضلاء الرجال، إنهمملسخ بارد يريد أن يدفأ بشمس الضمائر المشعة المشرقة.

إنه ليمنحكم كل شيء إذا أنتم سجدتم له فهذا الصنم الجديد يشتري لمعان فضائلكم وما في لفتاتكم من عزة وكرامة إنه في حاجة إليكم؛ ليجذب إليه العدد الفائض من الدخلاء على الحياة، فهنالك البرج الجهنمي، وهنالك جياد الموت تفرقع بعَدِدها حاملة شارات المراتب والأمجاد، أجل ذلك هو اختراع الموت أتى به للجموع ليحصدها حصداً وهو يباهي بأنه هو الحياة، والمنذرون بالموت يرون بفعلته خير خدمة لمبادئهم.

حيث يكرع الجميع السموم ويضيع كل إنسان نفسه صالحا كان أو طالحا، هنالك تقوم الحكومة؛ لأنها تسود كل مكان يوصف فيه الانتحار البطيء بالحياة.

انظروا إلى هؤلاء الدخلاء إنهم يختلسون ثمرة جهود المخترعين وكنوز الحكماء ويدعون هذا الاختلاس تمدنًاً، غير أن كل شيء يصبح أدواء ومصاعب تحت سلطانهم.

انظروا إلى هؤلاء الدخلاء وليس فيهم إلا الأعلاء ينفثون غسلين مرائرهم، وينتحلون صفة الصحفيين إنهم يتناهشون ويلتهم بعضهم البعض الآخر، وليس لهم قوة على هضم ما يلتهمون

انظروا إلى هؤلاء الدخلاء إنهم يحشدون الأموال، وكلما ازدادت ذخائرهم زاد فقرهم، فإنهم يطمحون إلى الاستيلاء على القوة فيبدءون بالقبض على محركها الأول :على الأموال الطائلة، وما هم إلا الدخلاء العاجزون.

انظروا إليهم !انظروا إلى هؤلاء القرود يتسلَّق بعضهم البعض الآخر فيتدافعون متمرغين في الأوحال على الشفير إن كلاً منهم يطمح إلى التقرب من العرش، وقد عراهم جنون التوصل إليه، فكأن لا سعادة إلا على مقربة منه، وقد يرتفع رشاش الأوحال إلى العرش كما ينزلق العرش نفسه إلى الأوحال.

إنني أراهم وقد جن جنونهم؛ قرودا لا تسكن لهم حركة وهم يتسلقون قاعدة صنمهم البارد وقد انبعثت منه ومنهم أكره الروائح وأخبثها.

أفيَحلُو لكم، أيها الإخوة، أن يخنقكم ما يتبخر من أشواق هؤلاء المسوخ؟ حطموا النوافذ واقفزوا منها لتنجوا بأنفسكم. حاذروا هذه الأبخرة الخانقة، وابتعدوا عن عبادة الأصنام فإنها دين الدخلاء على الحياة حاذروا هذه الأبخرة وأعرضوا عن هذه الضحايا البشرية.

لم يزل حتى الآن مجال تسعى في رحبه النفوس الكبيرة نحو الحرية في الحياة، ولم تخل الأرض من أماكن يلجأ إليها المنعزل منفرداً أو مزدوجاً حيث تهب نسمات البحر الهادئة فإن الحياة الحرة لم تزل تفتح أبوابها لكبار النفوس، والحق أن من يملك القليل من حطام الدنيا لا يناله إلا اليسير من تحكم المتسلطين فطوبى لصغار الفقراء!.

لا يظهر الإنسان الأصيل في الحياة إلا حيث تنتهي حدود الحكومات، فهنالك يتعالى نشيد الضرورة بنغماته المحررة من كل مطاوعة وتقييد. هنالك عند آخر حدود الحكومات، قفوا وتطلعوا، يا إخوتي، أفما ترون تحت قوس قزح المعبر الذي يجتازه الإنسان المتفوق؟.

لا يغرب عن القارئ الكريم أن نيتشه يعالج في هذا الفصل القضية الكبرى في مدنية الغرب، وقد نشأت من استخدام أصحاب الأموال لنتاج عبقرية المخترعين وجهود المكتشفين في سبيل حشد الثروات الطائلة والتسلط بها على الحكومات، وقد أصبحت مدنية الغرب من هذا الوضع الشاذ في حلقة مفرغة تبتدئ حيث تنتهي بين ملوك الحكومات وملوك المال وليس، والحمد لله في الشرق أمثال لهؤلاء الملوك.

حشرات المجتمع:

سارع إلى عزلتك، يا صديقي، فقد أورثك الصداع صخب عظماء الرجال، وآلمتك وخزات صغارهم، إن جلال الصمت يسود الغاب والصخور أمامك، فعد كما كنت شبيها بالدوحة التي تحب، الدوحة الوارفة الظل المشرفة على البحر مصغية في صمتها إلى هديره. على أطراف حقول العزلة تبدأ حدود الميادين حيث يصخب كبار الممثلين ويطنَ الذباب المسموم لا قيمة لخير الأشياء في العالم إن لم يكن لها من يمثِّلها، والشعب يدعو ممثليه رجالاً عظاماً، إنه يسيء فهم العظمة المبدعة، فيبتدع من نفسه المعاني التي يجمل بها ممثليه والقائمين بالأدوار الكبرى على مسرح الحياة

إن العالم يدور دورته الخفية حول موجدي السنن الجديدة وحول لاعبي الأدوار على مسرح الحياة يدور الشعب وتدور الأمجاد، وعلى هذه الوتيرة يسير العالم.

إن للاعب الأدوار ذكاءَه، ولكنه لا يدرك حقيقة هذا الذكاء؛ لانصباب عقيدته على كل طريقة توصله لخير النتائج وإلى كل أمر يدفع بالناس إلى وضع ثقتهم به غدا سيعتنق هذا الرجل عقيدة جديدة، وبعد غد سيستبدل بها أجد منها، ففكرته تشبه الشعب تذبذبًا وتوقدا وتقلبًا.

إن ممثل الشعب يرى بالتحطيم برهانه، وبإيقاد النار حجته، وبإراقة الدماء أفضل حجة وأقوى دليل إنه ليعتبر هباءً كل حقيقة لا تسمعها إلا الآذان المرهفة، فهو عبد الآلهة الصاخبة في الحياة.

إن ميدان الجماهير يغص بالغوغاء المهرجين، والشعب يفاخر بعظماء رجاله فهم أسياد الساعة في نظره، ولكن الساعة تتطلب السرعة من هؤلاء الأسياد، فهم يزاحمونكً يا أخي، طالبين منك إعلان رفضك أو قبولك، والويل لك إذا وقفت حائرًا بين نعم وبين لا وإذا كنت عاشقًا للحقيقة فلا يغرنَّك أصحاب العقول الرعناء المتصلِّبة، وما كانتً الحقيقة لتستند يوماً إلى ذراع أحد هؤلاء المتصلِّبين.

دع المشاغبين وارجع إلى مقرك، فما ميدان الجماهير إلا معترك يهدد سلامتك بين خنوع نعم وتمرد لا إن تجمع المياه في الينابيع لا يتم إلا ببطء، وقد تمر أزمان قبل أن تدرك المجاري ما استقر في أغوارها.

لا تقوم عظمة إلا بعيدا عن ميدان الجماهير وبعيدا عن الأمجاد، وقد انتحى الأماكن القصيَّة عنها من أبدعوا السنن الجديدة في كل زمان.

اهرب، يا صديقي، إلى عزلتك لقد طالت إقامتك قرب الصعاليك والأدنياء، لا تقف حيث يصيبك انتقامهم الدساس وقد أصبح كل همهم أن ينتقموا منك. لا ترفع يدك عليهم فإن عددهم لا يحصى، وما قُدر عليك أن تكون صياداً للحشرات.

إنهم لصغار أدنياء ولكنهم كثرة، ولكم أسقطت قطرات المطر وطفيليات الأعشاب من صروح شامخات ما أنت بالصخرة الصلدة، ولشد ما فعلت بك القطرات، ولسوف يتوالى ارتشاقها عليك فتصدعك وتحطمك تحطيماً.

لقد أرهقتك الحشرات السامة فخدشت جلدك وأسالت منه الدماء، وأنت تتحصن بكبرك لتكظم غيظك، وهي تود لو أنها تمتص كل دمك معتبرة أن من حقها أن تفعل؛ لأنُ نشب حمتها في جلدك دمها الضعيف يطلب دماً ليتقوى، فهي لا ترى جناحا عليها؛ إذً إن هذه الجروح الصغيرة لتذهب بالألم إلى مدى بعيد في حسك المرهف، فتتدفق صديداً يرتعيه الدود أراك تتعالى عن أن تمد يدك لقتل هذه الحشرات الجائعة، فحاذر أن يجول سم استبدادها في دمك

إن هؤلاء المشاغبين يدورون حولك بطنين الذباب، فهم يرفعون أناشيدهم تزلفًا إليك ليتحكموا في جلدك ودمك إنهم يتوسلون إليك ويداهنونك كما يداهنون الآلهة والشياطين،فيحتالون عليك بالملاطفة والثناء، وما يحتال غير الجبناء.

إنهم يفكرون بك كثيراً في سرهم فيلقون الشكوك عليك، وكل من يفكر الناس به كثيراً تحوم حوله الشبهات.

إنهم يعاقبونك على كل فضيلة فيك، ولا يغفرون لك من صميم فؤادهم إلا ماترتكب من أخطاء إنك لكريم وعادل؛ لذلك تقول في قلبك إن هؤلاء الناس أبرياء وقد ضاقت عليهم الحياة ولكن نفوسهم الضيقة تقول في نجواها :إن كل حياة عظيمةإنما هي حياة مجرمة ويشعر هؤلاء الناس بأنك تحتقرهم عندما تشملهم بعطفك،فيبادلونك عطفك بالسيئات إنك لتصدعهم بفضيلتك الصامتة فلا يفرحون إلا عندماً يتناهى تواضعك فيستحيل غروراً إن الناس يطمحون بالطبع إلى إلهاب كل عاطفةٌ تبدو لهم، فاحذر الصعاليك؛ لأنهم يحسون بصغارهم أمامك فيتحمسون حتى ينقلبَ إحساسهم كرهاً وانتقاماً.

أفما شعرت أنهم يخرسون عندما تطلع عليهم، فتبارحهم قواهم كما يبرح الدخان النار إذا همدت أجل يا صديقي، ما أنت إلا تبكيت في ضمائر أبناء جلدتك؛ لأنهم ليسوا أهلًا لك، فهم لذلك يكرهونك ويودون امتصاص دمك

إن أبناء جلدتك لن يبرحوا كالحشرات المسمومة؛ لأن العظمة فيك ستزيد أبداً في كرههم لك فإلى عزلتك، يا صديقي، إلى الأعالي حيث تهب رصينات الرياح، فإنك لم تخلق لتكون صياداً للحشرات.

العفة:

أحب الغاب، فما تسهل حياة المدن عليَّ وقد كثر فيها عبيد الشهوات الثائرات ألخير أن يقع الرجل بين براثن سفاح من أن تحدق به أشواق امرأة جامحة ملتهبة.

إنك إذا ما تفرست في رجال المدن، لتشهد لك نظراتهم بأنهم لا يرون في الأرض شيئً يفضل مضاجعة امرأة.

في أغوار أرواحهم ترسب الأقذار، وأشقاهم من تمرغ عقله بأقذاره ليتك حيوان اكتملت حيوانيته على الأقل، ولكن أين منك طهارة الحيوان؟ ما أنا بالمشير عليك بقتل حواسك، إن ما أوجبه إنما هو طهارة هذه الحواس.

ما أنا بالمشير عليك بالعفة؛ لأنها إذا كانت فضيلة في البعض فإنها لتكاد تكون رذيلة في الآخرين، ولعل هؤلاء يمسكون عن التمتع، غير أن شبَقَهم يتجلى في كل حركة من حركاتهم.

إن كلاب الشهوة تتبع هؤلاء الممسكين حتى إلى ذرى فضيلتهم فتنفذ إلى أعماق تفكيرهم الصارم لتشوش عليه سكينته، ولكلاب الشهوة من مرونة الزلفى ما تتوسل به إلى نيل قطعة من الدماغ المفكر إذا منعت قطعة اللحم عنها.

إنكم تحبون المآسي وكل ما يفطر القلوب، أما أنا فلا أثق بكلاب شهواتكم؛ لأن نظراتكم الرصينة تمتلئ شهوة عندما تقع على المتأملين، وقد تنكر الشبق فيكم فدعوتموه إشفاقاً، وإني لأضرب لكم مثلاً على هذا حالة العدد الوفير ممن أرادوا طرد الشياطين فدخلوا هم في الخنازير بدلاً منها. إذا ما ثقلت العفة على أحد منكم فعليه أن يعرض عنها كيلا تنبسط أمامه سبيلاً إلى الجحيم، جحيم أقذار النفس ونيرانها.

ليست البذاءة في قذارة الحقيقة، بل هي في تدنيها وإسفافها، وطالب المعرفة يأنف من الانحدار إلى مهاويها.

إن من الناس من دخلت العفة قلوبهم فلانت هذه القلوب لها أولئك هم الضاحكون وفي ابتسامهم ما ليس في ابتسامكم من إخلاص إنهم يهزءون بالعفة ويتساءلون عما يمكن أن تكون.

أفليست العفة غرورا؟ أفليست هي التي جاءت إلينا ولم نذهب نحن إليها؟ لقد فتحنا قلبنا لها فاستقرت ضيفًا ثقيلا فيه، فليبق هذا الضيف نازلا فينا ما طاب له المقيل.

الصديق:

يقول المنفرد في نفسه لا أطيق وجود أحد بقربي ولكثرة ما يقف محدقًا في ذاته تظهر التثنية فيه، ويقوم الجدال بني شخصيته وبني ذاته فيشعر بالحاجة إلى صديق،وما الصديق للمنفرد إلا شخص ثالث يحول دون سقوط المتجادلَين إلى الأغوار كما تمنع المنطقة المفرغة غرق العائمين.

إن أغوار المنفرد بعيدة القرار، فهو بحاجة إلى صديق له أمجاده العالية، فثقة الإنسان في غيره تقوده إلى ثقته بنفسه، وتشوقه إلى الصديق يُنهض أفكاره من كبواتها. كثيرًا ما يقود الحب إلى التغلب على الحسد، وكثيرا ما يطلب الإنسان الأعداء ليستر ضعفه ويتأكد أن بإمكانه مهاجمة الآخرين.

من يطمح إلى اكتساب الصديق وجب عليه أن يستعد للكفاح من أجله، ولا يصلح للكفاح إلا من يمكنه أن يكون عدوا يجب على المرء أن يحترم عداءَه إذ لا يمكن لك أن تقترب من صديقك إلا حين تهاجمه وتحارب شخصيته.

أنت تريد الظهور أمام صديقك على ما أنت عليه هاتكاً كل ستر عن خفايا نفسك،فلا تعجب إذا رأيت صديقك يعرض عنك ويقذف بك إلى بعيد.

من لا يعرف المصافحة يدفع بالناس إلى الثورة عليه، فاحذر العري، يا هذا، لأنك لست إلهاً، والآلهة دون سواهم يخجلون من الاستتار.

عليك بارتداء خير لباس أمام صديقك، لتهيب به إلى طلب المثل الأعلى : الإنسان المتفوق.

أما تفرست يوماً في وجه صديقك وهو نائم لترى حقيقته؟ أفما رأيت ملامحه إذ ذاك كأنها ملامحك أنت منعكسة على مرآة مبرقعة معيبة؟ أفما ذعرت لمنظر صديقك وهومستسلم للكرى؟

ما الإنسان، أيها الرفيق، إلا كائن وجب عليه أن يتفوق على ذاته، وعلى الصديق أن إلى كل شيء ما دمت قادراً في غفلتك على كشف كل ما يفعله صديقك في انتباهه يكون كشافًا صامتًا، فأمسك عن النظر علنًاً وعليك أن تحل الرموز قبل أن تعلن إشفاقك، فقد ينفر صديقك من الإشفاق ويفضل أن يراك مقنعاً بالحديد وفي عينيك لمعان الخلود.

ليكن عطفك على صديقك متشحاً بالقسوة وفيه شيء من الحقد، فيبدو هذا العطف مليئًا بالرقة والظرف. كن لصديقك كالهواء الطلق والعزلة والغذاء والدواء، فإن من الناس من يعجز عن التحرر من قيوده ولكنه قادر على تحرير أصدقائه.

دع الصداقة إذا كنت عبداً، وإذا كنت عاتيًا فلا تطمح إلى اكتساب الأصدقاء .لقد مرت أحقاب طويلة على المرأة كانت فيها مستبدة أو مستعبَدة فهي لم تزل غير أهل للصداقة، فالمرأة لا تعرف غير الحب.

إن حب المرأة ينطوي على تعسف وعماية تجاه من لا تحب، وإذا ما اشتعل بالحب قلبها فإن أنواره معرضة أبداً لخطف البروق في الظلام.

لم تبلغ المرأة بعد ما يؤهلها للوفاء كصديقة، فما هي إلا هرة، وقد تكون عصفوراً، وإذا هي ارتقت أصبحت بقرة.

ليست المرأة أهلاً للصداقة، ولكن ليقل لي الرجال من هو أهل للصداقة بينهم؟ إن فقر روحكم وخستها يستحقان اللعنة أيها الرجال؛ لأن ما تبذلونه لأصدقائكم يمكنني أن أبذله لأعدائي دون أن أزداد فقراً.

إنكم لا تتخذون إلا الأصحاب، فمتى تسود الصداقة بينكم؟.

ألف هدف وهدف:

لقد شاهد زارا كثيراً من البلدان وكثيراً من الشعوب، فنفذ إلى حقيقة الخير والشر، وعرف أن لا قوة في العالم تفوق قوتهما.

تحقق أن ليس على الأرض من شعب تحلو له الحياة دون أن يُخضع النظم والسنن لتقديره، وأن كل شعب يرى من واجبه، إذا أراد الحياة، أن يجيء بتقدير يختلف عن تقدير من يجاوره من الشعوب، وهكذا كان ما يراه أحدها خيرا يراه الآخر دناءة وعاراً.

ذلك ما عرفته، فكم من عمل اتشح العيب في بلد، رأيته مجللاً بالشرف والفخر في بلد آخر.

لم أر جاراً تمكن من إدراك حقيقة جاره، بل رأيت كلا منهما يعجب لجنون الآخروقسوته.

لقد علق كل شعب فوق رأسه لوح شريعته، وسطر عليه ما اجتاز من عقبات وما تضمر إرادته من عزم، فما تراءى له صعب المنال فهو موضوع تمجيده، وما خيره إلا حاجة ملحة عز مطلبها، فهو يقدس كل وسيلة تمكنه من الظفر بهذه الحاجة.

إن كل ما يوطد الحكم لهذا الشعب، وكل ما ينيله النصر والمجد ويلقي الرعب في روع جاره مثيرا حسده إنما هو في نظره ذو المكانة الأولى، وما احتل المقام الأول في اعتباره يصبح مقياسا ًلجميع أموره ومعنًى لجميع ما يحيط به، فإذا ما تمكنت من الاطلاع على حاجات أي شعب، وخبرت أرضه وجوه وحالة جاره، فإنك لتدرك النواميس التي تتحكم فيه وتحفزه إلى المجالدة للغلبة على أهوائه، ولتعرف السبب في اختياره مراقيه الخاصة يتدرج عليها لبلوغ أمانيه.

عليك أن تكون سباقاً مجليا فى كل مضمار فلتتلفع نفسك بغيرتها كيلا تبذل الولاء إلا للصديق انها لكلمات اذا وثعت فى اذن يونانىترتعش نفسه لها فيندفع الى اقتحام الصعاب طلباً للمجد.

قل الحق وكن ماهرا فى تفويق سهامك من قوسك.

وأجال أنظاره في القوم، ثم قال :ما الإنسان إلا حبل منصوب بين الحيوان والإنسان المتفوق فهو الحبل المشدود فوق الهاوية.

إن في العبور للجهة المقابلة مخاطرة، وفي البقاء وسط الطريق خطراً، وفي الالتفات إلى الوراء وفي كل تردد وفي كل توقف خطر في خطر.

إن عظمة الإنسان قائمة على أنه معَبرٌ وليس هدفًا، وما يستحب فيه هو أنه سبيل وأفق غروب.

إنني أحب من لا غاية لهم في الحياة إلا الزوال، فهم يمرون إلى ما وراء الحياة.

أحب من عظم احتقارهم لأنهم عظماء، أحب المتعبدين يدفعهم الشوق إلى المروق كالسهم إلى الضفة الثانية.

أحب من لا يتطلبون وراء الكوكب معرفة ما يدعو إلى زوالهم أو ما يهيب بهم إلىَ اللأرض، لتصبح هذه الأرض يوماً ميراثًا للإنسان التضحية؛ لأنهم يقدمون ذاتهم قربانً المتفوق.

أحب من يعيش ليتعلم، ومن يتوق إلى المعرفة ليحيا الرجل المتفوق بعده، فإن هذا ما يقصد طالب المعرفة من زواله.

أحب من يعمل ويخترع ليبني مسكنًا للإنسان المتفوق فيهيئ ما في الأرض من حيوان ونبات لاستقباله، فإن هذا ما يقصد طالب المعرفة من زواله.

أحب من يحب فضيلته، فما الفضيلة إلا الطموح إلى الزوال وإن هي إلا السهم تُنشبه أشواقه.

أحب من لا يحتفظ لنفسه بشرارة واحدة من روحه، فيتجه إلى أن يكون بكليته روحا لفضيلته؛ لأنه بهذا يجعل روحه تجتاز الصراط.

أحب من يكون من فضيلته ميوله ومطمحه؛ لأنه بمثل هذه الفضيلة يتوق إلى إطالة حياته كما يتوق إلى قصرها.

أحب من لا يريد الاتصاف بعديد الفضائل؛ إذ في الفضيلة الواحدة من الفضائل أكثرمما في فضيلتني، والفضيلة الواحدة حلقة ترتبط فيها الحياة.

أحب من يجود بروحه فلا يطلب جزاء ولا شكورا، ولا يسترد، فهو يهب دائما ولا يفكر في الاستبقاء على ذاته.

أحب من يبرر أعمال الخلف ويدافع عن السلف لأنه بذلك يسلم نفسه إلى نقمة معاصريه، فهو ممن يتوقون إلى الزوال.

محبة القريب:

إنكم لتعطفون على القريب، وتعبرون عن عطفكم بتزويق الكلام، أما أنا فأقول لكم إنْ محبتكم للقريب إن هي إلا أنانية مضللة. إنكم تلجأون للقريب هربًا من أنفسكم، وتريدون أن تعدوا هذا العمل ، وهل يخفى عليَّ كنه تجردكم هذا؟

إن المخاطب أقدم من المتكلم؛ فالأول مقد س أما الثاني فلم يقدس بعد .

ذلك هو السبب في عطف الإنسان على قريبه.

إن ما أشير به عليكم هو أن تنفروا من القريب لا أن تحبوه، وذلك لتتمكنوا من محبةَ الإنسان البعيد، فإن ما فوق محبة القريب محبة الإنسان البعيد المنتظر، وإني أضع فوق محبة الإنسان محبة الأشياء والأشباح.

إن الشبح الذي يعدو أمامك، يا صديقي، لهو أجمل منك، فلم لا تعيره لحمك وعظمك؟ لقد استولى الخوف عليكم فلذلك تفزعون إلى القريب، لا قبَل لكم باحتمال أنفسكم وما حبكم بالحب الكامل؛ لذلك أراكم تطمحون إلى إغواء قريبكم لتتمتعوا بضلاله.

أتمنى أن تنفروا من جميع فئات الأقربين، ومن جريتهم أيضا لتضطروا إلى إيجاد الصديق الذي يطفح قلبه بالإخلاص إنكم لتدعون شهودا عندما تريدون أن تغدقوا الثناء على أنفسكم، وإذا ما توصلتم إلى تضليلهم ليحسنوا الظن بكم تبدأون حينئذ بإحسان الظن بأنفسكم.

ما من أحد يرتكب الكذب إلا إذا تكلم ضد ضميره، فأصدق الناس من لا ضمير له يحول دون قوله الصدق على هذه القاعدة تتكلمون عن أنفسكم بني الناس لتضللوهم في حقيقتكم.

يقول المجنون في نفسه :إن مخالطة الناس تفسد الأخلاق، بل هي تفسد خاصة من لا خلاق لهم .

إن منكم من يهرع إلى جاره ليفتش عن نفسه، ومنكم من يذهب إليه لينساها إنكم تسيئون محبة أنفسكم؛ لذلك يصبح انفرادكم بمثابة سجن لكم.

يجتمعون معكم يقضون دائماً إن الغائبين يؤدون ثمن حبكم للقريب؛ لأن خمسةً على السادس الغائب.

إنني لا أحب أعيادكم؛ إذ رأيتها مليئة بالممثلين، ورأيت النظارة أبرع منهم تمثيلاً.

لا أدعوكم إلى محبة القريب، بل أدعوكم إلى محبة الصديق، فليكن الصديق لكم مظهر حبور الأرض، فتحسون بما ينبئكم بالإنسان المتفوق.

أوصيكم بالصديق يطفح قلبه إخلاصاً، غير أن من يطمح إلى الظفر بمثل هذا القلب يجب عليه أن يكون كالإسفنجة قادراً على تشرب السائل المتدفق .أوصيكم بالصديق الذي ما في نفسه، فهو الصديق المبدع الذي يسعه أن يقدم لكم هذا العالم في كل حين،يحمل عالَ.

فيعرض عليكم ما مر به من عَبر الحياة، فتشهدون كيف يتحول الشر إلى خير، وكيف تنتهي الصدف بكم إلى غاياتكم.

ليكن المستقبل والمقاصد البعيدة ما تصبو إليه في يومك، فتحب في صديقك الإنسان المتفوق، وتضعه نصب عينيك كغاية لوجودك.

لا أشير عليكم بمحبة القريب، أيها الإخوة، بل بمحبة الآتي البعيد.

طرق المبدع:

أتقصد العزلة يا أخي لتجد الطريق التي توصلك إلى مكمن ذاتك؟ إذن، فقف قليلا في تردد واصغ إليَّ : لقد قال القطيع م ن فتش فقد تاه، ومن انعزل فما أمن العثار.

وأنت قد عشت طويلاً بين هذا القطيع، ولسوف يدوي صوته مليّا في داخلك، فإذا قلت له :لقد تغير ضميري جانحاً عن ضميرك، فلن تك إلا شاكيا متألماً.

إن اشتراكك بالشعور مع القطيع قد أورثك هذا الألم، وآلخروج من هذا الضمير المشترك لا يزال يلهب فجيعتك فيجددها، ولكنك ترغب في اتباع هاتف آلامك؛ لأنه يقودك إلى التوغل في ذاتك، فأين برهانك على حقك في المضي إليها وعلى أنك قادر على هذا السفر،أفأنت قوة جديدة وحق جديد؟

أأنت حركة ابتداءٍ؟ أأنت عجلة تدور على ذاتها؟ أبوسعك أن تجعل النجوم تدور حولك؟

لكم من طموح يتحفز نحو الأعالي، ولكم من طمع يرتعش في أمانيه، فأثبت لي أنك لست من الطامحين الطامعين.

إن كثيرًا من ساميات الأفكار لا تعمل إلا عمل الأُكر المنتفخة، فلا تكاد تتضخم حتى يحكمها الضمور.

إنك تدعو نفسك حراً، فقل لي ما هي الفكرة التي تقيمها مبدأ لك، ولا تكتف بقولك إنك خلعت نيرك، فهل كنت يا ترى ذا حق بخلعه؟ إن من الناس من يفقدون آخر مزيَّة لهم إذا هم انعتقوا من عبوديتهم.

لا يهم زارا أن تقول له من أية عبودية تحررت، فلتعلن له نظراتك الصافية الغاية التي تحررت من أجلها.

هل بوسعك أن تسن لنفسك خيرها وشرها فترفع إرادتك شريعة تسود أعمالك،أبوسعك أن تكون قاضيًا على نفسك وأن تكون منتقما منها لشريعتك؟ إنه لأمر مريع أن يبقى الإنسان منفردا مع من أقامة قاضيًا على نفسه ومنتقماً منها بالشريعة التي أوجدها .

إن مثل هذا الإنسان ليذهب في الفضاء ذهاب الكوكب مقذوفًا إلى فراغ الوحدة وصقيعها

إنك وقد أصبحت منفردا لا تزال تتألم من املجتمع؛ لأنك لم تطرح شجاعتك ولم يزل للأمل مرتع فيك، غير أنك ستتعب من انفرادك يوما؛ إذ تلني قناتك وينحطم غرورك فلا تتمالك من الهتاف قائلا إنني أصبحت وحيد ا فريدا.

سيأتي يوم تحتجب فيه عظمتك عنك فيلتصق صغارك فيك حتى لترتجف فرقًا من تساميك نفسه؛ إذ يبدو أمامك كشبح مرعب فتصرخ قائلا: كل شيء باطل إن في المنفرد عواطف تطمح إلى القضاء عليه، فإن لم تنل منه نالت من نفسها وانتحرت، فهل أنت مستعد لارتكاب جريمة القتل؟.

أتعرف، يا أخي، معنى كلمة الاحتقار، وما ستكون آلامك إذا أنت أردت العدل واضطررت إلى الاقتصاص ممن يحتقرونك؟إنك تُكره الكثيرين على تغيير اعتقادهم فيك، فتثير حفيظتهم عليك، لقد اقتربت منهم ثم تجاوزتهم، فهم لذلك لن يغفروا لك.

لقد تفوقت عليهم، فكلما اعتليت فوقهم ازددت صغارا في أعين الحاسدين، وما كره الناس أحدا كرههم للمحلِّق فوق السحاب.

لقد وجب عليك أن تقول للناس :إنني اخترت ظلمكم نصيبًا حق لي منكم لذلك عز إنصافي عليكم .

إن الناس يرشقون المنفرد بالمظالم والمثالب، ولكنك إذا كنت تريد أن تصبح كوكبًا فعليك أن ترسل أنوارك حتى إلى الراشقين.

واحترس خاصة من أهل الصلاح والعدل؛ لأنهم يتوقون إلى صلب من يوجد فضيلة لنفسه إنهم يكرهون المنفرد.

واحترس أيضا من السذاجة المتقية؛ لأنها ترى الكفر في كل إنسان لا يلتصق بها،وقد كان الساذجون في كل مكان يتوقون إلى إيقاد النار واللعب بها.

كن على حذر من التطرف في حبك، فإن المنفرد يمد يده متسرعاً لمصافحة من يلتقيً في طريقه .

إن من الناس من يجب عليك ألا تمد إليهم يداً، بل مخلبًا ناشبًا.

غير أن أشد من تصادف من الأعداء خطراً إنما هو أنت، وما يترصدك في المغاور والغابات إلا نفسك.

لقد تبينت الطريق الذي يقودك إلى ذاتك، أيها المنفرد، وطريقك منبسط أمامك وأمامً شياطينك السبعة، فستصبح منذ الآن جاحد ا لنفسك، ساحراً مجنوناً مشككاً كافراً شديداً.

فيجب عليك أن ترضى بالاحتراق بلهبك؛ إذ لا يمكنك أن تتجدد ما لم تشتعل حتى تصبح رماداً.

إنك تتبع طريق الخالق، أيها المنفرد، فأنت تفتش على إله لك تقيمه من شياطينك السبعة إنك تتبع طريق العاشق، أيها المنفرد، وقد عشقت نفسك، فأنت لذلك تحتقرها احتقار العاشقين.

يريد العاشق أن يبتدع لأنه يحتقر، وما له أن يدعي الحب إذا كان لم يبدأ باحتقار المحبوب.

توغل في عزلتك يا أخي سرولا رفيق لك إلا حبك وإبداعك إنك ستسير طويلا قبل أن تقفو العدالة أثرك متثاقلة متعارجة.

اذهب إلى عزلتك فإنني أشيّعك بدموعي يا أخي؛ لأنني أحب من يتفانى ليوجد في فنائه من يتفوق عليه.

إلى من توجه المرأة أشد بغضائها؟ والجواب في قول الحديد للقوة الجاذبة :إن أشد كرهي موجه إليك لأنك تجذبني وليس فيك من طاقة تربط على ما تجذبني.

إن سعادة الرجل تابعة لإرادته، أما سعادة المرأة فمتوقفة على إرادة الرجل.

تقول امرأة وقد استسلمت لحبها العميم :لقد اكتمل العالم.

ولا بد لها أن تخضع وأن ترى أعماقًا على سطحها؛ لأن روح المرأة سطحية فهي صفحة ماء متماوجة تداعبها الرياح، في حين أن روح الرجل أعماق تزمجر أمواجها في المغاور السحيقة القرار، وقد تشعر المرأة بقوة الرجل ولكنها لن تفهمها عندئذ قالت العجوز :لقد تكلم زارا عن أشياء طريفة أجدر بسماعها من النساء من لم يزلن في مقتبل العمر، ومن الغريب أن ينطق زارا بالحق عن النساء وهو لا يعرفهن إلاَّ قليلا، أفتكون إصابته ناشئة عن أن ليس في حالة المرأة شيء ممتنع.

والآن أصغ إليَّ يا زارا، فإنني سأعلن لك حقيقة صغيرة مكافأة على ما قلت، وكبرِ سني يجيز لي أن أعلنها لك، فاسترعها وأطبق شفتيك عليها لئلا يتعالى صراخها من فمك.

فقلت هاتها، هذه الحقيقة الصغيرة أيتها المرأة وهذا ما قالت العجوز :إذا ما ذهبت إلى النساء فلا تنس السوط.

الجزء الثالث

الطفل حامل المرآة

ورجع زارا إلى الجبال، إلى عزلة كهفه ليحتجب عن الناس كالزارع ألقى بذوره في أثلام أرضه وبات يتوقع نبتها، ولكنه ما لبث أن حنت جوارحه إلى أحبابه؛ إذ كان عليه أن يمنحهم بعد كثيرًا من الهبات، وأصعب ما يلقى المحب اضطراره إلى قبض يده إجابة لداعي محبته وتفاديًا للمنة في عطائه.

ومرت على المنفرد الشهور والأعوام وحكمته تزداد نموا فتزيده أملا باتساع آفاقها.

وأفاق يوما من نومه قبل انفلاق الفجر، واستغرق في تفكيره وهو ممدد على فراشه وتساءل قائلا : ملاذا أرعبني هذا الحلم حتى استفقت منه مذعورا؟ رأيت كأن ولدا يحمل مرآة اقترب مني وهو يقول :انظر في هذه المرآة يا زارا.

وما نظرت إلى المرآة حتى صرخت وخفق قلبي خفوقًا شديدا؛ لأن ما انعكس لي في المرآة لم يكن وجهي، بل وجها تقطبت أساريره بضحكة شيطان ساخر.

والحق ما يفوتني تعبري هذا الحلم وإدراك ما نُبهت إليه، فإن تعاليمي مشرفة على خطر، والزوان يريد أن ينتحل صفات الحنطة لقد استأسد أعدائي فشوهوا تعاليمي حتى أصبح أتباعي يخجلون مما وهبتهم.

لقد فقدت صحبي وآن لي أن أفتش عمن فقدت.

وانتفض زارا لا كمِن استولى الذعر عليه بل كمأخوذ برؤى وكشاعر هزه شيطانه؛ فوجم نسره وأفعوانه وحدقا بوجهه وقد لاحت بوادر السعادة عليه كتباشري الفجر، فقال لهما :ماذا حدث لي؟ أما تريان أنني تغيرت؟ فما تحسان أن الغبطة قد نزلت عليَّ كأنها عصفات الرياح؟ لقد جن شعوري بهذه السعادة فلن يسلم بياني من اختلال هذا الشعور .

إن سعادتي لم تزل في حداثتها فتذرعا بالصبر معي عليها.

لقد أوجعتني سعادتي فليكن أساتي كل من أرهقتهم الأوجاع.

إن في وسعي الآن أن أنحدر إلى مقر صحبي وإلى مقر أعدائي، فقد أصبح زارا قادرا على استطراد القول والإحسان إلى من يحب.

لقد آن لحبي أن يتدفق كالنهر يندفع من الأعالي إلى الأعماق، ويتجه من المشرق إلى المغرب.

إن نفسي تندفع مرغية مزيدة في الوديان متملصة من الجبال الصامتة نصخب فوقها عواصف الآلام، ولطاملا تعللت بالصبر وعلقت أبصاري على بعيد الآفاق، لقد أرهقتنيُ العزلة فما أطيق السكوت بعد.

أصبحت وكأنني بأجمعي فم أو هدير جدول يتحدر من شامخات الصخور، أريدأن أقذف بكلماتي إلى الأغوار، فيجري نهر حبي في المفاوز البعيدة، ولن يضل هذا النهرسبيله إلى مصبه في البحار.

إن في داخلي بحيرة وحيدة قانعة بنفسها، غير أن نهر محبتي يجتذبها في مسيره؛ ليقطع معها السيول ويترامى وإياها في لجة البحر جديدا بعد أن أتعبتني اللهجات ألهمت بيانً إنني أتبع مسالك لم أعرفها من قبل .

القديمة التي ترهق كل المبدعين، وقد امتنع على فكري أن يقتفي رواشم النعال المقطعة.

ما من لغة إلا وأراها بطيئة تقصر عن مجاراة بياني.

سأقفز إلى صهوتك أيتها العاصفة فألهبك أنت أيضا بسوط سخيرتي.

أريد أن أقطع أجواء البحار كهتفة مسرة وحبور إلى أن أستقر على الجزائر السعيدة حيث يقيم أحبابي، وبينهم أعدائي أيضا، لشد ما أحب الآن جميع من يتسنى لي أن أوجه إليهم الكلام، وسيكون لهؤلاء الأعداء أيضا قسطهم في إيجاد غبطتي.

ندما أتحفز لاعتلاء أشد جيادي جموحاً لا أجد لي معينًا أصدق من رمحي متكأ أرتفع عليه.

هو رمحي أهدد به أعدائي، ولكم يستحقون ثنائي إذا ما تمكنت من طرح هذا الرمح من يدي.

لقد طال اصطبار غيومي بين قهقهة الرعود، وقد آن لي أن أرشق الأعماق بقذائف بردي.

إن صدري سيتعاظم بانتفاخه حتى يزفر بالعاصفة الهائلة على الشامخات، وهكذا سأفرج عنه.

إن سعادتي وحريتي سيندفعان اندفاع العواصف، ولكنني أتمنى لو يحسب أعدائي أن ما يزمجر فوق رءوسهم إنما هو روح الشر لا روح سعادة وحرية.

وأنتم أيضا أيها الصحاب سيتولاكم الرعب عندما تنزل عليكم حكمتي الكاسرة،ولعلكم تولون هاربين منها كما يهرب الأعداء. ليت لي أن أستدعيكم إليَّ بحنين شبابة الرعاة، وليت تتعلم لبؤة حكمتي أن تزأر بنبرات العطف والحنان، فلطالما وردنا سويًا من مناهل العرفان .

ولكن حكمتي الوحشية تمخضت بآخر صغارها في الجبال السحيقة بني الجلامد الجرداء، وهي الآن تطوف بجنونها الصحاري القاحلة مفتشة على المروج الناضرة.

إنها لشيخة وحشية هذه الكلمة التي تقصد إنزال أعز ما لديها في مروج قلوبكم الناضرة.

تخير الموت:

كثيرٌ من يتأخرون في موتهم، وكثير من يبكرون، فإذا قال قائل للناس بالموت في الزمن المناسب؛ رفعوا عقريتهم مستغربني، وزارا يعلِّم لناس أن يموتوا في الزمن المناسب، ولكنَممن يعرف الحياة أن يتخير الموت في أوانه؟.

أما كان خيراً للدخلاء على الحياة لو أنهم لم يولدوا، ولكن هؤلاء الدخلاء يريدون أن يولي الناس أهمية كبرى لموتهم، وكم من نواة تباهي بأنها كسرت وهي جوفاء.

إنهم يعلقون أهمية على الموت؛ لأنهم ما عرفوا بهجة الموت، فالناس لم يعرفوا حتى اليوم كيف يقدسون أبهج الأعياد، ولسوف أنبئكم باملوت الذي يُقدس، املوت الذي يدفع الأحياء ويجتذبهم بحوافزه وآماله، إن من أكمل عمله يموت ظافرا وحوله من يحفزهم الأمل وتنطوي فيهم الأماني تعلموا أن تموتوا هكذا، ولكن اعلموا أن لا ظفر لمن يموت إذا هو لم يبارك ما أقسم الأحياء بإتمامه.

تلك هي الميتة الفضلى، تليها في المراتب ميتة من يسقط في المعركة وهو ينشر عليها عظمة روحه، غير أن ما يحتقره المجاهدون والظافرون على السواء إنما هى ميتتكم الشوهاء التي تزحف لصا وتتقدم آمرا مطاعا.ما أجمل ميتتي إذا أنا تخيرتها فجاءتني لأنني أطلبها.

ولكن متى يجدر بالإنسان أن يطلب الموت؟ إن من يتجه إلى مقصد في الحياة وله وريث وجب عليه أن يتمنى الموت في الزمن المناسب لغايته ولوريثه؛ لأنه يأنف حرمة لهما من أن يلقي بالأكاليل الذابلة على هيكل الحياة.

إنني لا أريد أن أحبُك الخيوط، وأنسحب إلى الوراء كمن يفتلون الحبال.

من الناس من لا يتجاوزون بأعمارهم الحد اللائق بالحقائق والظفر، وخليق بالفم المجرد عن أسنانه ألا يتناول ببيانه جميع الحقائق على الطامحين إلى الظفر أن يودعواً الأمجاد في الزمن المناسب ليتمرنوا على فن الرحيل عن الدنيا في الزمن المناسب أيضا، ومن واجب المرء أن يتوقف عن عرض نفسه للآكلين عندما يكفُّون عن تذوقها، ولا يعرف هذه الحقيقة إلا من يود الاحتفاظ بمحبة من حوله.

ولكن من الأثمار كالتفاح من تقضي طبيعته الحامضة عليه أن ينتظر النضوج إلى آخر أيام الخريف، فإذا هو ماثل للنظر باصفرار الشيخوخة وتجاعيد أساريرها.

ومن الناس من يدب الهرم إلى قلوبهم أولا، ومنهم من يدب الهرم إلى عقولهم، ومنهمً من يشيخون في ربيع الحياة، غير أن من يبلغ الشباب متأخرا يحتفظ بشبابه أمدا طويلا.

ومن الناس من ضلوا السبيل في حياتهم، فأضاعوا عمرهم، فعلى هؤلاء أن يعملوا على بلوغ التوفيق في موتهم على الأقل.

وهنالك أثمار لا تنضج لأنها تتهرأ في الصيف ولكنها تبقى معلقة بأغصانها؛ لأن جبنها يصدها عن السقوط، وهكذا نرى في العالم أناسا يلتصقون التصاقًا بأغصانهمٌ فهل من عاصفة تهب على الشجرة لتسقط ما عليها من أثمار تهر أت ورعى الدود قلبها؟ ليتقدم دعاة املوت العاجل وليهبوا كالعاصفة على دوحة الحياة، غير أنني لا أرى غير دعاة للموت البطيء يعظون بالصبر واحتمال كل مصائب الأرض.

إنكم تدعون إلى مكابرة الأرض ومجالدتها، أيها املجدفون والأرض صابرة عليكم صبرها الجميل.

والحق أن ذلك العبراني الذي يمجده املبشرون باملوت البطيء قد مات قبل أوانهٌ ولم يزل جم غفري يعتقد بأن ميتته املبكرة كانت مقدورة عليه.

وما كان هذا المسيح العبراني قد عرف غير دموع قومه وأحزانهم وكيد أهل الصلاح والعدل؛ لذلك راودته فجأة شهوة الفناء.

ولو أنه بقي في الصحراء بعيدا عن أهل الصلاح والعدل لكان تعلَّم حب الحياة وحب الأرض، ولكان تعلم الضحك أيضاً.

صدقوني، أيها الإخوة، إن المسيح قد مات قبل أوانه، ولو أنه بلغ العمر الذي بلغت،لكان جحد تعاليمه، وقد كان له من النبل ما يكفيه لاقتحام العدول عنها، ولكنه لم يبلغ النضوج، ولم تبلغه المحبة في الشباب؛ فكره الناس وكره الأرض، وهكذا بقيت روحه مثقلة ولم ينشر جناحه المهيض.

إن في الرجل من الطفولة ما ليس في الشاب، فالرجل الناضج أقل حزنًا وأقدر على فهم الحياة والموت؛ لأنه يشعر بحريته للموت وبحريته في الموت، وصمت زارا مرسلا نظرات الحب إلى أتباعه، ثم ارتفع صوته بنبرات جديدة قائلا :أخلصوا للأرض، يا إخوتي، بكل قوى فضائلكم .لتكن محبتكم الواهبة ولتكن معرفتكم خادمتين لروح الأرض، إنني أطلب هذا متوسلا.

لا تدعوا فضيلتكم تنسلخ عن حقائق الأرض لتطير بأجنحتها ضاربة أسوار الأبدية، ولكم ضلت من فضيلة من قبل على هذا السبيل.

أرجعوا الفضيلة الضالة كما رجعت بها أنا إلى مرتعها في الأرض .

عودوا بها إليَ الجسد وإلى الحياة لتنفخ في الأرض روحها روحا بشرية.

لقد تاه العقل وتاهت الفضيلة فخدعتها آلاف الأمور، ولما يزل هذا الجنون يتسلط على جسدنا حتى أصبح جزءًا منه فتحول فيه إلى إرادة.

لقد قام العقل وقامت الفضيلة معه بتجارب عديدة فضلا على ألف سبيل، وهكذا أصبح الإنسان عبارة عن تجارب ومحاولات ألصقت بنا الجهل والضلال وليس ما استقرَّ فينا من التجارب حكمة الأجيال فحسب، بل جنونها أيضا، ولكم يتعرض الوارثون إلى أخطار.

إننا لم نزل نصارع جبار الصدف، ولم يزل العته سائدا على الإنسانية حتى اليوم.

ليكن عقلكم وفضيلتكم بمثابة روح للأرض وعقل لها، أيها الإخوة، فتتجدد بكم قيَم الأشياء جميعها، من أجل هذا وجب عليكم أن تبدعوا.

إن الجسد يطهر بالمعرفة، فيرتفع بمرانه على العلم؛ لأن من يطلب الحكمة يطهر جميع غرائزه، ومن ارتقى فقد أدخل المسرة في نفسه.

أعن نفسك، أيها الطبيب، لتتمكن من إعانة مريضك، إن خير ما تبذله من معونة لهذا المريض هو أن يرى بعينه أنك قادر على شفاء نفسك.

إن في الأرض من السبل ما لم تطأها قدم بعد، فما أكثر مجاهلها وما أكثر خفاياها!

اسهروا وانتبهوا أيها المنفردون؛ لأن من المستقبل تهب نسمات سرية حاملة بشائر لا تقرع إلا الآذان المرهفة.

إنكم في عزلة عن العالم، أيها المنفردون، ولكنكم ستصبحون شعبًا في آتي الزمان، ومنكم سيقوم الشعب المختار؛ لأنكم اخترتم نفسكم اليوم، ومن هذا الشعب سيولد الإنسان المتفوق.

والحق أن الأرض ستصبح يوماً مستشفى للأعلاء، فإن في نشرها عبيرا جديدا هو عبير الإخلاص والأمل الجديد.

وسكت زارا كمن يقف عند كلمة تتلجلج في فمه، وبعد أن قلب عصاه طويلا بين يديهً أطلق صوته وقد تغيرت نبراته فقال :سأذهب وحدي الآن، أيها الصحاب، وأنتم أيضاً ستذهبون بعدي وحدكم لأنني هكذا أريد.

هذه نصيحتي إليكم؛ ابتعدوا عني وقفوا موقف الدفاع عن أنفسكم تجاهي، بل اذهبوا إلى أبعد من هذا؛ اخجلوا من انتسابكم إليَّ فلقد أكون لكم خادعا.

على من يطلب الحكمة ألا يتعلم محبة أعدائه فحسب، بل عليه أيضا أن يتعلم بغضاً تاماً بفضل أستاذه إذا هو بقي أبدا له تلميذًا لماذا أصدقائه، وما يعترف التلميذ اعترافً لا تريدون أن تحطموا تاجي؟

إنكم تحوطونني بالإجلال، ولكن ما هي الكارثة التي تتوقعونها من إعراضكم عني، إن في رفع الأنصاب لخطرا فاحترسوا من أن يسقط عليكم التمثال المنصوب فيقضي عليكم.

تقولون إنكم تؤمنون بزارا، ولكن أية أهمية له؟ تقولون إنكم مؤمنون، ولكن ما أهمية جميع المؤمنين؟ ما كان أحد منهم فتش عن نفسه قبل أن وجدتموني، وهكذا جميعا عظيما؛ لذلك آمركم الآن أن تضيّعوني لتجدوا أنفسكم، واما المؤمنين، فليس الإيمان شيئً أعود إليكم إلا عندما تكونون جحدتموني جميعكم.

والحق، يا إخوتي، إنني في ذلك الحني، سأفتش عن خرافي الضالة بعني أخرى فأبذل لكم حبًا غير هذا الحب.

سيأتي يوم تصيرون فيه أصحابا لي إذا ما وحد بينكم الأمل الواحد، عندئذ سأرغب في الإقامة بينكم للمرة الثالثة للاحتفاء بأنوار الهاجرة العظمى.

وستبلغ الشمس الهاجرة عندما يصل الناس إلى منتصف طريقهم بني الحيوان والإنسان المتفوق، وعندما يرون أملهم الأسمى على منتهى السبيل الذي يقودهم إلى الفجر الجديد.

الفداء:

وسار زارا يوما ًعلى الجسر فأحاط به رهط من أهل العاهات والمتسولين، وتقدم إليه أحدب يقول له :التفت إلى الشعب يا زارا، فهو أيضا يستفيد من تعاليمك وقد بدأ يؤمن بسنَّتك، ولكن الشعب بحاجة إلى أمر واحد ليتوطد إيمانه بك :عليك يا زارا أن تتوصل إلى إقناعنا نحن أهل العاهات، وأمامك الآن نخبة منهم وما لك بعد مثل هذه الفرصة.

تنتهزها لتقوم باختبارك على مثل هذا العدد من الرءوس، بوسعك الآن أن تشفي العميان والمقعدين فتخفف الأثقال، وتريح المتعبين، تلك هي الطريقة المثلى لهداية هؤلاء القوم إلى الإيمان بزارا.

فأجاب زارا :من يرفع عن ظهر الأحدب حدبته فقد نزع منه ذكاءه هذه هي تعاليم الشعب وإذا أعيدُ النور إلى عيني الأعمى فإنه لريى على الأرض كثيرًا من قبيح الأشياء فيلعن من سبَّب شفاءه، ومن يُ طلق ر َجل الأعرج من قيدها فإنه يورثه ذيَّة كبرى؛ إذ لا يكاد يسري ركضا حتى تتحكم فيه رذائله فتدفعه إلى غايتها هذه هي التعاليم التي ينشرها الشعب، وهل على زارا إلا أن يأخذ عن الشعب ما أخذه الشعب عنه؟

غير أنني منذ نزلت بين الناس سهل عليَّ أن أرى منهم من تنقصه عين، ومن تنقصهاإذن، وآخر فقد رجليه، وهنالك من فقدوا لسانهم أو أنفهم أو رأسهم.

وهكذا رأيت أقبح الأمور، وهنالك أشياء أشد قبحا إن أعرضت عن ذكرها فلا يسعني السكوت عن أكثرها.

رأيت رجالا فقدوا كل شيء، غير أنهم يملكون شيئًا يسوده الإفراط، فهم رجال كأنهم عين عظيمة أو فم واسع أو بطن كبري أو عضو آخر كبير لا غير، وما هؤلاء الناس إلا أهل العاهات المعكوسة.

وعندما عدت من عزلتي لأجتاز هذا الجسر للمرة الأولى وقفت مندهشا لا أصدق ما أرى فقلت :هذه أذن، أذن وسيعة كأنها قامة رجل، وتقدمت إليها فلاَح لي وراءها شيء صغير لم يزل يتحرك، وهو ناحل ضعيف يستدعي الإشفاق فإن الأذن الكبرى كانت قائمة على ساق دقيق، وما كانت هذه الساق إلا إنسانًا، ولو أنك تفرست في هذا الشيء بنظارة لرأيت فوقه وجهاً يتقطب بالحسد، وينم عن روح صغيرة تريد الانتفاخ وترتجف على قاعدتها.

وقال لي الشعب :إن هذه الأذن ليست رجلا فحسب، بل هي أيضا رجل عظيم بل عبقري من عباقرة الزمان، غير أنني ما صدقت الشعب يوما إذا هو تكلم عن عظماء الرجال، فاحتفظت بعقيدتي وهي أن هذا الرجل ذو عاهة معكوسة؛ إذ ليس له إلا القليل من كل شيء والكثير من شيء واحد.

وبعد أن وجه زارا هذا الخطاب إلى الأحدب ومن تكلم بالوكالة عنهم اتجه نحو أتباعه، وقد تحكم الكدر فيه فقال :والحق أنني أسري بني الناس كأنني أمشي بين أنقاض وأعضاء منثورة عن أجسادها، وذلك أفظع ما تقع عليه عيناي فإنني أرى أشلاء مقطعةْ كأنها بقايا مجزرة هائلة، وإذا ما لجأت عيني إلى الماضي هاربة من الحاضر فإنها لتُصدم بالمشهد نفسه، فهنالك أيضا أنقاض وأعضاء أشلاء وحادثات مروعة، ولكنني لا أرى رجالاً.

إن أشد ما يقع عليَّ أيها الصحاب، إنما هو الحاضر والماضي وما كنت لأطيق الحياة لو لم أكن مستكشفًا ما لا بد من وقوعه في آتي الزمان، وما زارا إلا باصرة تخترق الغيب فهو رجل العزم وهو المبدع، هو المستقبل والمْعَبر المؤدي إلى المستقبل، هو وا أسفاه ذو عاهة ينتصب على هذا المعبر.

وأنتم أيضا تتساءلون مرارا :من هو زارا؟ وبماذا نسميه؟ فلا تتلقون غير السؤال جوابًا كما أتلقاه أنا.

أهو من يَعد أم من ينفِّذ الوعد؟ أهو فاتح أم وريث أهو الطبيب أم هو الناقه؟

أشاعر هو أم رجل حقيقة؟ أمحرر أم متسلط؟ أصالح أم شرير؟

ما أنا إلا سائر بين الناس شطرةً من المستقبل الذي يتراءى لبصيرتي وجميع أفكاري تتجه إلى جمع وتوحيد كل ما تفرق على أسرار وتبدد على الصدف العمياء.

لو أن الإنسان لم يكن شاعرا محلِلا للأسرار ومفتديًا وما كنت لأحتمل أن أكون إنسانً لإخوانه من ظلم ما تسمونه صدفة ودهرا، وما الفداء إلا في إنقاذ من ذهبوا، وتحويل كل ما كان إلى ما أريد لو أنه كان..

ما المخلِّص والمبشر بالغبطة إلا الإرادة نفسها، وهذا ما أعلمكم إياه يا أصحابى ولكن اعلموا أيضا أن هذه الإرادة لم تزل سجينة مقيدة.

إن الإرادة تنقذ، ولكن ما هي القوة التي تقيد المنقذ نفسه؟

إن داء الإرادة الوحيد إنما هو كلمة قد كان تقف الإرادة أمامها تحرق الإرم عاجزة عن النيل من كل ما كان، فالإرادة تنظر بعين الشر إلى كل ما فات، وليس لها أن تدفع بقوتها إلى الوراء، فهي أضعف من أن تحطم الزمان وما يريده الزمان، وهذا داء الإرادة الدفين.

إن الإرادة تُنقذ، ولكن ما هو تصور الإرادة في عملها للتخلص من دائها وهدم جدران سجنها؟.

وا أسفاه !إن كل سجين يصبح مجنونًا، وما تنقذ الإرادة السجينة نفسها إلا بالجنون.

إن الزمان لا يعود أدراجه، ذلك ما يثير غضب الإرادة وكيدها، فهنالك صخر لا طاقة للإرادة برفعه، وهذا الصخر إنما هو الأمر الواقع.

لذلك تهب الإرادة وقد تملكها الغيظ مقتلعة الأحجار منتقمة من كل من لا يجاريها في كيدها وثورتها، وهكذا تصبح الإرادة المنقذة قوة شريرة تصب جام غضبها على كل قانع بعجزها عن الرجوع إلى ما فات، وهل انتقام الإرادة إلا عبارة عن كرهها للزمان؛ لأنه أوقع ما لا قبَل لها برده؟

والحق أن إرادتنا مصابة بالجنون، وقد نزلت لعنة على البشرية منذ تعلَّم الجنون أن يتفكر .

إن خير ما طرأ على الإنسان حتى اليوم إنما هو فكرة الانتقام، وهكذا سيبقى العقاب ملازما للألم في كل زمان وفي كل مكان، وهل فكرة الانتقام إلا العقاب بذاته، فما كلمة الانتقام إلا كلمة مكذوبة يقصد بها التعبيري عن الضمير.

إن كل مريد يتألم لأنه لا قبل له بالرجوع إلى الماضي لرد ما فات، ولهذا لزم أن تكون الإرادة بل كل حياة على الإطلاق كفارة وعقابًا.

بمثل هذه الاعتقادات تلفَّع العقل بالغيوم فانبثق منه الجنون هاتفًا :كل شيء يزول، فكل شيء يستحق الزوال.

إن العدل نفسه يقضي بأن يفترس الزمان أبناءه، هذا ما أعلنه الجنون.

لقد وضع الناموس الأدبي وفقا للحقوق وللعقاب، فأين المفر من نهر الحياةً الجارف؟ وما الحياة إلا عبارة عن عقاب، وهذا أيضا ما أعلنه الجنون.

ليس من حادث واحد يمكننا أن نزيله من الوجود، فهل للعقاب أن يمحو الحادثات؟

وهل من خلود لغير الأعمال في وجود لا ينفك يحول العمل عقابًا والعقاب عملا؟ ولا مناص من هذه الحلقة المفرغة ما لم تتوصل الإرادة إلى الفرار من ذاتها فتصبح حينذاك إرادة منفية.

إنكم تعرفون، أيها الإخوة، هذه الأغاني التي يتشدق بها الجنون، وقد أقصيتكم عندما علمتكم أن الإرادة مبدعة، كل ما فات يبقى مبدًدا منثورا كأنه أسرار ومصادفات رائعة إلى أن تقول الإرادة :إنني أنا أردت هذا، ثم تقول :وهذا ما أريده الآن وسأريده غداً.

هل نطقت الإرادة بمثل هذا حتى اليوم؟ وأي متى ستنطق به؟ هل هي تملصت من قيود جنونها فأصبحت تفتدي الحادثات بعزمها وتبشر بالحبور؟ هل هي اطرحت فكرة الانتقام وتوقفت عن حرق الأرم من كيدها؟ من ترى تمكن من تعليمها مسالمة الزمان بل ما يفوق هذه المسالمة؟.

يجب على الإرادة ولا أعني سوى إرادة الاقتدار أن توجه مشيئتها إلى ما هو أعظم من المسالمة، ولكن أنَّى لها ذلك ومن سيعلِّمها أن توجه هذه المشيئة .إلى ما فات؟

وتوقف زارا عن الكلام فجأة كأن رعبا شديدا حل به؛ فاتسعت حدقاته وشخصً بأتباعه سابرا أفكارهم غير أنه ما لبث أن عاد إلى الضحك، فقال بكل هدوء : ما تهون الحياة بين الناس لأن الصمت صعب على المرء خاصةً إذا كان ثرثارا

ولكن الأحدب الذي كان يصغي إلى هذا الحديث، وهو يستر وجهه بيديه سمع قهقهة زارا ففتح عينيه مستغربًا وقال :لماذا يخاطبنا زارا بغير ما يخاطب به أتباعه.

فقال زارا :وهل من عجب في هذا؟ أفما يصح أن يُخاطب الأحدب بأقوال لها حدبتان.

ً فقال الأحدب :ولا عجب أيضاً في أن يخاطب زارا تلاميذه كمعلم أولاد، ولكن لماذايخاطب أتباعه بغير ما يخاطب به نفسه؟

حكمة البشر:

ليست الأعالي ما يخيف بل الأعماق، فعلى الجرف تحدق العني في الهاوية وتمتد اليد نحو الذرى فيقبض الدوار بالإرادتين على القلب.

أفتعلمون أيها الصحاب ما هي إرادة قلبي املزدوجة؟ إن الخطر املحدق بي على منحدري إنما هو اتجاه نظري إلى الذروة بينما تتلمس يدي مستندا في الفضاء، وما أعلق إرادتي إلا على الإنسان فتشدني إليه مرهقات القيود؛ لأنني منجذب منه إلى الإنسان المتفوق فإليه تندفع إرادتي الثانية، إنما أنا أحيا بين الناس كالضرير لا يعرف من حوله،كيلا تفقد يدي ثقتها من الوقوع على مستند مكين.

أنا لا أعرفكم أيها الناس، تلك هي ظلمتي أتلفَّع بها وتعزيتي ألجأ إليها.

لكم ناجيت قلبي لأعزيه، فقلت له :صبرًا أيها القلب الهرم، إنك لم تفلح بهذه النقمة فتنعم بها كأنها نعمة.

وهذه حكمتي البشرية الثانية :إنني أداري املغرور بأكثر مما أداري الفخور؛ لأن الغرور الجريح مبعث كل النائبات، في حين أن العزة الجريحة تستنبت جرحها ما هوخير منها.

إذا لم يحسن الممثلون لرواية الحياة أدوارهم فيها فخير لك ألا تشهدها، وليس أمهر من أهل الغرور في التمثيل؛ لأنهم يقومون بأدوارهم وكل إرادتهم متجهة إلى اكتساب رضىً المشاهدين وإعجابهم، وهم لا يدخرون وسعا في سبيل خلق شخصيتهم وتمثيلها؛ لذلك يلذ لي أن أنظر من خلالهم إلى الحياة فهم خير دواء للسوداء، أنني أداري أهل الغرور أساة أحزاني المقيمون الإنسان ممثلا أمام عيناي.

وفوق ذلك فمن له أن يسبر الأعماق في تواضع المغرور؟ فأنا أريد الخير لمثله وأشفق عليه بسبب اتضاعه، فهو يريد أن يقتبس منكم ثقته بنفسه متغذيّا من نظراتكم، متسولا الثناء من تصدية أكفكم، إن املغرور ليصدق أكاذيبكم إذا ما أحسنتم إيرادها عنه، فما هو إلا حائر يشك بأعماق نفسه في قيمة نفسه . إذا كانت الفضيلة الحقيقية تجهل ذاتها، فالمغرور كذلك لا يعرف شيئًا عن تواضعه.

العراف:

ورأيت الناس يستولي عليهم حزن عميق، وقد وهنت قوى خيارهم فيما يعملون،فانتشر تعليم يؤدي إلى الإيمان في أن كل شيء باطل ومتشابه وقيد الزوال، فتجاوبت الأصداء في الهضبات مرددة :كل شيء باطل ومتشابه وقيد الزوال.

لقد حصدنا ولكن غلالنا أكمد لونها وتهرأت، فأي شيء تساقط تحت جنح الظلام من وراء كوكبه اللئيم؟

لقد ذهبت جهودنا سدى، وفسد خمرنا فاستحال سما زعافًا، فكأن عينًا حاسدة أصابت حقولنا وقلوبنا فأذوتْها.أ

جففنا جميعنا فإذا نزلت بنا حارقة فلا يتطاير منا غير الرماد، لقد تعب منا كل شيء حتى لسان اللهيب.

غاضت الينابيع أمامنا وتراجع البحر عنا، وقد زلزلت الأرض تحت أقدامنا، ولكنها لم تفغر فاها لتوارينا، فمن لنا ببحر نغرق فيه، إننا نصرخ طالبين البحر فيذهب صوتنا بددا على سطوح المستنقعات.

والحق أننا بذلنا أقصى جهودنا طلبًا للموت وملا نزل جثًثا تحيا وعيونها جاحظة على اللحود.

هذا ما قاله أحد العرافني، فذهب قوله نافذً قلب زارا فبد له تبديلا،وأصبح زارا حزينًا متعبًا يضرب في الأرض شبيها بمن ذكرهم العراف في نبوءته.

وقال زارا لأتباعه :لن يمضي زمن طويل حتى ينسدل هذا الغسق القاتم على وجه الأرض، وأنا أحاذر ألا أجد وسيلة للعبور بنوري إلى ما وراءه فأنقذه من الانطفاء .

وسار زارا شارد ا يحمل همه في قلبه، فأمضى ثلاثة أيام لا يذوق فيها طعاما ولا شرابًا ولا يعرف الراحة حتى وقف لسانه عن الكلام، فاستغرق في نوم عميق وجلس صحبه حوله يسودهم القلق طوال الليالي متوقعني أن يفيق لريدوه عن أحزانه.

وأفاق أخيرا فخاطبهم بصوت كأنه ترديد صد ى بعيد قائلا أصغوا إليَّ، أيها

الصحاب، لأقص عليكم ما رأيت في حلمي وساعدوني على تعبريه، فإن حلمي قد أغمض عليَ ولم يزل معناه كامنًا فيه.

رأيتني هجرت الحياة واخترت مهنة حارس للقبور على الجبل المقفر حيث يرتفع قصر الموت، فكنت أحرس النعوش وهي أسلاب النصر تغص بها الدهاليز المظلمة، فكنت أرى الساقطين في معترك الحياة المسجين في التوابيت المغطاة بالزجاج يحدجونني بنظراتهم المروعة، وهنالك نشقت عرف الأبدية غبارا يتطاير على روحي فريهقها، ولاأستطيع أن أنفض عنها هذا الغبار الثقيل

وكانت أصداء الليل تدور بي ومعها شبح العزلة والانفراد، فكان رفيقي سكون الموت تتعالى فيه من حين إلى حين حشرجة المدنَفين.

وكنت أحمل المفاتيح وقد علاها الصدأ أعالج بها أصلب الأبواب؛ فتصرف مصاريعها بصراخ أبح لئيم يذهب مدويا في الدهاليز كأن الدَرفات أجنحة أطيار تنكمش وتنعق متململة ممن يريد تنبيهها من رقادها.

وعندما كان يخيم السكوت بعد هذا الدوي كان يبلغ رعبي أشده، فأبقى وحدي محاطا بهذا الصمت الرهيب.

ومر الزمان متمهلاً، لو صح أن في مثل هذه الرؤى زمان، إلى أن وقع ما أفقت لهً مذعورا.

قرع الباب ثلاث مرات بدوي كأنه الرعد القاصف، فهتفت الدهاليز ثلاث مرات بصدى كأنه الزئير، وتقدمت إلى القفل أعالجه فلم يتزحزح قيد أنملة، وهبت العاصفة بشدة فدفعت بالمصراعين ورمت إليَّ بنعش أسود، وقد تصدع الهواء بالصفري والولولة وسقط النعش فانحطم وخرجت منه آلاف من القهقهات، فرأيت آلافًا من الأطفال والملائكة وطيور البوم والمجانين والفراشات الضخمة يطفرون حولي ساخيرن.

فإذا أنا مطروح على الأرض أصرخ صراخا مريعا، فانتبهت واستولى الخوف عليَّ لصوتي مذعورا

وسكت زارا لحظة وهو حائر، فإذا بأحب أتباعه إليه ينهض ويقبض على يده قائلا: إن تعبير رؤياك إنما هو في حياتك نفسها يا زارا، أفلست أنت النعش، وقد حشدت الحياة فأنا جالس أمام الباب متوجها إلى الأوغاد صائحا بهم :إليَّ يا من يريد أن يخدعني.

إن أول حكمة بشرية أعمل بها هي أن أستسلم لخداع الناس، فلا أضطر إلى الوقوف أبدا موقف الحذر لأن في الناس من يخدعون.

ولو أنني وقفت هذا الموقف في العالم أكان يتسنَّى للإنسان أن يثقل منطادي فيمنعه من الانفلات والانطلاق إلى أبعد الآفاق؟

إن إغفالي للحذر إنما هو عناية تسهر عليَّ لإيصالي إلى ما هو مقدور.

إذا أنت امتنعت عن الشرب من كل كأس فإنك هالك ظمأ، فإذا أردت أن تبقى طاهرا بين الناس فعليك أن تتعود الاغتسال بالماء القذر.

أما حكمتي البشرية الثالثة فقائمة على أنني لا أدع لاستحيائكم سبيلا إلى تنفيري من مشاهدة الأشرار، فأنا أسر بالنظر إلى ما تخلق حرارة الشمس من عجائب المخلوقات كالنمور وأشجار النخل والأفاعي ذوات الأجراس، ولكم بني الناس من أمثال لهذه المخلوقات العجيبة أفقستها حرارة الشمس أيضا، وفي الأشرار من البدائع الشيء الكثير.

إن أوفركم عقلا لا يبلغ في نظري منتهى الحكمة، كذلك لا أرى الشر إلا مبالغا فيً وصفه، ولكم تساءلت مشككا :لماذا لا تزال الأفاعي تطن بأجراسها؟ إن لكل شيء مستقبله حتى الشرور، فالظهيرة البالغة التناهي في إشراقها لم تنكشف عتبر شرورا في هذا الزمان وهي لا تتجاوز الثلاث للإنسان حتى اليوم، لكم من أمور عشرة قدما حجما، ولا الثلاثة أشهر بقاء، وغدا سيولد ما هو أعظم منها، ولا بد من أنا بالإنسان المتفوق، فإن شموسا محرقة ستُدخل حرارةَ التنين المتفوق خليقً تخلق الحياةُ الإبداع في الغابات الغضة الرطبة التي لم تمسسها يد بعد.

لا بد من أن تصبح وحوشكم نمورا وعقاربكم تماسيح، فيجد القنَّاص في الغاب ما يرضيه.

والحق أن فيكم كثيرا من المضحكات يا رجال العدل والصلاح، ولشد ما يضحكني خوفكم ممن دعوتموه إبليسا، لقد بعد المجال بين روحكم وكل عظيم.

محادثة مع الملكين:

١

وما مضت ساعة على سري زارا وتوغله في جباله وأحراشه حتى اعترضت طريقه قافلة غريبة، فرأى ملكين كل منهما متوج وممنطق بالأرجوان، يسوقان أمامهما حماراً محملاً؛ فقال زارا في نفسه :ماذا يطلب هذان الملكان في أراضي، وأسرع إلى الاختفاء وراء عوسجة حتى إذا اقتربت القافلة من مكمنه تمتم بصوت خافت :يا للغرابة !إنني أرى ملكين ولاأرى غير حمار واحد.

وتوقف الملكان وهما يبتسمان ويلتفتان إلى مصدر الصوت الخافت، فقال ملك الميمنة:

إن مثل هذه الأفكار تمر في الخاطر عندنا ولكن لا يعبر أحد عنها.

فهز ملك الميسرة كتفيه وقال :لعل المتكلم راع أو ناسك عاش طويلا بين الصخوروالأشجار فالابتعاد عن المجتمع مفسد للأخلاق المهذبة.

فقال الملك الآخر وقد ظهرت عليه إمارات الكدر :الأخلاق المهذبة !وهل غادرنا مجتمعنا إلا هربًا من أخلاقه المهذبة؟ لخير لنا أن نعيش بين النساك والرعاة من أن نعيش بين قومنا.

وقد اتشحوا المذهبات واستعادوا من الطلاء ملامحهم الكاذبات، ماَ تجدي الأنساب العريقة إذا كان من يباهون بها قد تهرءوا وغدا أفسد ما فيهم دمهم لما عاث فيه من أمراض قديمة، ولِما أدخله عليه الأُساة الجاهلون.

لخير من هؤلاء القوم الفلاح السليم، فهو بخشونته واحتياله وصبره ومجالدته أشرف أنواع الإنسان في هذا الزمان.

إن فلاح هذا الزمان خير ما في المجتمع، وطبقته أولى بالحكم ولكن الشعب هو الحاكم، وما أنخدع به بعد الآن فهو عبارة عن غوغاء من جميع الطبقات يختلط فيه القديس والسافل والصعلوك المغرور واليهودي، فكأنك منهم تجاه ما جمعت سفينةُ نوح.

كيف نذكر العادات الحسنة وليس عندنا إلا الرياء والفساد، وقد نسي الجميع معنى الاحترام لقد أردنا أن نهرب من كل هذا فلا نعود نرى الكلاب يقتلها الجشع والفضول وتبهرها السعف المذهبة.

لقد بلغ الاشمئزاز مني مداه؛ لأننا نحن أيضا أصبحنا كاذبين نرفل بُبرود أجدادنا وقد أخلقها الزمان، ونتقلد الأنواط لنبهر أجهل القوم وأشدهم احتيالاً ولنمالئ جميع من يتعاملون بالربا الفاحش مع كل سلطة.

لسنا أول المالكين فعلينا ألا نكون على ما كانوا، لقد تعبنا وشبعنا مخادعة واحتيالا

لقد أعرضنا عن الشعوب وتولينا عن هؤلاء المشاغبين وهذه الهوام القابضة على الأقلام، فهربنا من رائحة الحوانيت الكريهة ومن الأنفاس الخانقة تحشرج في صدور الجهود القاصرة.

أف للحياة بين الشعوب ويا لشقاء من يمشون في طلائعها، أية أهمية للملوك !ما لك ولهم.

فقال ملك الميسرة :لقد عاودك داؤك القديم، لقد استولت نوبة الاشمئزاز عليك يا أخي، ولكنك نسيت أن هنا من يسمع حديثنا.

وخرج زارا من مكمنه وقد سمع كل ما دار من حديث بين الملكين فتقدم إليهماً ما سمع إنما هو رجل يُدعى زارا، وأنا هو زارا القائل وقال :إن من أصغى إليكما فراقَ أية أهمية للملوك بعد .فاغفرا لي مسرتي لسماعي منكما ما قلتُه من قبل.

أنتما الآن في مملكتي وتحت سلطاني، فماذا عساكما تطلبان فيها؟ لعلكما وجدتما مافتش عليه، فأنا أفتش على الإنسان الراقي.

وقرع الملكان صدريهما قائلين :لقد كشف أمرنا، فقد اخترقت بكلمتك هذه أعماق قلبنا وأدركت سبب بلوانا نحن ذاهبون للعثور على الإنسان الراقي، الإنسان الذي يفوقنا بالرغم من أننا في مرتبة الملك، وقد أتينا إليه بهذا الحمار؛ لأن على الإنسان الأعلى أن يكون المعلم الأعلى

إن أقسى ما يجتاح الأرض من نوازل أن لا يكون أصحاب السلطان على الناس أفضل الناس، كيلا يسود الكذب والفظائع فتلتوي الأمور ذاهبة على غير مجاريها.

محادثة مع الملكين:

٢

يكون أرباب السلطان من زعانف القوم بل ومن حيواناته يتعالى الشعب ويتعالى حتىً ليسمعك صوته قائلا إنني أنا هو الفضيلة.

فهتف زارا :ماذا أسمع أعند الملوك مثل هذه الحكمة؟ !لقد أثارت هذه الكلمات قريحتي، ولسوف أنظم مقطعاً بما أوحته إليَّ، ولعل ما سأنظم لا تقبله آذان الكثيرين،ولكنني منذ زمان طويل نسيت مداهنة الآذان الطويلة.

ونهق الحمار كأنه يحتج، فقال زارا :في ذلك الزمان، في السنة الأولى من التاريخ الجديد، هتفت آلهة الأقدمين دون أن تكرع خمراً، فقالت :الويل الويل لقد ساءت الحال!يا للانحطاط، إن العالم لم يسقط إلى مثل هذه الدركة قبل الآن؟ فقد استحالت روما إلى عاهرة،وتدنَّى قيصرها إلى مرتبة الحيوان،حتى إن الله نفسه استحال يهوديًا.

واستحسن الملكان نشيد زارا، وقال ملك الميمنة :لقد كان من حظنا أن خرجنا على الطريق فلقيناك، وقد كان أعداؤك عكسوا لنا صورة منك على مرايا نفوسهم فرأيناك شيطانً ضاحكا ساخرا أدخل الرعب إلى قلوبنا، ولكن كلماتك ومبادئك كانت تخترق آذاننا لتهزأحشائنا فتغلَّبت على ما أدخلت صورة وجهك من الاضطراب في روعنا، فقررنا أن نجيء إليك وأنت القائل عليكم أن تحبوا السلم كوسيلة توصلكم إلى حروب جديدة، وأن تفضلوا فترة السلام القصيرة على الهدنة الطويلة الأمد وما نطق أحد قبلك بآية حربية كقولك لا خير يضاهي الشجاعة وغاية الحرب الحسنى تبرر كل واسطة.

أي زارا، إن دم أجدادنا قد ثار في عروقنا عندما سمعنا آيتك فكأنه الخمر المعتق يغلي في الدنان لسماعه همسات الربيع، وهل كان أجدادنا يشعرون بلذة الحياة إلا عند اشتباك النصال اشتباك الأفاعي تقطر دما، وهل كانت شمس السلام في أعينهم إلا نورا خاسئًا، فكل هدنة طويلة كانت تلفعهم بالعار.

لكم من زفرة دفعها آباؤنا وهم ينظرون إلى النصال المرهفة تتدلى صابرة على جدران القصور، فإنهم كانوا يشعرون في أحشائهم بظمأ النصال نفسها، وما لمعان الحديد إلا وهج شهوته وتحرقه إلى شرب الدماء.

وبينما كان الملكان يتحدثان بحرارة عن سعادة آبائهما، ثارت عوامل التهكم في زارا وهو ينظر إلى ملامح الملكين التي تنم على الدعة والسكون غير أنه امتلك حوافزه وقال:هيَّا بنا إلى الذروة، إلى غار زارا فسيعقب هذا النهار سمر طويل، وأنا مضطر لمغادرتكما؛لأن صوت مستنجد يدعوني من المدى البعيد.

ستنال مغارتي الشرف من نزول ملكين فيها، حيث لا بد لهما من الانتظار طويلا،ولن يصعب الانتظار عليكما وقد تعودتماه في بلاطيكما، وهل بقي للملوك من فضيلة سوى فضيلة الصبر والانتظار؟!

العلقة:

وتابع زارا طريقه وهو مستغرق في تفكيره فانحدر من الأعالي حتى بلغ المستنقعات، فإذا به يصطدم وهو ذاهل برجل هزته الصدمة فصرخ متألماً، وأتبع صرخته بالشتائم تَترى قبيحة سمجة، وبوغت زارا في استغراقه فرفع عصاه على الرجل، ولكن روعه عاد إليه فسخر من نفسه وقال :أرجو عفوك وأستميحك أن أضرب لك مثلا عما وقع لنا:

بينما كان رجل سائرا في طريق مقفر وقد سرحت أفكاره في مجالات بعيدة عثر بكلب نائم تحت شعاع الشمس، فوقفا الواحد بوجه الآخر كعدوين لدودين وحذرا، ولو أن الصدف تحولت قيد أنملة لكان تداعب الكلب يرتعشان خوفا والمنفرد، أفما هما في القفر فريدان

فقال الرجل المصدوم والغضب لا يزال آخذا منه مأخذه، :كن من تشاء يا هذا، فما أنت إلا معتد عليَّ بمثَلك بأكثر مما اعتديت بصدمتك، انظر إليَّ، أفكلب أنا؟ !وكان هذا المتكلم جاثماً على الأرض، وقد غرس ذراعه في المستنقع كأنه يتصيد منه شيئًا فنهض ساحبًا ذراعه العاري من الأوحال.

ورأى زارا دما غزيرا يقطر من ذراع الرجل فصاح به :ماذا جرى لك أيها التعس،هل لسعك حيوان.

فأجاب غضوبًا هازئًا وهو يدير ظهره ليذهب في سبيله :ما يعنيك يا هذا، إنني مقيم في ملكي وليس عليَّ أن أرد على أهوج.

وأمسك زارا بالرجل وقد أشفق عليه فقال له :لقد أخطأت فلست في ملكك بل أنت في ملكي حيث يجب أن لا يضار أحد ادعني بالاسم الذي تشاء فما أنا إلا من يجب أن أكون وقد أسميت ذاتي زارا تعال اتبعني إلى مغارتي لأضمد جراحك، فما أنت إلا تعس خانك الحظ، لقد لسعك الحيوان ثم جاء الإنسان بعد ذلك يدوس عليك.

وما سمع الرجل اسم زارا حتى تبدلت سحنته وهتف قائلا :أي شيء أهتم له في الحياة غير هذا الإنسان الفريد زارا وغير هذا الحيوان الفريد الذي يعيش من غب الدماء العلَقة.

ما انطرحت على الأرض إلا طلبًا لهذا الحيوان فقُرصت يدي عشر مرات وإذا بزارا نفسه يقرصني أيضاً.

يا لسعادتي؛ إذ قضي لي أن أكون اليوم في هذا المستنقع لأبارك خير حجام بين الأحياء، لأبارك زارا أعظم من علق على الضمائر ليمتص منها.

وفرح زارا لسماعه هذه الكلمات، فقال للرجل وقد مد إليه يده ليصافحه : من أنت يا هذا؟ إن ما بيننا أمورا كثرية يجب أن نجلوها، غير أنني لا أجد مشقة في الإيضاح وها قد وضح بيننا النهار.

فأجاب الرجل :أنا ضمير الفكر، وليس من عامل أشد صلابة وأكثر تقيداً مني غير زارا معلمي، وقد تعلمت منه أنه خير للإنسان أن يكون مجنونًا في عين نفسه من أن يكون حكيما في نظر الناس.

أنا هو الذاهب إلى الأعماق ولا أبالي بضيق المدى أو باتساعه، ولا فرق عندي أكان الغور مستنقعاً أم سماء، وإنه ليكفيني من الأرض سعة الكف إذا جمدت وصلحت مستقراً للقدم فليس أمام العلم الموالي للضمير من شيء يعده صغيراً أو كبيرًا.

فقال زارا :لعلك إذن من يحاول إدراك منشأ العلقة، فتذهب إلى الغور في بحثها حريًا مع ضميرك

فأجاب :لا يا زارا، كيف لي أن أقوم بهذا العمل الفظيع ولا معرفة لي إلا بدماغ العلقة، وفي دماغها ينحصر الكون في نظري، أفليس هذا الحيز كونًا بنفسه؟ أرجو عفوك.

إذا ما أظهرت كبرياء بقولي إنني أنا الأستاذ في هذا المطلب، ولذلك قلت لك إن هنا ملكيً لقد مر عليَّ زمان طويل وأنا أحصر اهتمامي في بحث دماغ العلقة كيلا تفوتني الحقيقة في دقائقها، إن في هذا المطلب تمتد سلطتي وقد أعرضت عن كل ما عداه؛ لذلك يتمشى علمي موازيًا لجهلي، وقد قضى عليَّ ضميرُ تفكيري أن أعرف شيئًا وأجهل سائر الأشياءً فأصبحت كارها لكل عمل فكري لا يتعدى نصف مرحلته، ولكل إنسان اعتكر فكره في حماسه وتردده.

إن عماوتي تبدأ حيث يتناهى إخلاصي لعقيدتي، وأنا راض بالعمى، وإذا ما أردت معرفة شيء انصرفت إليه قاسيًا طالبًا متعصبًا لا ألوي على شيء في سبيل محجته.

أفما أنت القائل يا زارا :إن الحياة نفسها مبضع يشق الحياة.

إن قولك هذا قد جعلني تابعا لتعليمك، فتمكنت بذلك من اكتساب معرفتي ببذل دمي.

فقال زارا :إن الواقع يثبت قولك

وأشار إلى ساعد الرجل وهي تدمي، وعليها عشر علقات تمتص منها، وأردف قائلا :إن في حالك عبر ا، أيها الإنسان، فأنت بنفسك تعليم، ولن أقدم على إسماعك كل تعاليمي.

لنفترق هنا، غير أنني أود أن ألقاك بعد الآن، إن هذه الطريقة المرتفعة تؤدي إلى غاري فانزل فيه أهلا هذا المساء بين ضيوفي؛ لأنني أريد أن أسترضيك عما ألحقته بك من إهانة عندما دست عليك بقدمي، فأنا أفكر بهذه الترضية الآن.

الشيخة والفتاة:

لما ذا تدلج مختفيًا في الغسق يا زارا؟ وما هو الذي تخفيه بكل احتراس تحت ردائك؟ أكنزُهو بته أم طفل رزقته؟ وإلى أين تتجه على طريق اللصوص يا صديق الأشرار؟

فأجاب زارا :والحق يا أخي، إن ما أحمل هو كنز وهبته، فهو حقيقة صغيرة طائشة كالطفل، ولولا أنني كممت فمها لصاحت بملء شدقيها.

بينما كنت أسير منفردا في طريقي عند الغروب، التقيت بشيخة ناجتني قائلة:

لقد كلمنا زارا مرارا نحن النساء، ولكنه لم يتكلم عنا مرة واحدة

قلت لها :يجب ألا يتكلم الرجل عن النساء إلا للرجال.

فقالت :لك أن تتكلم أمامي عن النساء؛ لأنني بلغت من العمر أرذله، فلن تستقرأقوالك في ذهني.

وقبلت رجا ء المرأة العجوز فقلت لها كل ما في االمرأة لغز، وليس لهذا اللغز إلا مفتاحَ واحد وهو كلمة الحبَل .ليس الرجل للمرأة إلا وسيلة، أما غايتها فهي الولد، ولكن ما تكون المرأة للرجل ياترى؟ إن الرجل الحقيقي يطلب أمرين :المخاطرة واللعب، وذلك ما يدعوه إلى طلب المرأة،فهي أخطر الألعاب.

خلق الرجل للحرب، وخلقت المرأة ليسكن الرجل إليها، وما عدا ذلك فجنون، ولايحب المحارب الثمرة إذا تناهت حلاوتها، فهو لذلك يتوق إلى المرأة لأنه يستطعم املرارة في أشد النساء حلاوة.

تفهم المرأةُ الطفل بأكثر مما يفهمه الرجل، غير أن الرجل أقرب إلى خلُق الطفل من المرأة، ففي كل رجل حقيقي يحتجب طفل يتوق إلى اللعب، فلتعمل النساء على اكتشاف الطفل في الرجل.

لتكن المرأة لعبة صغيرة طاهرة كالماس تشع فيها فضائل العالم المنتظر ليتوهج الكوكب السني في حبك أيتها المرأة، وليهتف شوقك قائلا : لأضعن للعالم الإنسان المتفوق ليكن في حبك استبسال تتسلحين به لاقتحام من يثير الوجل في قلبك

ضعي شرفك في حبك، وما تعرف المرأة من الشرف إلا يسيرا، غير أن الشرف في حبك هوُ الخلق الذي يجعلك تبادلين المحبة بأكثر منها فلا تنحدرين إلى المقام الثاني.

ليحذر الرجل المرأة عندما يستولي الحب عليها، فهي تضحي بكل شيء في سبيل حبها؛ إذ تضمحل في نظرها قيَم الأشياء كلها تجاه قيمته، ليحذر الرجل المرأة عندما تساورها البغضاء؛ لأنه إذا كان قلب الرجل مكمنًا للقسوة، فقلب المرأة مكمن للشر.

إلى من توجه المرأة أشد بغضائها؟

والجواب في قول الحديد للقوة الجاذبة :إن أشد كرهي موجه إليك لأنك تجذبني وليس فيك من طاقة تربط على ما تجذبني.

إن سعادة الرجل تابعة لإرادته، أما سعادة المرأة فمتوقفة على إرادة الرجل. تقول المرأة وقد استسلمت لحبها العميم :لقد اكتمل العالم.

ولا بد لها أن تخضع وأن ترى أعماقًا على سطحها؛ لأن روح المرأة سطحية فهيٌ صفحة ماء متماوجة تداعبها الرياح، في حين أن روح الرجل أعماق تزمجر أمواجها في المغاور السحيقة القرار، وقد تشعر المرأة بقوة الرجل ولكنها لن تفهمها

عندئذ قالت العجوز :لقد تكلم زارا عن أشياء طريفة أجدر بسماعها من النساء من لم يزلن في مقتبل العمر، ومن الغريب أن ينطق زارا بالحق عن النساء وهو لا يعرفهن إلاَّ قليلا، أفتكون إصابته ناشئة عن أن ليس في حالة المرأة شيء ممتنع.

والآن أصغ إليَّ يا زارا، فإنني سأعلن لك حقيقة صغيرة مكافأة على ما قلت، وكبرِ سني يجيز لي أن أعلنها لك، فاسترعها وأطبق شفتيك عليها لئلا يتعالى صراخها من فمك.

فقلت هاتها، هذه الحقيقة الصغيرة أيتها المرأة وهذا ما قالت العجوز :إذا ما ذهبتَ إلى النساء فلا تنس السوط.

لسعة الأفعى:

واستسلم زارا للكرى يوما تحت شجرة التنين، وكان الحر شديدا فستر وجهه بساعده فأتت أفعى ولسعته في عنقه؛ فصرخ متأملاً وانتفض محدقًاً بها فعرفت عينيه وتململت لتنصرف، فقال لها زارا :لا تذهبي قبل أن أقدم لك شكري؛ لأنك نبهتني في الزمن المناسب لأقوم بسفر بعيد.

فأجابت الأفعى وفي صوتها غنة الأسى :بل سفرك قريب فزعا في قاتل.

خذي سمك، إنني أعيده إليك وابتسم زارا وقال :وهل لزعاف الأفعى أن يقتل تنينً فلست من الغنى على ما يسمح لك بتقديمه هدية لي.

وسارعت الأفعى إلى الالتفاف حول عنق زارا تلحس جرحه.

وقص زارا هذه الحادثة يوماً على أتباعه فقالوا له :وما هو المغزى الأدبي لهذه القصة، فأجاب :إن أهل الصلاح والعدل يدعونني هداماً للمبادئ الأدبية فقصتي لا تتفق وهذه المبادئ.

إذا كان لكم عدو فلا تقابلوا شره بالخير؛ لأنه يستصغر بذلك نفسه، بل أكدوا له أنه أحسن بعمله إليكم، والأجدر بكم ألا تحتقروا أحدا، تظاهروا بالغضب، وإذا وجهت اللعنة إليكم، فلا يسرني أن تمنحوا البركة، إن ما يسرني هو ألا تأبوا اللعن أنتم أيضاً.

نزلت بكم مظلمة كبيرة فبادلوا المعتدي مثلها، وأرفقوها بخمس مظالم صغرى؛وهذا ً لأنه ما من مشهد أشد قبحاً من مشهد من لا يخضع إلا للظلم.

إن اقتسام المظالم بالتساوي إنما هو مساواة بالحق، فهل كنتم تعرفون هذا من قبل؟ من يقدر على إرهاق الناس بظلمه فعليه أن يحتمل هو الظلم أيضاً

لئن ينتقم الإنسان قليلا فذلك أدنى إلى المعروف، وليس من الإنسانية أن يترفَّع المظلوم عن الانتقام إنني لأنفر من اقتصاصكم إذا لم يكن عبارة عن حق تؤدونه للمعتدي، فإن من يسند الخطأ إلى نفسه لأنبل ممن يعلنون في كل آن أن الحق في جانبهم، وأخص من هؤلاء من كانوا حقيقة على صواب إن أغنياء الروح لا يفعلون هذا.

إنني أكره عدالتكم الباردة، فإن في عيون قضاتكم ازورار الجلاد ولمعان سيفه، فأين العدالة تلمح في عينيها الصفاء أوجدوا لي الحب الذي لا يكتفي بحمل كل أنواع العقاب، بل يحمل أيضا جَميع الخطايا.

أوجدوا لي العدل الذي يبرئ الجميع ليحكم على الإنسان الذي يدين.

أتريدون أن أذهب إلى أبعد مما قلت فأعلن لكم أن الكذب نفسه يصبح محبة للإنسانية في نفس من يتوق إلى إقامة العدل؟.

ولكن هل بوسعي أن أقيم العدل بكل إخلاص؟ وكيف يمكنني أن أتوصل إلى إعطاء كل ذي حق حقه؟ إذن، لأكتفين بأن أعطي أصحاب الحق حقي الخاص.

وأخيراً، حاذروا ظلم المنفرد؛ إذ ليس بوسعه أن ينسى وأن يبادل الظالمين ظلما، وما المنفرد إلا بئر عميقة يسهل على من يشاء أن يلقي فيها حجراً، ولكن من يقدر أن يستخرج هذا الحجر إذا بلغ قعر البئر السحيق؟.

الطفل والزواج:

لي سؤال أخصك به لأسبر أعماق روحك يا أخي :أنت في مقتبل العمر وتتمنى أن يكون لك زوجة وولد، ولكن قل لي هل أنت الرجل الذي يحق له هذا التمني؟ أأنت الظافر المنتصر على نفسه، الحاكم على حواسه، السائد على فضائله؟ أم أن تمنيك هذا ليس إلا شهوة حيوان أو خشية منفرد أو اضطراب من قام النزاع بينه وبني نفسه؟.

إن ما أريده منك هو أن تتوق بانتصارك وحريتك إلى التجدد بالولد؛ إذ عليك أن تقيم الأنصاب إلى ما فوق مستواك، وهل بوسعك أن تفعل إذا لم تكن متني البنية من رأسك إلى أخمص قدميك؟.

ليس عليك أن ترسل سلالتك إلى الأمام فحسب، بل عليك خاصة أن ترفعها إلى ما فوق فليكن عملك في حقل الزواج منصبّا إلى هذه الغاية.

عليك أن توجد جسداً جوهره أنقى من جوهر جسدك؛ ليكون حركة أولى وعجلة تدور لنفسها على محورها، فواجبك إذن إنما هو إبداع من يبدع.

الزواج:

ما الزواج في عرفي إلا اتحاد إرادتين لإيجاد فرد يفوق من كانا علَّة وجوده، فالزواج حرمة متبادلة ترسو على احترام هذه الإرادة

ليكن هذا معنى زواجك وحقيقته، أما ما يدعوه الدخلاء الأغبياء زواجا فأمر أحار في تعريفه، فما هو إلا مسكنة روحية يتقاسمها اثنان، ودنس يتمرغ به اثنان، ولذة بائسة تتحكم في اثنين، ولكن الدخلاء يرون في مثل هذا الزواج رباطاً عقدته السماء.

وما أنا بالمرتضي بمثل هذه السماء، سماء الدخلاء أطبقت شباكها عليهم، تبِّا لها المثل هذا الإله الذي يتقدم متراجعا ليبارك اثنين لم يجمع هو بينهما.

لا يضحكنكم هذا الزواج، فكم من طفل من حقه أن يبكي على أبويه !رأيت رجلا وقور ا فحسبته بالغا من النضج ما يدرك به معنى الأرض، ولكنني رأيت امرأته بعد ذلك فلاحت لي الأرض كأنها مأوى المجانين، أود لو تميد الأرض بي عندما أرى رجلا فاضلا يتخذ له زوجة حمقاء.

من الناس من يتجرد كالأبطال سعيا وراء الحقائق، فلا يلبث حتى يصطاد رباطاً يدعوه زواجا ومنهم من اشتهر بحذره في علاقاته وبصرامته في اختياره، فإذا هومزيفً بين ليلة وضحاها قد أفسد حياته ووقف يدعو هذا الإفساد زواجا ومنهم أيضاً من كان يفتش عن خادمة لها فضائل الملائكة، فإذا هو ينقلب فجأة خادمًا لامرأة وقد حق عليه أن يتصف هو بالفضائل الملائكية.

فتشت في كل مكان فما رأيت إلا مشترين يقلبون السلع وعيونهم تتدفق مكرا، ولكنَّ أمكر هؤلاء الناس لا يتوصل في آخر الأمر إلا إلى ابتياع هرة يدسها في جلبابه.

إنما هو جنون يتتالى نوبة بعد نوبة حتى يجيء زواجكم خاتماً .

إن ما تدعونه عشقً هذه الحماقات بالحماقة المستقرة الكبرى ويا ليت حب الرجل للمرأة وحب المرأة للرجل يتبادله إلهان يتأملان، ولكن هذا الحب لا يتجلى في الغالب .

العناكب:

هذا هو العنكب، فإذا كنت ترغب في مشاهدته فالمس نسيجه ليتحرك ويسرع بالظهور،أهلا بك أيها العنكب، إنني أرى على ظهرك شعارًا أسود مثلث الزوايا، وما يخفى عني أيضًا ما تضمر من النقمة في سريرتك.
إن لسعاتك بقعًا فاحمة على الجلود، ولها سمها المضلل في النفوس، أيها العنكب،إنني أخاطبكم بالرموز، أيها العناكب المضللون المبشرون بالمساواة، فما أنتم في نظري إلا مستودع لعواطف الانتقام.
سأكشف عن مكانكم وأنا أواجهكم بقهقهة تسقط عليكم من الذري التي أتسنَّمها،وهأنذا أمزق نسيجكم حتى إذا تملككم الغضب خرجتم من مغاور أكاذيبكم، وتدفقت نقمتكم بكلمة العدل التي تتفوهون بها.

لقد وجب عليَّ أن أنقذ الإنسان من عاطفة الانتقام، وهذا الواجب هو المعبر المؤدي إلى أشرف الآمال ينتصب فوقه قوس قزح بعد هبوب العواصف الكاسحات ولكن إرادة العناكب لا تتجه إلى هذه الغاية، فهم يتناجون فيما بينهم قائلين :لا عدل إلا في عواصف انتقامنا تهبُّ على العالم لتلقي العار على كل من ليس منا.

وهم يقولون أيضًا :ما من فضيلة إلا في طلب المساواة، فلنرفع عقيرتنا ضد كل سلطان .آي كهَّان المساواة !لقد تسلط عليكم جنون عجزكم، فهتفتم بهذه المساواة وقد كمنت شهوة عتوكم واستبدادكم وراء ما تعلنون من الفضائل.

إنني أرى فيكم الغرور المتمرمر والحسد المقيم، ولعل الحسد الذي رعى قلوب أسلافكم يتعالى منكم الآن لهبًا يندلع بجنون الانتقام، وما الأبناء إلا مظهر ما أضمر الآباء،ولكَم أفشى الابن سرَّ أبيه!.

إن لهؤلاء الناس مظهر المتحمسين، وما تلهب حماسهم المحبة بل الانتقام، وإذا ما بدت لك منهم رصانة ومرونة، فما مصدرهما فيهم العقل بل الحسد المهيب بهم إلى التفكير، ودليل حسدهم هو أنهم يندفعون دائماً إلى أبعد من مراميهم؛ فيطرحهم العياء على وساد الثلوج.

وما تسمع لهؤلاء الناس أنينًا يخلو من نبرات الانتقام، فكل ما يصدر عنهم من مديح ينطوي على أذية، فهم يرون منتهي السعادة في إقامة أنفسهم قضاة على العالمين، فأصغوا إلى نصيحتي أيها الأصدقاء :احذروا من تغلَّبت عليهم غريزة إنزال العقاب؛ لأنهم متحدرون من أفسد الأنواع وعلى وجوههم سيماء الجلادين

احذروا من لا ينقطعون عن ذكر عدالتهم، فإن نفوسهم خالية من كل صفة حميدة،وإذا ما هم ادعوا الصلاح والإنصاف فلا تنسوا أنهم لم يتخذوا بين الفريسيين مقامهم إلا لما يشعرون به من عجز.

إنني أربأ بنفسي، أيها الصحاب، أن تنزلوها بين هؤلاء الناس فلا تميزون بيني وبينهم فهنالك من يذيعون تعاليمي عن الحياة، وهم في الوقت نفسه ينادون بالمساواة وينتمون إلى العناكب المسمومة، هم يدافعون عن الحياة ولكنهم يعرضون عنها قابعين في مغاورهم؛ ليتمكنوا من اجتراح الشرور والإيقاع بمن يقبضون على زمام السلطة في هذا الزمان، وقد تعودوا إنذارهم بالسقوط، ولو أن السلطة كانت في يد العناكب لكانت تعاليمهم تتخذ شكلًا آخر؛ لأنهم عرفوا فيما مضىأكثر مما عرف غيرهم؛ كيف يوقدونالمحارق ويرهقون مخالفيهم اضطهادًا وتعذيبًا .

أن لا مساواة بين : لا أريد أن أحُسب من هؤلاء المنادين بالمساواة لأن العدالة علمتني أنه من الواجب ألا يتساووا، وليس لي أن أقول بغير هذا المبدأ وإلا فإن محبتي الناس للإنسان تصبح ادعاءً ومينًا . على الناس أن يسيروا على آلاف الطرق وآلاف المعابر مسارعين نحو آتي الزمان، فتنشأ بينهم الحروب وتتسع شقة التفاوت بينهم ، ذلك ما ألهمني إياه حبي العميم.

يجب أن يقيم الناس في أعماق سرائرهم مُثلًاً عليا وأشباحاً يجاهدون في سبيلها، فيسير الصالح والطالح والغني والفقير والرفيع والوضيع إلى التصادم بجميع ما في الأرض من نظم؛ فتضطرم الحروب سلاحًا لسلاح ورمزًا لرمز، لأن على الحياة أن تتفوق أبدًا .

أعمق الساعات صمتا:

ماذا جرى لي يا أصحابي؟ لقد سادني الاضطراب؛ فأضعت هداي وأراني مندفعا بالرغم مني إلى الرحيل والابتعاد عنكم وا أسفاه.

أجل، على زارا أن يعود إلى عزلته، غير أن الدب يرجع إلى مغارته كئيبًا حزينًا، ماذا جرى لي ومن تُرى يضطرني إلى الرحيل؟

إنها هي مولاتي الغاضبة، لقد كلمتني فأعلنت لي إرادتها، وما كنت ذكرت لكم اسمها حتى اليوم، هي أعمق ساعاتي صمتًا وهي نفسها مولاتي القاهرة، كلمتني أمس.

وسأقص عليكم ما جرى فلا أخفي عنكم شيئًا؛ كيلا يقسو قلبكم عليَّ وأنا أفاجئكم برحيلي عنكم.

أتعلمون ما هي خشية من يستسلم للكرى؟ إنه الذعر يستولي على الإنسان من رأسه إلى أخمص قدميه؛ لأن أحلامه لا تبتدئ ما لم تنسحب الأرض من تحته.

إنني أضرب لكم أمثالا، فأصغوا إليَّ :أمس عند أعمق الساعات صمتًا خلت الأرض من تحتي وبدأت أحلامي.

وكان العقرب يدب على ساعة حياتي في خفقانها، وما كنت سمعت من قبل مثل هذا السكوت يسود حولي ويروع قلبي.

وسمعتها هي تقول لي، ولا صوت لها :إنك تعرف هذا يا زارا.

فصحت مذعورا عند سماعي هذه النجوى، وتصاعد الدم إلى رأسي.

فعادت هي تقول، ولا صوت لها :أنت تعرف هذا يا زارا، ولكنك لا تعلنه.

فانتفضت وأجبت بلهجة المتحدي :أجل إنني أعرف هذا، ولكنني لا أريد أن أعلن ما أعرف.

فقالت هي ولا صوت لها :أصحيح أنك لا تريد؟ لا تخف نفسك وراء هذا التحدي يا زارا.

صرح، ولكن هل ذلك بإمكاني؟ فأخذت أبكي وأرتعش كالطفل قائلا :ويلاه، أريد أن أعفيني من هذه المهمة لأنها تفوق طاقتي.

فقالت، ولا صوت لها :وما أهميتك أنت يا زارا، قل كلمتك وتحطم.

فقلت :أهي كلمتي ما يهم، فمن أكون أنا؟ إنني أنتظر من هو أجدر مني بإعلانها،وما أنا أهل لأصطدم بالمنتظر فأنحطم عليه.

فقالت، ولا صوت لها :وما أهميتك أنت ما دمت لم تصل بعد إلى ما أريده من الاتضاع؟ وما أقسى ما يتشح الاتضاع به، وما أصلب جلده!

فقلت لقد تحمل جلد اتضاعي كثيرًا، فأنا ساكن عند قاعدة ارتفاعي، ولم يدلني

أحد بعد على ذراه العاليات، ولكنني تمكنت من سبر أغواري ومعرفتها.

فقالت، ولا صوت لها :أي زارا، أنت المعد لنقل الجبال من مكان إلى مكان، أفماً بوسعك أن تنقل أغوارك ومهاويك أيضا؟

فقلت :لم تنقل كلمتي الجبال بعد، فإن ما قلته لم يبلغ حتى آذان الناس، لقد أتيت إلى العالم غير أنني لم أتصل به بعد.

فقالت، ولا صوت لها :وما يدريك... ؟ إن الندى يتساقط على العشب في أشد أوقات الليل سكوتًا.

فأجبت :لقد هزأ الناس بي عندما اكتشفت طريقي ومشيت عليها، والحق أن رجليَّ كانتا ترتجفان إذ ذاك، فقال لي الناس :لقد ضللت سبيلك يا زارا، بل أصبحت لا تعرف أن تنقل خطاك.

فقالت، ولا صوت لها :وأية أهمية لسخريتهم؟ لقد تخلَّصت من الطاعة يا زارا، فوجب عليك أن تأمر الآن، أفلا تعلم أن من يحتاج الجميع إليه بأكثر من احتياجهم إلى أي شيء إنما هو من يقضي في عظائم الأمور؟.

إن القيام بالكبائر صعب، وأصعب من هذا أن يأمر الإنسان بها .إن ذنبك الذي لا يغتفر هو أنك ذو سلطان ولا تريد أن تتحكم.

قلت :ليس لي صوت الأسد لأُصدر أوامري.

فقالت كأنها تهمس همسا :لا يثير العاصفة إلا الكلمات التي لا صوت لها إن من يدير العالم إنما هي الأفكار التي تنتشر كأنها محمولة على أجنحة الحمام .عليك أن تسير يا زارا كأنك شبح لما سيكون يوما في آتي الزمان، هكذا تندفع في سبيلك إلى الأمام وأنت تتولى الحكم.

فقلت :إن الخجل يتولاني .فعادت تقول، ولا صوت لها :عليك أن تعود طفلا فيذهب خجلك عنك .إن غرور الشباب لم يزل مستوليا عليك؛ لأنك بلغت الشباب متأخرا، ولكن على من يريد الرجوع إلى طفولته أن يتغلب على شبيبته.

واستغرقت في تفكيري وأنا أرتجف، ثم عدت إلى تكرار كلمتى الأولى وقال زارا لأحد أتباعه :منذ بدأت أعرف حقيقة الجسد لم تعد الروح روحاً في نظري إلا على أضيق مقياس، وهكذا صرت أرى كل ما لا يفنى رمزاً من الرموز.

فأجاب التابع قائلا : لقد قلت هذا من قبل يا زارا، ولكنك أضفت إليه قولك : وكثيرًا ما يكذب الشعراء فلماذا قلت هذا؟.

فقال زارا :أنت تسأل لماذا، وما أنا ممن يحق عليهم أن يُسألوا ما أنا ابن الأمس وقد ئيه، وهل أنا خزانة تذكارات لأحفظ الأسباب

مر زمان طويل على إدراكي أسباب ما التي بنيت عليها آرائي؟ إنما يكفيني عناء أن أحفظ هذه الآراء نفسها، أفليس في العالم عصافير تشرد من أماكنها، ولكم وجدت في قفصي من طير غريب يرتجف إذا ما أمررت عليه يدي، ومع ذلك فماذا قال لك زارا يوما؟ لقد قال إن الشعراء كثيرًا ما يكذبون، وهل كان زارا نفسه إلا واحدا من هؤلاء الشعراء؟ أفتحسب أنه بهذه الصفة قد أعلن الحق؟ وما الذي يُكِرهك على تصديقه؟.

فقال التابع :إنني مؤمن بزارا.

أما زارا فهز رأسه وابتسم قائلا :ليس الإيمان مما يرضيني حتى ولو كان هذا؛ الإيمان معقوداً عليَّ، ولكن إذا قال إنسان بكل جد :إن الشعراء يكذبون، فإنه ليقول حقا، ولا بد لنا من الكذب ما دام ما نجده من العلم قليلا ، ومن لأننا نحن الشعراء نكذب كثيرً من الشعراء بيننا لم يغش شرابه وفي سراديبنا ستقطر السوائل المسمومة؟ ولكم فيها من أمور يقصر عن وصفها البيان

إن افتقارنا في المعرفة يهيب بنا إلى محبة مساكين العقول، خاصة إلى محبة مسكينات العقول الفتيات فنحن نعود بشهواتنا إلى الأمور التي تتحدث عنها العجائز في السمر، ونقول إن ما نبحث فيه إنما هو قضية المرأة الأبدية.

يخيل لنا أن أمامنا طريقا سويّا يؤدي إلى المعرفة، وأن هذا الطريق لا ينكشف لمن يدركون الأمور بالعلم، فنحن لا نؤمن إلا بالشعب وبحكمته، فالشعراء جميعهم يعتقدون أن الجالس على منحدر جبل مقفر يتنصت إلى السكون يتوصل إلى معرفة ما يحدث بين الأرض والسماء، وإذا هم هزهم الشعور المرهف خيل لهم أن الطبيعة نفسها أصبحت مغرمة بهم؛ فيرونها تنحني على آذانهم لتلهمهم البيان الساحر والأسرار، فيقفون مباهين بإلهامهم أمام كل كائن يزول.

وا أسفاه !إن بين الأرض والسماء أمور كثيرة لا يحلم بها إلا الشعراء، وهنالك أمور أخرى كثيرة فوق السماء، فما جميع الآلهة إلا رموز أبدعها الشعراء.

والحق أننا منجذبون أبداً إلى العلياء، إلى مسارح الغيوم فنرسل إليها أكرا منفوخة ملونة ندعوها آلهة وبشراً متفوقين، والحق أنهم من الخفة على ما يجعلهم أهلا لاقتعاد مثل هذه العروش.

ويلاه !لكم تعبت من كل قاصر يطمح إلى جعل نفسه شيئً .

وما نطق زارا بهذا الكلام حتى ثارت نفس تابعه، ولكنه كظم غيظه فسكت وسكت زارا أيضاً وغيَّض نظره كأنه يستر أقاصي نفسه، ثم تنفس الصعداء وقال :أنا من الأمس ومن الزمن القديم ولكن فيَّ شيئًا من الغد وبعده ومن الآتي البعيد، فقد أتعبني الشعراء الأقدمون منهم والمجددون، فما هم في نظري إلا رغوة لا صريح تحتها، بل هم أسرة بحار جفت مياهها .إن أفكارهم لم تنفذ إلى الأغوار، وقد وقف شعورهم عند أول جُرفها، وخير ما ترى في تأملاتهم قليل من الشهوة وقليل من الضجر، فليست بحورهم إلا مجالات تنزلق على تفاعيلها الأشباح، فهم لم يدركوا شيئًا بعد من القوى الكامنة في النبرات .

لم يبلغ الشعراء درجة النقاء فهم يعكرون جداولهم؛ ليخدعوا الناس ويوهموهم أنها بعيدة الغور إنهم يريدون أن يقيموا أنفسهم موفِّقين بين مختلف المعتقدات غير أنهم لا يزالون رجال العمل الناقص السائرين على السبل المتوسطة الحائرة فهم يعكرون المياه بأقذارهم.

وا أسفاه لقد ألقيت شباكي في بحارهم آملا اصطياد خير الأسماك، ولكنني ما سحبت هذه الشباك مرة إلا وقد علق فيها رأس إله قديم، وهكذا كان يجود البحر بحجر على الجائع ولعل الشعراء أنفسهم خرجوا هم أيضا من البحر وفيهم ولا ريب بعض اللآلئ،فهم أشبه بنوع من المحار الممنع بأصدافه، ولكم وجدت في داخلهم بدل الروح شيئًا من الرغوة المالحة .

إن الشعراء يقتبسون من البحر غروره، وهل البحر إلا أشد الطواويس الشعراء غرورا؟ فهو حتى أمام أقبح الجواميس يدحرج أمواجه ويبسط أطالس مراوحه وأطراف وشاحه المفضض، فيحدجه الجاموس بنظرات الغيظ؛ لأن روحه المقتربة من الشاطئ لاتزال ملتصقة بمعلفه ومرعاه فما يبالي بالجمال وبالبحر وببهاء الطواويس .

هذا هو المثل ضر به للشعراء، والحق أن فكرهم لطاووس مغرور، بل هو بحر من الغرور، ففكر الشاعر يطلب من يشاهده حتى ولو كان المشاهد جاموساً .

لقد أتعبني هذا الفكر وسوف يأتي زمان يتعب فيه هذا الفكر من ذاته.

رأيت بعض الشعراء يتحولون عن الشعر، ويوجهون النقمة إلى ما كانوا عليه، ورأيت من يقدمون كفَارة للفكر، وما نشأ هؤلاء المكفِّرون عن الضلال إلا بين الشعراء.

الحادثات الجسام:

على مقربة من جزر زارا السعيدة، تقوم في البحر جزيرة فوقها بركان يقذف حَممه عليها بلا انقطاع، ويقول الشعب خاصة العجائز فيه :إن هذه الجزيرة منتصبة صخراً يسد باب الجحيم، غير أن هنالك منفذاً ضيقًا يخترق البركان وينتهي إلى هذا الباب

في ذلك الزمان، حني كان زارا يسكن جزره السعيدة ألقى مركب مرساته أمام الجزيرة التي يعلوها الجبل المشتعل، ونزل بحارته إلى البر ليقتنصوا بعض الأرانب، وما حان وقت الظهيرة واجتمع القبطان برجاله بعد أن لموا شعثهم حتى رأى هؤلاء الناس رجلا يخترق الفضاء بغتة إليهم ثم اقترب منهم وصاح بهم بصوت جلي قائلا :لقد حان الزمن، لقد اقترب كثيرًا.

ومر بهم الشبح مسرعاً وهو يتجه إلى البركان، فتميزوا به شخص زارا؛ لأنهم كانوا رأوه من قبل جميعهم ما عدا القبطان، وأحبوه كما يحب الشعب من يخشى.

فقال شيخ البحارة :هذا زارا يسير إلى الجحيم.

وفي الزمن الذي نزل فيه البحارة إلى جزيرة اللهب، كان شاع اختفاء زارا بين الناس وقال صحبه لمن سألوا عنه :إنه أبحر على مركب تحت جنح الظلام، ولم يعرف أحد الوجهة التي يقصدها.

هكذا ساد القلق من اختفاء زارا، وبعد ثلاثة أيام زاد هذا القلق بعد أن أخبر البحارة بما رأوا، وشاع بين الشعب أن إبليس قد اختطف زارا، ولكن صحب زارا لم يأبهوا لهذه الإشاعة بل ضحكوا منها وقالوا :إن ما نعتقده هو أن زارا قد اختطف الشيطان

غير أن اختفاء زارا كان يشغل بال صحبه، وما مضت خمسة أيام حتى عاد إليهمً فكان سرورهم عظيماً.

وهذا ما نقله زارا لهم عن حديثه مع كلب النار .

قال :إن للأرض جلداً ولهذا الجلد أمراضه، وأحد هذه الأمراض الإنسان وهنالك مرض آخر يُدعى كلب النار، وقد كان هذا الكلب السبب في تناقل الناس الأكاذيب وتصديقهم لها، وما اجتزت البحار إلا لأكشف هذا السر فرأيت الحقيقة عارية من أخمص قدميها حتى عنقها، فما تخفى عني الآن حقيقة كلب النار، وحقيقة جميع أبالسة التمرد والأقذار التي لا تتفرد العجائز بالذعر منها.

لقد هتفت قائلا : اخرج من أغوارك أيها الكلب الناري وقل لي كم هي عميقة أغوارك ومن أين تأتي بما تنفثه علينا؟ إنك تكرع من البحر بشراهة، وذلك ما تنم عليه مرارة الملح في ثرثرتك، والحق أنك وأنت كلب الأغوار لا تستمد غذاءك إلا من الأماكن السطحية، فما أنت إلا كالمتكلم من بطنه؛ لأنني في كل مرة سمعت فيها أقوال أبالسة التمرد والأقذارتبينتهم أشبه بك في دناءتك وأكاذيبك، لقد اتفقت أنت معهم على النباح، واتفقتم جميعكم على ذر الرماد ونشر الظلام، فأنتم أعظم المتفاخرين وتعرفون كيف تدفعون بالأوحال إلى الفوران، وحيث تكونون لا بد أن تحيط بكم الوحول

وكل ما هو إسفنجي مضغوط ضيق المسام، وما يطلب الانطلاق إلا من اتصف بهذه الصفات .والحرية هي الصرخة التي تفضلونها غير أنني فقدت إيماني بالحادثات الجسام منذ رأيت الصراخ والدخان يتعاليان حولها.

صدقني يا إبليس، الثورات الصاخبة الجهنمية ليست أعظم الحادثات في أكثرً ساعاتنا ضجيجا بل هي في أعمقها صمتًا، وما يدور حول موجدي الشعب الجديد بل هو يدور على محور موجدي النظم الجديدة.

لا بد لك أيها الشيطان من الإقرار بسخافة ما كانت تنقشع عنه قرقعتك وضباب دخانك، وهل من جسام الأمور أن تتحول مدينة إلى مومياء، وأن يتداعى عامود إلى الأوحال؟ وهذه كلمة أخرى أوجهها إلى هدامي الأعمدة : إن أقصى الجنون هو في إلقاء الملح إلى البحر وفي إسقاط الأعمدة إلى الوحول؛ لأن هذه الأعمدة كانت مطروحة على أوحال احتقاركم، وها هي ذي تنهض بسيماء الآلهة وقد انطبع عليها الألم الساحر، فهي والحق تدين لكم بالشكر؛ لأنكم أسقطتموها أيها الهادمون.

وهأنذا الآن أسدي النصح للملوك والكنائس، ولكل من أضعفته الفضيلة أو أهرمه الزمان فأقول :دع القوة تسقطك لتعود إلى الحياة فترجع الفضيلة إليك.

هكذا تكلمت أمام كلب النار، فقاطعني بهريره قائلاً الكنيسة، وما هي هذه الكنيسة؟ فقلت :إن الكنيسة شيء أشبه بالدولة، بل هي من أكذب أنواع الدول، ولكن صه أيها الكلب، فإنك أخبر بنوعك من أي كان .

إنما الدولة حيوان خبيث على شاكلتك؛ فهي تحب أن تتكلم فترسل بيانها دخانا وهريرا، لتخدع الناس وتجعلهم يعتقدون بأن أقوالها مستمدة من غور الأمور، فهي تريد أن تكون أعظم حيوان على وجه الأرض والعالم يراها على ما تريد.

وظهرت على وجه الكلب أفظع معاني الحسد فصاح :ماذا تقول؟ وهل يعتقد أحد أن الدولة هي أعظم حيوان على الأرض؟.

قال هذا وخرج من بين شدقيه إعصار من الدخان، وازداد هريره حتى حسبته مقتولا بغيظه، ولكنه ما لبث حتى استعاد السكون فقلت له :لقد تملكك الغيظ يا كلب النار، وذلك دليل على أنني أقول الحق عنك، وهأنذا استمر في إعلان الحقائق فأحدثك عن كلب آخر من أتباع النار وهذا الكلب يتكلم حقيقة من قلب الأرض، فلهاثه من ذهب، وما يحسب حسابًا للرماد والدخان والزبد الحار فإن حوله ترتفع قهقهة تنتشر كأنها سحاب يزهو بعديد ألوانه، وهو عدو هريرك وزبد شدقيك وما في أحشائك من الاختلال .

إن هذاالكلب يأخذ الذهب والضحك من قلب الأرض لأن قلب الأرض من ذهب، فاعلم هذا أنت.

وغلب الكلب على أمره عند سماعه هذه الكلمات؛ فأرخى ذيله خجلا وبدأ يعوي وهو يزحف زحفًا إلى مغارته.

هذا ما سرده زارا لأتباعه، ولكن أتباعه ما كانوا يبالون بما يقول وقد اشتد شوقهم إلى إخباره عما حدث للبحارة والرجل الطائر في الهواء.

و لما سمع زارا ما قصوه عليه قال :ماذا عساني أظن بما قلتم؟ أفأكون شبحا من الأشباح؟ ولعل ما رأوه لم يكن سوى خيالي، ولعلكم سمعتم حكاية المسافر وخياله، غيرأنه من الواجب عليَ أن أشد د النكير على خيالي فلا يذهب كما يشاء نائلا من شهرتي.

وهز زارا رأسه بتعجب متسائلا عما يقوله في هذا الحادث، وهو لا يدري لماذا هتف الخيال قائلا :لقد اقترب الزمان .

لا ريب في أن زارا لا يقصد بهذا الوصف إلا الدول القابضة على عنق الشعب بالحكم المطلق.

الفضيلة المصغرة:

١

ولما وطئ زارا اليابسة، لم يتجه توا إلى جبله وغاره، بل ذهب يضرب في الآفاق مستفسرا عن كل ما يرى فكان يقول عن نفسه :ما أنا إلا الجدول يتلوى على منعطفاته متجها إلى مصدره لا إلى مصبِّه، وما قصد زارا من تجواله إلا معرفة ما آلت إليه حالة الناسَّ أثناء غيابه، وهو لا يدري أتعاظم الإنسان أم تصاغر، وسار زارا حتى أدى به المطافَ إلى مسلسل من الأبنية الحديثة فوقف أمامها، وهو يعلن دهشته بقوله :إلام ترمز هذه خرجت المساكن؟ والحق أنها ليست من صنع روح جبارة تعلن ذاتها بما تصنع، ولعلها من حقيبة طفل، فيرجعها طفل آخر إلى مستودع الألاعيب.

أبوسع الرجال أن يدخلوا هذه الحجر ويخرجوا منها وهي كأنها معدة لصغيرات الدمى الرافلات بالحرير أو لصغار الهررة النهمة التي تحشر ذاتها لتفترس فتصبح فريسة.

وشخص زارا مليّا، ثم قال والحزن يهدج صوته :لقد أصبح كل شيء صغيرا، فإنني حيثما أوجه أنظاري لا أرى غير أبواب خفضت أرتاجها فإذا شاء أمثالي أن يجتازوها تحتَّم عليهم أن ينحنوا.

أيطول بي الزمان حتى أعود إلى وطني حيث لا أرغم على الانحناء أمام كل صغير.

قال هذا وأرسل نظراته تخترق الآفاق البعيدة وهو يدفع بزفرة الشوق لعميق.

وتمالك زارا نفسه فوقف يلقي خطابه عن الفضيلة المصغرة.

٢

أمر بهذا الشعب مفتحا عيني منتبها إلى نفسي، فإن رجاله لا يغتفرون لي إغضائي هن فضائلهم، وترفعى عن حسدهم عليها.

إنهم يلحقون بي نابحين؛ إذ أقول لهم لا يليق بصغار الناس إلا صغيرات الفضائل إنهم ينبحون إذ يقصر بي فهمي عن إدراك الفائدة من وجودهم في الحياة، وما أشبهني بديك غريب تثور الدجاجات عليه بمناقيرها، فلا أحقد عليها؛ لأنني تعودت على احتمال التافه من المزعجات، وما فوقت قط سهامي نحو أي صغير حقير فما ينتفش بريشه لأيةًّ حركة إلا القنافذ.

إن صغار الناس يتحدثون عني في سَمرهم دون أن يفتكر أحدهم بي، فتذهبً ضجتهم تحوك دثارا لتفكيري فأتمتع بنوع من السكون ما كنت أعرفه من قبل

إن واحدهم يقول لرفيقه :ما له ولنا، إنه الغمامة الربداء وقد تحمل بأهدابها وباءً كاسحا فلْنحذرها.

وقد رأيت أمس امرأة تجذب طفلها إليها لترده عن الاقتراب مني، شدت به وهيّ تصيح :أبعدوا الأولاد فإن هاتين العينين تحرقان روحهم الغضة.

إنهم يتكلَّفون السعال إذا ما تكلمت حاسبين أن سعالهم يقف بوجه العاصفات فريدها، وقد خشنت آذانهم فامتنع عليها أن تحس بنبرات السعادة في صوتي.

يقولون لا وقت نَقفُه على زارا، ولكن ما أهمية جيل لا يتسع وقته لزارا؟ وهب أن هؤلاء الناس جاءوا إليَّ لتمجيدي، فهل يسعني أن أستنيم إلى أمجادهم، ويلما تخلصت من آثارها حتى بعد وليس ثناؤهم عليَّ إلا منطقة أشواك لو لمست حقْ طرحها عني.

لقد تعلمت بين هؤلاء الناس حقيقة أخرى، وهي أن من يسدي الثناء يتظاهر بإعادة ذل له، وهو لا يرمي في الواقع إلا إلى الاستزادة لنفسه من المديح والإطراء.

مابسلوا قدمي ؛ هل غرهما مثل هذا التزلف؟ إن قدمي تمتنعان عن الأخذ بأي وزن مقيد حني يحلو لهما الرقص كما تشتهيان، إنهم يصورون فضائلهم الصغيرة بأروع بيان لاجتذابي إليها، كما ينقرون على دف سعادتهم الحقرية استفزازا لرجليَّ إلى الرقص

وأنا أمر بهؤلاء الناس مفتحا عيني منتبها إلى نفسي؛ لأنهم صغروا ولا يزالون يتصاغرون وما أوردهم هذا الصغار إلا ما اتخذوه قاعدة لسعادتهم وفضيلتهم؛ لأنهم طلبوا الراحةً في الفضيلة فحشدوها تواضعا، وهكذا تمرنوا على الإقدام كما يحلو لهم فمشوا متعارجين متماهلين، وأقاموا من زرافاتهم عقبة في سبيل من يقدمون على الإسراع في سيرهم.

إن من هؤلاء من يتجه إلى الأمام، ولكنه لا يفتأ يتطلع إلى الوراء متلعا عنقه معرقلا سير التابعين.

على الأعين وعلى الأرجل ألا تكذِّب ذاتها، وما أكثر الكذابين بني الوضعاء! ولقد يكون بين هؤلاء الناس من يريد ولكن أكثرهم منقاد تعمل إرادة غيره فيهً ولقد ترى بينهم مخلصا غير أن أكثرهم من حثالة الممثلين، فمنهم من يمثِّل دون أن يدري، ومنهم من يمثل دون أن يريد، وما أقل المخلصين من هؤلاء القوم خاصة بني فئة الممثلين منهم!هنا تسترجل النساء لقلة ما يتصف بالرجولة الرجال، وما يحرر المرأةَ من خلالها ليخلق فيها المرأة الحقيقية إلا من تكاملت الرجولةُ فيه.

الفضيلة الواهبة:

١

وبعد أن ودع زارا مدينةالبقرة الملونة التي شغف قلبه بها؛ شيعه عدد غفير ممن كانوا يدعون أنفسهم أتباعه حتى بلغوا إلى منعطف الطريق فقال زارا إنه يريد متابعة سيره وحده، فودعه أتباعه وقدموا إليه عصا قبضتها من ذهب بشكل أفعى ملتفة حول الشمس،فسرَّ زارا من هذه الهدية واتكأ على العصا قائلا لأتباعه :قولوا لي، لماذا أصبح الذهب ذا قيمة؟ أليس لأنه نادر ولا فائدة منه، ولأنه وديع في لمعانه، ويبذل نفسه في كل حين؟ لم يبلغ الذهب أسمى مراتب الأشياء القيمة إلا لأنه رمز لأسمى الفضائل، فعين الواهب براقة كالذهب، ووهج الذهب رسول سلام بين النيرين.

إن أسمى الفضائل نادرة ولا نفع منها، فهي تتوهج بنورها الهادئ، وليس بين الفضائل من يطاول فضيلة السخاء.

والحق أنني شاعر برغبتكم، أيها الصحاب، فإنكم تطمحون مثل طموحي إلى الفضيلة الواهبة، فأنتم تريدون أن تحولوا نفوسكم إلى هبات وعطايا، وإلا لكنتم أشبه بالهررة والذئاب، ولهذا تتعطشون إلى حشد جميع الكنوز لأنها ظامئة أبدا إلى العطاء

إنكم تجذبون كل ما حولكم ليتسرب إلى داخلكم فينفجر ينبوعكم بها كأنها هبة من محبتكم.

إن المحبة السخية الواهبة تستحيل إلى لص يمد يده إلى جمع الأشياء القيمة، وما أرى هذه الأنانية إلا عملا صالحاً مقدساً.

غير أن هنالك أنانية أخرى تدهورت إلى أدنى دركات المسكنة في مجاعتها المتحكمةً أبدا فيها، تلك هي الأنانية التي تطمح إلى السرقة في كل آن، فهي أنانية المرض بل هي الأنانية المريضة، تحدج كل شيء بنظرات اللص وبنهم الجائع، فتزن لقمات الآكلين من أبناء النعمة وتدب أبداً حول موائد الواهبين، وما مثل هذه الشهوة إلا عرض الداء الدفين .

ودليل الانحطاط الخفي، وما الطموح إلى السرقة بمثل هذه الأنانية إلا نزعة من نزعات الجسوم العليلة.

أي شيء نراه أقبح الأشياء، أيها الإخوة، أفليس الانحطاط أقبحها؟ وهل يسعكم إلا أن تحكموا بانحطاط مجتمع لا أثر لروح السخاء والعطاء فيه.

إن سبيلنا يتجه إلى الأعالي، وما نقصده إنما هو الارتقاء من نوع إلى نوع؛ لذلك نرتعش عندما نسمع الانحطاط يهتف قائلا :لي كل شيء.

وهل روحنا إلا رمز لجسدنا وهي تطمح إلى الاعتلاء، وهل الصفات التي ندعوها فضيلة إلا عبارة عن هذه الرموز عينها؟

إن الجسد يقطع مسافات التاريخ بكفاحه، ولكن ما تكون الروح من الجسد يا ترى إن لم تكن املذيع لكفاح الجسد وانتصاراته؟ ما الجسد إلا الصوت، وما الروح إلا الصدى الناجم عنه والتابع له .

ليست الكلمات الموضوعة للدلالة على الخير والشر سوى رموز فهي تشير إلى الأمور ولا تعبر عنها، ولا يطلب المعرفة فيها ومنها إلا المجانين.

انتبهوا، أيها الإخوة، إلى الزمن الذي يطمح فكركم فيه إلى البيان بالرموز؛ لأن في هذا الحين تتكون الفضيلة فيكم، وعندئذ يُبعث جسدكم ويتجه إلى الأعالي مجتذبًا عقلكم من سكونه؛ ليدفع به إلى مراحل الإبداع حتى إذا ما سار عليها عرف قيمة الأشاء وأحب فأجاد في كل أعماله.

في الزمن الذي يختلج فيه قلبكم تتكون فضيلتكم؛ لأن هذا القلب يفيض باختلاجه كالنهر العظيم فيغمر القائمين على ضفافه كما يهددهم بأشد الأخطار.

إنما تنشأ فضيلتكم عندما يعجز المدح والذم عن بلوغ شعوركم، فتطمح إرادة الرجولة فيكم إلى السيادة على كل شيء.

إنما تنشأ فضيلتكم عندما تحتقرون النَعم والفراش الوثير، وعندما لا تجدون راحةً إلا بعيدا عن مواطن الراحة.

إنما تنشأ فضيلتكم عندما تنصب إرادتكم على مقصد واحد، وعندما يصبح هذاالتحول في آلامكم ضرورة لا يسعكم التحول عنها.

أفليس هذا شكلا جديدا للخير والشر؟ أفما تسمعون بهذا القول خير الينبوع العميق الذي غربت مسالكه من قبل عنكم؟.

إنها لفضيلة جديدة تمنح الإنسان قوة وتبعث فيه عزما، هذه الفكرة المتحكمة فيٍ روح بلغت الحكمة؛ لأنها شمس مذهبة التفت عليها أفعى الحكمة.

٢

وصمت زارا مرسلا نظرات الحب إلى أتباعه، ثم ارتفع صوته بنبرات جديدة قائلا :أخلصوا للأرض، يا إخوتي، بكل قوى فضائلكم .لتكن محبتكم الواهبة ولتكن معرفتكم خادمتني لروح الأرض، إنني أطلب هذا متوسلا.

لا تدعوا فضيلتكم تنسلخ عن حقائق الأرض لتطير بأجنحتها ضاربة أسوار الأبدية، ولكم ضلت من فضيلة من قبل على هذا السبيل

أرجعوا الفضيلة الضالة كما رجعت بها أنا إلى مرتعها في الأرض.

عودوا بها إليَّ الجسد وإلى الحياة لتنفخ في الأرض روحها روحا بشرية.

لقد تاه العقل وتاهت الفضيلة فخدعتها آلاف الأمور، وملا يزل هذا الجنون يتسلط على جسدنا حتى أصبح جزءًا منه فتحول فيه إلى إرادة.

لقد قام العقل وقامت الفضيلة معه بتجارب عديدة فضلا على ألف سبيل، وهكذا أصبح الإنسان عبارة عن تجارب ومحاولات ألصقت بنا الجهل والضلال .

وليس ما استقر فينا من التجارب حكمة الأجيال فحسب، بل جنونها أيضاً، ولكم يتعرض الوارثون إلى أخطار.

إننا لم نزل نصارع جبار الصدف، ولم يزل العته سائداً على الإنسانية حتى اليوم.

ليكن عقلكم وفضيلتكم بمثابة روح للأرض وعقل لها، أيها الإخوة، فتتجدد بكم قيَم الأشياء جميعها، من أجل هذا وجب عليكم أن تبدعوا.

إن الجسد يطهر بالمعرفة، فريتفع بمرانه على العلم؛ لأن من يطلب الحكمة يطهرجميع غرائزه، ومن ارتقى فقد أدخل المسرة في نفسه.

أعن نفسك، أيها الطبيب، لتتمكن من إعانة مريضك، إن خير ما تبذله من معونة لهذا المريض هو أن يرى بعينه أنك قادر على شفاء نفسك.

إن في الأرض من السبل ما لم تطأها قدم بعد، فما أكثر مجاهلها وما أكثر خفاياها !اسهروا وانتبهوا أيها المنفردون؛ لأن من الستقبل تهب نسمات سرية حاملة بشائر لا تقرع إلا الآذان المرهفة.

إنكم في عزلة عن العالم، أيها المنفردون، ولكنكم ستصبحون شعبًا في آتي الزمانِ، ومنكم سيقوم الشعب المختار ؛ لأنكم اخترتم نفسكم اليوم، ومن هذا الشعب سيولد الإنسان المتفوق.

والحق أن الأرض ستصبح يوما مستشفى للأعلاء، فإن في نشرها عبيرا جديدا هو عبير الإخلاص والأمل الجديد.

٣

وسكت زارا كمن يقف عند كلمة تتلجلج في فمه، وبعد أن قلَب عصاه طويلا بين يديه، أطلق صوته وقد تغيرت نبراته فقال :سأذهب وحدي الآن، أيها الصحاب، وأنتم أيضا ستذهبون بعدي وحدكم لأنني هكذا أريد.

هذه نصيحتي إليكم؛ ابتعدوا عني وقفوا موقف الدفاع عن أنفسكم تجاهي، بل اذهبوا إلى أبعد من هذا؛ اخجلوا من انتسابكم إليَ فلقد أكون لكم خادعاً

على من يطلب الحكمة ألا يتعلم محبة أعدائه فحسب، بل عليه أيضا أن يتعلم بغضٍ تاما بفضل أستاذه إذا هو بقي أبدا له تلميذًا لماذا أصدقائه، وما يعترف التلميذ اعترافً لا تريدون أن تحطموا تاجي؟.

إنكم تحوطونني بالإجلال، ولكن ما هي الكارثة التي تتوقعونها من إعراضكم عنيً إن في رفع الأنصاب لخطرا فاحترسوا من أن يسقط عليكم التمثال المنصوب فيقضي عليكم.

تقولون إنكم تؤمنون بزارا، ولكن أية أهمية له؟ تقولون إنكم مؤمنون، ولكن ما أهمية جميع المؤمنين؟ ما كان أحد منهم فتش عن نفسه قبل أن والحق، يا إخوتي، إنني في ذلك الحين، سأفتش عن خرافي الضالة بعين أخرى فأبذل لكم حبًا غير هذا الحب.

سيأتي يوم تصيرون فيه أصحابًا لي إذا ما وحد بينكم الأمل الواحد، عندئذ سأرغب في الإقامة بينكم للمرة الثالثة للاحتفاء بأنوار الهاجرة العظمى.

وستبلغ الشمس الهاجرة عندما يصل الناس إلى منتصف طريقهم بني الحيوانوالإنسان االمتفوق، وعندما يرون أملهم الأسمى على منتهى السبيل الذي يقودهم إلى الفجر الجديد.

في ذلك الحين يتوارى من يسير إلى الجهة الثانية وهو يبارك نفسه؛ إذ ترتفع شمس معرفته لتتكبد الهاجرة

لقد مات جميع الآلهة، فلم يعد لنا من أمل إلا ظهور الإنسان المتفوق، فلتكن هذه إرادتنا الأخيرة عندما تبلغ الشمس الهاجرة.

على جبل الزيتون:

الزوابع أدفع بها إليهم، فلا يخطر لهم ببال أنني أمر أيضاً على الأمواج الحارة فأحمل منها لفحات ريح الجنوب.

إن هؤلاء الناس يشفقون عليَّ لما يطرأ لي من الحادثات ومن تصاريف الزمان، في حين أنني أهتف قائلاً دعوا الصدفة تأتي إليَ فإنها طاهرة كالأطفال.

أكان لهؤلاء الناس أن يطيقوا تمتعي بالسعادة لولا أنني لم أحط سعادتي بحادثات الشتاء ومصائبه، ولم أتدثر بالفراء وعباءة الشتاء؟.

إنني إن أشفقت لإشفاق هؤلاء المتأملين في كيدهم، وإن ارتجفت من البرد أمامهم،ورضيت بأن تدور رحمتهم بي فما ذلك إلا لحكمة مرحة في نفسي، لا تخفي ما يدور بهاً من عاصفات الشتاء ولا تستر ما ألم بها من قروح الصقيع.

إن بعض الناس يطلب العزلة بالهرب من المريض، والبعض الآخر يطلبها بالوقوف أمامه

لأدعهم يصغون إلى أنيني وشكايتي لصقيع الشتاء، إنني بمثل هذا الأنين أفزع من غرفهم الدافئة، فليشفقوا عليَّ وليقولوا إنني سأقضي بالصقيع في برد معرفتي أما أنا فأركض برجليَّ الدافئتين على جبل الزيتون، وأطلق صوتي بالإنشاد في مطارح شعاع الشمس هازئًا بكل إشفاق.

فقد تكون هذه المبالغات في الوصف، وهذه المغالات في الاستعارات المبهمة من محاسن البيان في اللغة الأملانية، غير أنها ليست على ما نرى من روح الأدب العام على بلاغة يستسيغها كل بيان، وعندنا أن اللغة العربية خير ما تختبر به عبقرية الكاتبين بكل لسان على الطريق وكان زارا وهو يقصد كهفه وجباله يمر بشعوب عديدة ومدن كثيرة متمهلا في رحلاته حتى وصل فجأة إلى مدينة عظيمة، وإذ دخلها انتصب بوجهه مجنون فاتحاً ذراعيه؛ ليصده عن التقدم والزبد يُرغي على شدقيه، وما كان هذا المعترض إلا من لقَّبه أهل المدينة بسعدان زارا؛ لأنه كان يقلد حركاته ولهجته ويستعير شيئًا من كنوز حكمته.

وخاطب المجنون زارا قائلاً :إن هنا المدينة العظمى، وما لك أن تظفر منها بشيء، بل عليك أن تفقد فيها كثيرًا.

ما الذي يضطرك إلي الانغماس في هذه الأوحال، فأشفق على قدميك، وقف عند بابها تافلاً عليه وعد أدراجك .صهر الأفكار السامية حتى تصبح مزيجا مائعاً

هنا جحيم كل فكرة فريدة، هنا تُهنا تتهرأ كل عاطفة شريفة، ولا يسمح إلا للعواطف الجافَّة بأن تعلن عن نفسها بخشيش اصطدامها.

أفما بلغت أنفك رائحة المجازر حيث تُنحر الأفكار ومطاعم السوقة حيث تباع بأبخس الأثمان، أفما ترى أبخرة العقول المضحاة تتصاعد منتشرة كالدخان فوق هذه المدينة.

أما تلوح لك الأرواح معلقة معروضة كأنها خرق قذرة بالية، فإذا هي تنقلب صحفً تنشر بين الناس أفلا تسمع البيان الطلي يستحيل هنا إلى تلاعب ألفاظ وسخائف تغص بها جداول الصحف، فإذا هي مصارف أقذار إن بعضهم يتحدى البعض الآخر، ولا يعلمون على ما يختلفون، يأخذ بهم الغيظ كل مأخذ وقد غاب عنهم سببه، فلا يسمعونك إلا طقطقة فلوسهم ورنين دنانريهم.

لقد استولى عليهم البرد فلا يدفئون إلا بكرع الخمور، وإذا ما دبت الحرارة فيهمً لجأوا إلى مهب الأفكار الباردة، فهم أبدا مسوقون بالرأي العام مأخوذون بدرجة غليانه.

هنا مقام جميع الرزائل والشهوات، وهنا أيضاً فضائل عديدة لها مهارتها ولها مشاغلها، ولتلك الفضائل الجمة أنامل للكتابة وأرداف من رصاص للمتحلني بها وسادات من الجلد علقت عليها الأنواط، ولهم أيضا بنات هزلت أردافهن فاصطنعن لهن من القش أردافًا

وإنك لتجد هنا كثيرًا من الإشفاق والاحتشام وكثيرًا من الاتضاع أمام رب الجيوش؛ لأن من مقامه الأعلى تتهاوى الكواكب ومعها النفثات، وكل صدر عاطل عن الكواكب يرسل نحو هذا المقام زفرات شوقه.

إن للقمر جوه وفي هذا الجو تدور أتباعه، والشعب المتسول لا يفترُّ مع الفضائل المتسولة يرفع الصلاة إلى كل ما يلتمع في مدار القمر، وما الصلاة إلا كلمات :خَدم، خدما، خدموا، نحن نخدم يترنَّم بها أهل الفضائل، وهم يتجهون إلى الحاكم الأعلى متوقعين سقوط الأنواط المتوهجة على صدورهم الضيقة، غير أن القمر نفسه يدور حول الأرض وما عليها من نتاج التراب، والحاكم أيضا يدور حول كل ما هو أرضي، وما من شيء أعرق في الأرض من ذهب بائعي السلع، إن رب الجيوش ليس ربًا للسبائك فإذا ما الحاكم دبَّر،جاء بائع السلع فقرر .أي زارا، أستحلفك بكل ما فيك من نور وقوة وصلاح أن تتفل على هذه المدينة، مدينة بائعي السلع وتكر راجعا إلى الوراء إن الذي يجري في عروق سكانها إنما هو دم مفسود، فاتْفُل على المدينة الكبرى؛ لأنها المزبلة التي تتراكم فيها الأقذار.

اتْفُل على مدينة النفوس الضعيفة والصدور الضيقة، مدينة العيون الحاسدة والأنامل اللزجة، مدينة الوقحين والفجار والمعربدين والطامعين اليائسين، المدينة التي يتكدس فيها من تأكلهم سوس الفساد من أهل الشهوات المضروبين بالقروح المتآمرين

ابصق على هذه المدينة وعد أدراجك.

ومد زارا يده مطبقاً فم المجنون المزبد في حدته قائلاً له :أما آن لك أن تصمت؟ لقد تحملت طويلاً حركاتك وأقوالك، ما الذي دعا بك إلى الإقامة على ضفاف هذا المستنقع حتى أصبحت أنت أيضاً ضفدعاً وعقربًا؟ أفما تسيل في عروقك أنت أيضاً دماء المستنقعات الفاسد؟ فها أنت تحسن النقيق وتجيد اللعن.

على الطريق:

لماذا لم تطفر إلى الغاب، لماذا لم تذهب لحرث الأرض؟ أفليس في كل جهة من البحرجزيرة خضراء؟ إنني أحتقر احتقارك، وقد كان عليك أن تبذل نصحك لنفسك قبل أن تجود به عليَّ، فإن احتقاري وهو الطائر النذير لن يتعالى من أقذار المستنقعات، بل يهب من مواطن الحب والأشواق.

لقد لقَّبوك بسعدان زارا، أيها المجنون المزبد، أما أنا فأدعوك خنزيري، ألا فانقطع عن هذا الخوار وإلا دفعت بي إلى استنكار ما مدحت به سكرات الجنون.

ما الذي يهيب بك إلى رفع هذه الأصوات المنكرة؟ إن الناس لم يوجهوا إليك ما كنت ، مفتشا فيها على ما تسلِّح تتوقع من ثناء؛ لذلك جلست إلى أكوام الأقذار مزمجرا صاخبًا به انتقامك، أتظن أن أمرك قد خفي عليَّ؟ وهل هذا الإزباد إلا من إرغاء الضغينة في قلبك؟ .

اصمت فإن كلماتك تلحق الضرر بي حتى ولو كمنت الحقيقة فيها، ولو انطوت ألف حقيقة في ما أقول؛ لأنك تسيء إليَّ بأقوالي نفسها.

جئت إلى المدينة متنهدا، ثم صرخ بعد صمت طويل :لقد كرهت هذه المدينة العظمى أنا أيضاً، وليس هذا المجنون من يثير كراهتي فحسب ! فهيً مثله وهو مثلها وليس فيهما ما يقبل إصلاحا أو زيادة فساد.

ويل لهذه المدينة العظمى، وليت تجتاحها أعاصير النار فتذريها رمادا؛ إذ لا بد من انطلاق مثل هذه الأعاصير منذرة بالظهيرة العظمى، ولكن انطلاقها مرهون بزمانها ومقدراتها.

أما أنت أيها المجنون، فإنني أستودعك بهذا التعليم :إذا امتنع على الإنسان أن يبذل حبه فعليه أن يذهب في سبيله!، وسار في سبيله متجاوزا المجنون والمدينة العظمى .

العودة:

كانت المداراة والرحمة أشد ما تعرضت له من أخطار، وكل كائن في البشر يطلب أن يتعامل بالمداراة والرحمة، وما عشت بين الناس إلا وأنا أحفظ حقائقي في قلبي وبداي وأحشائي ترتعش ارتعاش الجنون لأكاذيب الرحمة والإشفاق

هكذا عشت بين الناس، جلست بينهم متنكرا أكاد أجحد ذاتي؛ لأحتملهمْ بقولي إنني مجنون لا أدرك حقيقتهم.

إذا أنت عاشرت الناس فإنك لتنسى ما تعرفه عنهم؛ لأن ما ينطح بصرك من المشاهد الخارجية يصده عن سبر أبعادهم وأعماقهم.

لقد جهلوا حقيقتي فدفعني جنوني إلى مداراتهم بأكثر من مداراة نفسي؛ لأنني

تعودت أن أقسو عليها فأصبحت هذه المراعاة انتقاما منها لها.

جلست بين الناس تلذعني حشراتهم السامة، وتنال مني شرورهم نوال قطرات الماء المتوالية الانسكاب على الحجر، فكنت أقول لنفسي :إن الحقارة تحمل براءتها في ذاتها.

وما رأيت بين الناس حشرات أشد فتكا بسمومها من الصالحني؛ لأنهم يغرزون حماتهم بكل صلاح، ويكذبون بكل صلاح فكيف أتوقع منهم عدلا وإنصافًا.

إن الرحمة تعلم الكذبم لمن يعيش بين أهل الصلاح، وهي تضغط بجوها الثقيل على الأرواح الحرة؛ إذ يُمنع عنها أن تتفهم جهل الصالحين.

إن ما تعلمته هنالك هو أن أستر نفسي وأخفي ثروتي؛ لأنني رأيت كل غني بين الناس فقيرًا بعقله، وقد أضلني إشفاقي فقادني إلى النظر في الخفايا وتقدير ما زاد وما نقص في عقل هذا وعقل ذاك، دعوت الحكماء المتعصبين حكماء ولم أزد، فتعلمت أن أقتضب كما تعلمت استبدال الكلمات فدعوت حفاري القبور منقِّبين وعلماء.

مارون بالأمراض، ففي المثاوي ما ينبعث كريهاً قاتلاً، وخير ألا نُثير ولطالما مني الحفَّ من المستنقعات كوامنها، وما الحياة إلا على القمم، وها أنذا أنشق الهواء الطلق على أعالي الجبل حيث لا أشتم روائح المجتمع الإنساني.

إن الهواء الحي يدغدغ معاطسي فتتسع لاستنشاق القوة والحياة.

الشرور الثلاثة:

ورأيت في آخر أحلامي هذا الصباح أنني واقف على جرف ينهار إلى ما وراء هذا العالم،وقد نصبت بيدي ميزانًا طرحت الدنيا بإحدى كفتيه.

أواه !ليت الفجر لم يباغتني بعنفه، فإنه لغيور عليَّ من أحلام صباحي وعنف أشباحها.

لقد أراني حلمي أن لمن ملك الزمان أن يقيس الدنيا، ولمن أحسن الوزن أن يِزنها، ولمن له جناحان جباران أن يجتاز مداها، وكل بصيرة جديدة تقتحم المعضلات بوسعها أن تدرك ما تضمر هذه الدنيا.

الروح الثقيل:

١

ليس فمي إلا فم الشعب، فكلماتي قاسية تخدش أسماع المتأنقين، وهي أشد وطأةً على أسماع زعانف الكتاب المسلحين بالأقلام.

ما يدي إلا يد مجنون، فويل منها لألواح الشرائع ومنيعات الحصون، وويل لكل ما يتسع لزخارف الجنون وغرائب سطوره.

وما قدمي إلا حافرا جواد يتراكضان على الأنجاد وفي الأغوار، فأحس بروح أبليس ينفخها المرح فيَّ وأنا أنهب أشواطي.

أما معدتي فلعلَّها حوصلة عقاب؛ لأن أفضل ما تشتهيه لحوم النعاج، وإن لم تكن حوصلة عقاب فهي على كل حوصلة مجنَّح من أبناء الفضاء؛ لأنني أتغذَّى من كل طاهر لذيذ فأتوق أبدا إلى الاختطاف والانخطاف، وكيف لا يكون فيَّ شيء من الطير وأنا أهفوإلى هذه الحياة.

كفاني أن أعادي كل روح ثقيل لأكون شبيها بالطيور، فأنا العدو الألد لروح الكثافةً بل العدو المقسم ألا يحول عن كرهه وقد تكون معه في رحم أمه، فتلك العداوة لن تطير ولن تتبدد.

انطلق صوتي بالإنشاد مترنما بهذه المعاني بالرغم من انفرادي في مسكني المقفر حيث لا يسمع أغاني غير أذناي.

لكم في الأرض من منشد لا ينطلق الصوت الشجي من حنجرته، ولا تطابق التوقيع حركة يده ولا تشع عيناه ولا ينتبه قلبه إلا إذا غص البيت بالسامعين، وما أنا من أمثال هذا المنشد.

٢

إن من سيعلِّم الطبران للناس في آتي الزمان سيدفع كل ما ضرب حولهم من حدود، بل يدل على زوال كثافتها وثقلها.

سيذري معاملها هباء ويبدل اسم الأرض باسم إن النعامة تعدو بأسرع ما تعدو الخيول الضوامر غير أنها لا تزال كالإنسان تغرس رأسها الثقيل في التراب الثقيل، وما الإنسان بأفضل منها ما زال يجهل كيف يطير، ومازال يشعر أن الحياة ثقيلة كالأرض.

من يريد أن يشعر من نفسه بخفة الطير فعليه أن يتوسل بالأنانية للانعتاق من كثافته، ليحب الإنسان نفسه هذا ما أعلم به أنا

وما أدعو الناس إلى إثارة حب الذات بعاطفة المرضى والمحمومين، فإن رائحة السقام تنبعث من أنانية المريض والمحموم.

تعلَّموا الأنانية الصحيحة السليمة؛ لتتمكنوا من احتمال ذاتكم فلا تضلكم أنانيتكم هذا هو تعليمي.

وما ضلال الأنانية إلا بذهابها إلى محبة الغير القائلين بالغيرية قد أتوا بأمهر تمويه، وما أرهق الغير أحد بمثل إرهاقهم.

ليس القول بوجوب التمرن على الأنانية وصيةً من الوصايا تُنفَّذ بني عشية وضحاها،فالتدرب على محبة الذات أدق الفنون وأصعبها، وما يملك زمامه إلا المتحيل الجلود؛ لأنَّ روح الكثافة يجعل المالك في غفلة عما يملك ويعمي صاحب الكنوز طويلا عن مثاويها، جهز بالكلمتين الثقيلتين :الخير والشر ذلك فإننا لا نكاد نُطرح على السرير حتى نُهو ميراثنا، بل تلك هي الوصية التي لا تُغتفر لنا الحياة إلا باتباعها، وإذا ما قال قائل:دعوا الأولاد يأتون إليَّ، فما يدعوهم إلا ليمنعهم في الزمن المناسب من أن يحبوا ذاتهم .

تلك هي مآتي الروح الثقيل.

أما نحن، فنذهب ساحبين ما أثقلت به كواهلنا الصلبة إلى الجبال الجرداء، حتى إذا شكونا اللغب والسَغب قيل لنا :أنتم محقون بشكواكم فالحياة أعباء وأثقال

والحق ليس في الحياة من أعباء على الإنسان غير الإنسان نفسه؛ لأنه يوقر كاهله بما ُثقل بأشد الأحمال، وأكثرً لا طائل تحته، فهو نفسه قد استناخ كالجمل مسلما ظهره،استسلام الرجل الصلب الجلود يرفع على كاهله جملا من الكلمات والوصايا الثقيلة فتنبسط الدنيا أمامه صحراء قاحلة مترامية الأطراف.

المسافر:

وكان قد انتصف الليل عندما توجه زارا إلى أكمة الجزيرة، وهو يجد في السير ليبلغ الشاطئ الآخر عند بزوغ الفجر؛ إذ كان يقصد الإبحار من هذه الجهة حيث ترسو بعض المراكب لتقل الطلاب المهاجرة من الجزر السعيدة.

وتذكر زارا الرحلات التي قام بها منفرداً منذ صباه، فمرت بمخيلته رسوم الجبالّ والتلال والذرى التي تسلقها في حياته، فقال :ما أنا إلا رحالة ومتسلق مرتفعات، ومِاّدر عليَّ ومهما وقع لي فلا تعدو تستهويني منبسطات الأرض ولا يستقر بي مقام، ومهما الحوادث أن تكون في نظير رحلة واعتلاء، فما لي أن أرى من الآفاق إلا ما انطبع منها في نفسي، ولقد مضى الزمن الذي كان لي فيه أن أتوقع الحوادث من خطرات الحظ، وهل لي أن أنال من الدهر شيئًا لم يستقر في نفسي من قبل؟ .

إن كل ما يطرأ عليَّ بعد الآن إنما هو ذاتي العائدة تكرارا بعد انفراطها وتمازجها في الأشياء وتصاريف الزمان غير أنني أصبحت الآن على مدرج آخر الذرى أمام أصعب مسلك ما قتحمت مثله في حياتي، فأنا أبدأ الآن أشد رحلاتي عناء وأروعها وحشة.

وأنَّى لمثلي أن يتجنَّب مثل هذه الساعة التي تهتف قائلة :إنك على مبدأ طريق المجد حيث تتداخل الذرى في المهاوي أنت تسير على هذه الطريق، وكنت تراها قبلا آخر ما تقتحم من أخطار، فأصبحت لديك آخر ملجأ تهرع إليه.

إنك تسير على طريق المجد فعليك أن تتذرع بالحزم الأوفى؛ لتقطع بنفسك خط الرجوع على نفسك.

إنك تسير على طريق المجد، فأنت منفرد عليها لا يزحمك أحد من ورائك، وقد محت أقدامك آثار خطاك على ما وراءك من المسالك، ولاحت كلمة المستحيل مخطوطة على آفاق هذه الطريق.

ولا بد لك إذا ما خلت المدارج تحت أقدامك أن تتسلق قمة رأسك؛ إذ لا سبيل لك للاعتلاء إلا إذا اتجهت إليه وإلى ما وراءه وأنت تدوس على قلبك، وهكذا سيُشقيك ما كان يحلو لديك.

إن من أفرط في ادخار جهوده لا يلبث حتى يبتلى بالخمول، تبارك كل جهد يشد العزم، فلا خير في أرض تدر اللبن والعسل، ومن يطمح إلى الإحاطة بأمور كثيرة فليتدرب على إرسال أبصاره إلى ما وراء حدود ذاته، وعلى كل متسلق للذرى أن يتعزز بمثل هذا الحزم؛ إذ لا يسع من يتحرى الأمور متجسساً بفضوله إلا الوقوف عند أسهل الأفكارً منالا، وأنت يا زارا تطمح إلى الإحاطة بالعلل وإلى نفوذ خفايا الأمور، فعليك أن تحلق فوق ذاتك فتجتازها متعالياً حتى ترى ما فيك من كواكب وهي تتصاغر في كل أفق دون أفقك الرفيع.

أجل إن ذروتي إنما هي حيث أقف ناظراً إلى الأعماق فأرى فيها ذاتي وكواكبها، تلك هي آخر هضبة أطمح إلى بلوغ قمتها.

بهذا كان يناجي زارا نفسه، وهو يصعد المرتفع معللا بالتعاليم الصارمة ما في قلبه من جراح.

وعندما بلغ الذروة انبسط البحر أمام ناظريه، فوقف مبهوتًا واستغرق في صمت ، وكانت السماء لا تزال تتألق بالنجوم والهواء يهب بارداً على الأكمة.

سأنحدر إليك أيها البحر المظلم المنبسط عند أقدامي، أنت الليالي المفعمة بالأحزانِ، أنت القضاء والقدر أيها الخضم البعيد.

إنني أقصد أرفع جبالي مقتحما أبعد أسفاري فعليَّ إذن أن أهبط إلى مهاو أبعد في أغوارها من كل ذروة رقيتها حتى الآن.

عليَّ أن أذهب من الأسى إلى أغوار ما رسبت في مثلها من قبل فأصل إلى قرارة ما في هبة اقتحامه.

الأحزان من ظلمات ذلك ما قُدر عليَّ لقد تساءلت فيما مضى عن منشأ الجبال فعرفت أخيراً أنها نهدت من البحار، كما تشهد صخورها وجروف ذرواتها، فما يبلغ الأعلى مقامه إلا لانطلاقه من المقام الأدنى.

هكذا تكلم زارا، وهو ماثل على قمة الجبل تدور به لفحات الصقيع، ولكنه ما بلغَّ الشاطئ ووقف بين نتوءات صخوره حتى حل عليه التعب وتزايدت أشواقه، فقال :إنَّ البحر هاجع أيضا فعينه الوْسنى تحدجني بلفتات غريبة وأنفاسه الحرى تهب عليَّ .

إنه مستغرق في أحلامه يتقلب مضطربًا على جافيات مسانده، إنني أستمع لهديره كأنه يئن بتذكارات مفجعات، وقد يكون هذا الهدير نذيرا بالشؤم في آتي الزمان.

إنني أشاطرك الأسى أيها المدى المظلم الوسيع، فأنا بسببك ناقم على نفسي أتمنى لو طالت يدي فأنقذك من أصفاد أحلامك

وانتبه زارا، فإذا هو يضحك ساخرا من ذاته فتمرمر وتساءل عما إذا كان سيبلغ به حماسه إلى إطلاق إنشاده لتعزية البحار، وعما إذا كان سيستمر مضعضعا في سكرة غرامه واستسلامه فقال لقد عرفتك في كل زمان يا زارا تقتحم الأمور الخطيرة بلا تكلفة وبلا مبالاة، وقد رأيتك طوال حياتك تدغدغ الوحوش المفترسة، فكان يكفيك منها أنَّ تهتاج حبك بأنفاسها الحرى وبنعومة مخالبها لتجذبك إليها.

ليس من خطر أعظم من الحب يحدق بالمستغرق في عزلته، فإن النفرد يحب كل شيء يتنسم فيه الحياة، وما أعجب جنوني بالحب وتساهلي فيه وقد عاد إلى الهزء بنفسه، غير أنه تذكر من هجر من خلانه، فخيل إليه أنه يُسيء إليهم بتفكيره فيهم، فنقم على نفسه وانقلب من ضحكه إلى البكاء، فسالت دموعه مريرة يتمازج فيها الغضب والشوق.

الرؤى والألغاز:

١

وعندما تناقل البحارة خبر وجود زارا بينهم وكان بلغهم ذلك من رجل دخل السفينة معه قادماً من الجزر السعيدة ساد الجميع شيء من القلق وباتوا يتوقعون حدثاً في وجوده، غير أن زارا بقي يومين جامداً تساوره أحزانه، تحدق فيه الأنظار فلا يلتفت، وتوجه إليه الأسئلة فلا يجيب

وأخيرا أصغى لما يقال حوله متوقعا سماع أبحاث لها خطورتها تدور على هذه السفينة القادمة من بعيد والمتجهة إلى أماكن سحيقة، وما كان زارا لينفر من الأسفار البعيدة ومن الأخطار، وبعد أن أصغى طويلا حلَّت عقدة لسانه.

فانطلق يقول :إليكم أيها الشذاذ الجريئون أيّا كنتم، أيها المستسلمون للشراع الغدار على هائجات الأمواج.

إليكم أيها الثملون بخمرة الأسرار، المنجذبون بين خيوط الظلمات والأنوار إلى نغمات لمس طريقكم بيد مرتجفة على ما كل شبَّابة تنوح في المجاهل الخفية، إنكم تنفرون من تَتُصب من دليلات الحبال؛ إذ تفضلون الإدراك بالحس على الإدراك بالاستقراء.

إليكم دون سواكم أوجه الخطاب لأُخِبربما تجلى من ألغاز وبما خطر من رؤى لأشد الناس استغراقًاَ في عزلته.

لقد اجتزت الغسق في أشد فتراته وجوماً، اقتحمته وقد تقلصت شفتاي وعلا وجهي الاغبرار، وكنت شاهدت من قبل شموسا كثيرة تجنح إلى الغروب.

رأيت أمامي طريقًا يتسلل على جروف المرتفعات، طريقٌ وعرا تعرى جانباه من كل نبات فدفعت عليه أقدامي أتحداه فأسمع صريف حصاه تحتها.

مشيت صامتًا أحاول تثبيت الحصى المتطايرة بخطواتي؛ لأنجو من الانزلاق عليها

واعتليت فإذا بروح الكثافة وهو عدوي الألد يشد بي إلى الأعماق، واعتليت أيضا كالقزم من الناس والخلْد من سكان الأوجار يسكب في أذني فإذا بهذا الروح المطبق عليَّ :أي زارا، أيها الحجر ودماغي كلمات ثقيلة كالرصاص، فسمعته يقول لي متمهلا هازئً المدعي الحكمة، لقد رشقت نفسك إلى ما فوق، ولكن أي حجر ارتفع ولم يسقط عائدا إلى مصدره؟

أي زارا أيها الحجر الحكيم المنقذف إلى العلا ليزعزع الكواكب في مدارها ما أنت إلاً القاذف والمقذوف معا، فلا بد لك من السقوط ككل حجر يُرشق إلى ما فوق لقد حكمت بالرجم فكان حكمك به على نفسك، وهذا الحجر الذي فوقته سيرجع ساقطاً عليك.

وسكت القزم طويلاً حتى ضاقت من سكوته أنفاسي، فالرفيق الصامت يشعرك بوحشة الانفراد أكثر مما تشعر بها وأنت وحدك لا رفيق لك.

وارتقيت أيضاً وأنا تائه في تفكيري وأحلامي شاعر بتزايد الضيق في صدري كأنني عليل نبهته أضغاث أحلامه فاستفاق ليشعر بأوجاعه.

غير أنني أعهد بنفسي قوة أسميها شجاعة، وهي القوة التي أرغمت بها كل وهن في نفسي، بهذه الشجاعة تذرعت فصحت بالقزم قائلا : إن واحداً منا يجب عليه أن يتوارى.

ما من قاتل كالشجاعة التي تهاجم، وما من فيلق يتقدم إلا وفي طليعته الأنغام الحاديات.

إن أوفر الحيوانات شجاعة إنما هو الإنسان الذي قهر بشجاعته سائر الحيوانات،وتغلَّب على جميع الأوجاع ماشيًا وراء حاديات الأنغام بالرغم من أن أوجاع الإنسان أشد ما في الكون من أوجاع.

وللشجاعة أيضاً فضيلة ردع الدوار المستولي على الرءوس حني تحدق في الأعماق،وما من موقف للإنسان لا هاوية تحته وما عليه إلا أن يحدق لريى المهاوي من أي موقف في مواقفه.

إن الشجاعة خير ما يقتل فإنها تقتل الإشفاق أيضا، وما من هاوية أبعد قراراً من الإشفاق؛ لأن نظر الإنسان ليذهب وهو يسبر الآلام إلى أقصى مدى يبلغه عند سبره الحياة نفسها.

إن خير ما يقتل إنما هي الشجاعة إذا هاجمت؛ لأنها ستتوصل أخيراً إلى قتل الموت نفسه؛ لأنها تقول في ذاتها يا للعجب !أهذا ما كانت الحياة؟ إذن لأرجعن إليها مرة أخرى إن في مثل هذه العقيدة أشدحداء يدفع إلى الإقدام، من له أذنان سامعتان فليسمع.

الرؤى والألغاز:

٢

واستوقفت القزم قائلا :يجب أن يبقى أحدنا ويفنى الآخر إنني أنا الأقوى؛ لأنك لا تدرك ذلك باحتمالها فارتمى القزم عن كتفي فخف أعمق أفكاري، وما أعمقها إلا فكرة ، فإذا بهذا القزم يجلس القرفصاء على حجر أمامي، وإذا نحن تجاه باب كأنه وجد صدفة هناك فقلت لرفيقي :انظر إلى هذا الباب فإن له واجهتين، وهنا ملتقى مسلكين لم يبلغ إنسان أقصاهما؛ أحدهما منحدر يمتد إلى أبدية، والآخر مرتفع يمتد إلى أبدية أخرىُ؛ والمسلكان يتعارضان متقاطعين عند هذا الباب، وقد كتب اسمه على رتاج واحد الحين.

فقلت :أتعتقد أيها القزم أن من يتوغل في أحد هذين المسلكين يبقى معتقدا بأن اتجاه أحدهما معارض لاتجاه الآخر؟

فقال القزم بازدراء :إن كل اتجاه على خط مستقيم إنما هو اتجاه مكذوب فالحقيقة منحرفة؛ لأن الزمان نفسه خط مستدير أوله آخره.

فأجبته قائلاً :لا تستخف بالأمر أيها الروح الكثيف، وإلا غادرتك فتعطب رجلك حيث أنت، ولا تنس أنني أنا حملتك إلى الأعالي تفكر في الحين الذي نحن فيه الآن، فإن من بابه يمتد سلك أبدي لا نهاية له متراجعاً إلى الوراء، فإن وراءنا أبدية يا هذا

أفما كان لزاما على كل شيء معزز بمعرفة السير أن يجتاز هذا المسلك فيما مضى؟ .

أفما تحتم على كل شيء له طاقة الوصول أن يكون قد وصل فيما مضى فأتم سيره وعبر؟.

وإذا كان كل موجود الآن قد وجد من قبل فما هو اعتقادك في هذا الحين؟ أفما كان لهذا الباب وجود سابق؟.

أفما ترى الأشياء كلها متداخلة، وإن هذا الحين يجر وراءه كل ما سيكون، بل يجر نفسه أيضاً؟.

أفما يتحتم والحالة هذه على كل معزز بقوة السير أن يندفع مرة أخرى على هذا المسلك المتجه إلى ما فوق؟ انظر إلى هذه العنكبة التي تدب على مهل تحت شعاع القمر !انظر إلى شعاع القمر نفسه وإلى ذاتي وذاتك مجتمعتين تحت هذا الباب تتهامسان بأسرار الأبد !.

أفما تعتقد أنه لا بد أن نكون وقفنا جميعاً من قبل في هذا المكان؟.

أفليس علينا أن نعود لنندفع تكراراً على المسلك الآخر الذاهب أمامنا متصاعداً مستطيلا مروعا؟ أفما لزم علينا أن نعود تكرارا وأبدا؟.

هكذا كنت أتكلم بصوت يتزايد انخفاضه، وقد أرعبتني أفكاري وما كمن وراء أفكاري، فإذا بي أسمع فجأة نباح كلب على مقربة منا.

خيِّل إليَّ أنني سمعت مثل هذا النباح من قبل، ورجعت بتذكاري إلى الماضي فإذا هويسمعني هذا النباح في أبعد أيام طفولتي، ويمثل لي مثل هذا الكلب الذي أراه الآن وقد وقف شعره، ومد رقبته مرتجفا في أشد الليالي سكونا حيث يتراءى للكلاب أيضاً أن في العالم أشباحاً.

ونبَّه نباح الكلب إشفاقي؛ إذ تذكرت أنه عندما عوى منذ هنيهة كان القمر يطل من وراء البيت صامتًا كالموت، ومنذ هنيهة كان هذا القمر يستقر فوق السطح كقرص ملتهب يراود ما ليس له، وذلك ما أثار غضب الكلب؛ لأن الكلاب تؤمن بالسارقين والأشباح.

عندما سمعت هذا النباح للمرة الثانية عاودني الإشفاق تكرارا.

أين توارى القزم الآن ومعه الباب والعنكبة وأحاديث المناجاة؟ أكنت في حلم فاستفقت، فأنا الآن وحيد بين جرداء الصخور لا سمير لي غير شعاع القمر المنفردفي السماء.

لكنني رأيت رجلاً مسجى على الأرض، وكان الكلب يقفز وقد اقشعر جلده وهوً يهدر هديراً، وإذ رآني قادماً نحوه بدأ بالنباح فتساءلت عما إذا كنت سمعت من قبل كلبًا ينبح بمثل هذا الصراخ المستغيث

والحق أن ما رأيت في ذلك المكان ما كنت رأيت مثله؛ لأنني شاهدت أمامي راعيًا فتيا ينتفض محتضراً، وقد ارتسم الروع على وجهه وتدلت من فمه أفعى حالكة السواد،فتساءلت عما إذا كنت رأيت قبل الآن مثل هذا الاشمئزاز والشحوب على وجه من الوجوه، لعل هذا الراعي كان يغط في رقاده عندما انسلت الأفعى إلى حلقه وانشبكت فيه.

وبدأت أسحب الأفعى بيدي، ولكنني شددت عبثًا، فسمعت من داخلي صوتًا يهيبً بالراعي قائلاً : عض عليها بأسنانك ولا تن حتى تقطع رأسها، وهكذا سمعت بهذا الهتاف أصوات رعبي واشمئزازي وضغينتي وإشفاقي كأنها صوت واحد يتعالى مني.

فيا أيها الشجعان المحيطون بي، أيها الشذاذ المكتشفون، يا من تقتحمون مجاهل البحار مستسلمين للشراع الغدار، وأنتم تسرون بالمعميات والألغاز، عبروا رؤى المنفرد وحلوا ما رأى من معميات وقد كمن فيها ما كان وما سيكون.

أي هذه الرموز يدل على ما فات وأيها يدل على ما هو آت؟

من هو الراعي الذي اندست الأفعى في فمه؟ ومن هو الإنسان الذي سيصاب بمثل هذه الداهية الدهماء؟

الرؤى والألغاز:

٣

على أن الراعي بدأ يشد بأسنانه منفذًا ما أشرت به، وما لبث أن تَفَل الأفعى إلى بعيد، ثم انتفض ووقف على قدميه.

وتبدلت هيئة الراعي فلم يعد راعيًا حتى ولا إنسانًا؛ إذ جلله الإشعاع وضحك ضحكة ما سمعت حياتي مثلها.

لقد سمعت يا إخواني ضحكة ليست من عالم الإنسان، ولم أزل منذ ذلك الحين أحترق بشهوة لا أجد ما يطفئها إن شهوة هذه الضحكة تنهش أحشائي فكيف أرضى الموت بعد الآن .

الغبطة القاسرة:

١

وسار زارا يقطع أبعاد البحر تساوره مثل هذه الهموم، وتدور به مثل هذه الأسرار ،حتى إذا تخطى مجال أربعة أيام عن الجزر السعيدة وما ترك عليها من صحبه، اشتدت عزيمته فتغلب على آلامه، وثبت قدميه في موقفه متجها إلى مقدراته مناجيًا سريرته وقدً عاد إليها مرحها وسرورها قائلاً :لقد فزعت إلى عزلتي؛ لأنني تقت إليها

فأنا الآن منفرد أمام صفاء السماء ومدى البحار، وقد خطا النهار إلى عصره وما التقيت بأصحابي للمرة الأولى إلا في وقت العصر، وفي مثل هذا اليوم اجتمعت بهم للمرة الثانية، والعصر هوً الساعة التي يهدأ فيها اضطراب الأنوار جميعها؛ لأن السعادة الذاهبة بدداً منشورة علىّ مسالكها بين السماء والأرض تتجه إلى الاستقرار في روح الضياء، وها إن السعادة تحول اضطراب النور إلى سكون.

فيا لعصر حياتي !إن سعادتي هي أيضا قد انحدرت يوما إلى الوادي تطلب مستقراً،فلقيت هذه الأرواح النيرة تفتح لها الملجأ الأمين.

يا لعصر حياتي !لكم تخليت عن أشياء في الحياة توصلاً إلى مغارس أفكاري الحية، وإلى أنوار الصباح تدور في ذراتها أسمى أماني وآمالي.

لقد طلب المبدع يوماً رفاقًا له وفتش عن أبناء آماله، فأدرك أنه لن يجدهم إذا هو لم يخلقهم خلقا.

لقد أتممت نصف مهمتي باتجاهي نحو أبنائي وبعودتي إليهم، وقد وجب على زارا أن يُبِلغ نفسه الكمال من أجل هؤلاء الأبناء، وما يحب الإنسان من صميم قلبه إلا ابنه ونتيجة جهوده، وحيث يتجلى الحب الأشد فهنالك تكمن القوة المولِّدة، ذلك ما أدركته بتفكيري.

إن أزهار أبنائي لا تزال تتفتق في الربيع والريح تهب على صفوفهم فتهزها، فأبنائي أشجار حديقتي ونبت خير أراضي.

إن هذه الأشجار متراصة في منابتها على الجزر السعيدة، ولسوف أقتلعها واحدة فواحدة لأغرسها متفرقة فتتعلم احتمال العزلة وتنشأ فيها الأنفة والحزم؛ لينتصب كل منها تجاه البحر وقد تصلبت جزوعها وتعقدت أغصانها كمنائر حية للبقاء القاهر.

على كل شجرة أن تشخص في مهب العواصف المترامية إلى البحر حيث يتدافع الغمرً إلى قاعدة الجبل، فلا تغفل ليلا ونهارا عن تفحص سرائرها، عليها أن تتحمل التجارب ليُعلم أنها من سلالتي وأنها تحدرت من أصلي تعززها الإرادة المجالدة، فتبدو صامتة حتى عندما تتكلم، وإذا ما استسلمت تبدو معطية وهي آخذة، وهكذا يتحول من يمشي على أثر زارا بأضرابه وبإبداعه إلى شخصية تحفر شريعتي على الواحي فيكتمل بذلك كل شيء.

وهأنذا من أجل هذه الشخصية وأمثالها أسعى إلى تكوين شخصيتي؛ فأمتنع عن ورود السعادة مقتحما كل شقاء في آخر تجربة أتحملها لأدرك سريرتي.

لقد آن الأوان لرحيلي وقد نبَّهني إلى وجوب الرحيل خيال المسافر وأطول الأزمان وأعمق الساعات صمتًا؛ إذ نفخ الريح في فتحة القفل فتراجعت دلفة الباب قائلة :هيَّا

ولكنني كنت مقيداً بحبي لأبنائي يأسرني تشوقي إلى هذا الحب لأصبح فريسة لهؤلاء الأبناء فأضحي من أجلهم بنفسي، وما الشوق عندي إلا صورة ظاهرة لحقيقة فنائي إن أبنائي لي وفي هذه التملك يجب أن يضمحل كل شوق مستحيلا إلى عقيدة مكينة.

وكان رأسي يلتهب بشمس محبتي فأتحرق بحرارة دمي، فرأيت أشباح الشكوكُّ تدور بي من كل جهة فتمنيت أن يلفحني قر الشتاء حتى تصطك أسناني من رعشة الصقيع، وما عتم أن اكتسح نفسي ضباب الجليد، فشق الماضي لحوده وبعثت منه الآلام التي دفنت وهي حية فيها، وما تناولها الفناء لأنها كانت نائمة على أكفانها.

وكان كل شيء يشير إليَّ بأن قد حان زمن الرحيل، ولكنني كنت لا أنتبه إلى هذه الدعوة حتى تحركت أعماقي ولسعتني ثائرات أفكاري، ويا ليت لي القوة للتغلب على ارتعاشي عندما أشعر بقوة التفكير في أغواري تحاول أن تخترق لها منفذًا، فإنني لا أزال أحس باختلاج قلبي عندما أتنصت لدبيب أفكاري وهي تحاول الانجلاء لي.

إن في صمتك نفسه أيتها الفكرة ما يشد على عنقي وأنت أشد صمتًا من أغواري، ولكم حاولت أن أستخرجك من الأعماق أيتها الفكرة فخانني العزم واكتفيت بإضماري إياك في ذاتي . إنني لم أصل بعد إلى جرأة الأسد وإلى منتهى إقدامه

الغبطة القاسرة:

٣

إنك لجد ثقيلة في أغواري أيتها الفكرة، ولسوف أجد يوما قوة الأسد، وأتخذ لصوتي زئيره فأرفعك من الغور إلى المنبسط، حتى إذا ما تغلبت بذلك على نفسي تدرجت إلى انتصار أعظم أختتم به أعمالي، وإلى أن أبلغ هذا الظفر سأبقى تائها على بحار لا أعرف لها ساحلاً تداعبني خطرات الأحداث فأتلفَّت إلى ما ورائي وإلى ما أمامي ولا أعلم أين المنتهى.

ألم تحن بعد ساعة جهادي الأخير أم هي ماثلة أمامي الآن؟ والحق أن البحر والحياة يحيطان بي بجمالهما الفتَّان ويعلقان أبصارهما عليَّ.

فيا لعصر حياتي، يا للسعادة تتقدم ساعة المساء، يا للمرسى في وسط العباب، ياًّ للسكون في قلب الارتياب، إنني أحاذركن ولا أثق بكن جميعاًً.

أما والحق إنني أخشى جمالكن الغدار كما يخشى العاشق ابتسامة تجاوزت حد تكرارها إنني أدفع عني ساعة السعادة كالغيور يصد عن محبوبته، ولما يزل التلطف في افْق العطف يتجلى في قسوته وجفائه.

بعدا لك أيتها الساعة السعيدة !فقد اجتاحتني بحلولك غبطةٌ قاسرة، وأنا أتوقع أعمق الأحزان لقد جئتني في غير الأوان

بُعدا لك أيتها السعادة السعيدة !اذهبي واطلبي لك ملجأ هنالك في مقر أبنائي،إنيليهم سعادتي.

سارعي إليهم وباركيهم قبل حلول المساء ولقد اقترب الغسق وجنحت الشمس إلى الغروب فتوارت عني سعادتي.

هكذا تكلم زارا وبات يتوقع نزول شقائه به طوال ليله، غير أنه انتظر عبثًا؛ إذ بقي الليل منريًا ساكنًا، واستمرت السعادة تخطو مع الساعات متقربة إليه، وما لاح الفجر حتى بدا زارا يتضاحك قائلا :إن السعادة تتأثَّرين لأنني لا أتأثَّر النساء، وهل السعادة إلا امرأة؟.

قبل بزوغ الشمس:

أيتها السماء الرافعة قبابها فوق رأسي نقية صافية، أيتها السماء السحيقة وقد غادرت في أبعادك الأنوار، إنني أشخص إليك فتتملكني رعشة الأشواق الإلهية.

أنا لا أسبر أغواري إلا إذا سموت إلى عليائك، ولا أشعر بطهارتي إلا حني يجللني صفاؤك.

إنك تحجبني نجومك كما يتلفَع الإله بسنائه أنت صامتة وبصمتك تذيعني لي حكمتك

لقد تجليت لي اليوم في سكونك على زبد الآفاق فأعلنت لروحي المزبدة ما فيك من حب وعفاف .

جئت إليَّ جميلة مقنعة بجمالك تخاطبينني بلا كلام، وتعلنين حكمتك وما كنت أعلم ما في روحك من عفاف أتيت إليَّ قبل بزوغ الشمس أنا المنفرد في عزلتي.

أنا وأنت صديقان منذ الأزل فأحزاننا واحدة كارتياعنا، وعمق أغوارنا وشمسنا واحدة أيضا، وما نتناجى إلا لوفرة ما نعلم، ثم يسودنا الصمت فنتبادل ما أعرف وما تعرفين بلغة البسمات، أفما بُعثت أنوارك من مكمن أنواري؟ أفليست فكرتك أختًا لفكرتي؟.

لقد تعلمنا كل شيء سويا، وتدربنا سويا على الاعتلاء فوق ذاتنا متجهين إلى صميمها مبتسمني بافترار لا تعكره الغيوم، وبلفتات صافية نغرقها في سحيق الأبعاد في حين تتدافع كالأمطار تحتنا النزعات المكبوتة وأهداف الخطيئة.

إلام كانت تتوق نفسي عندما كنت أذهب في الليل شاردا على مسالك الضلال؟ وماذ ا كنت أطلب في تسلقي الجبال نحو قممها؟ أما كنت أنت مقصدي أيتها السماء؟ وهل كانت أسفاري جميعها إلا ذهابًا مع حافز التدرب؟ وهل كان لإرادتي من هدف غير التحليق في الأجواء؟ وهل أبغضت شيئًا بغضي الغمام وكل نقاب يلفع الضياء؟ لقد كرهت بغضي نفسه؛ لأنه يعكر صفاءك أيتها السماء

إنني أنفر من هذه الغيوم تمر كأنها قطط برية تزحف زحفًا؛ لأنها تختلس مني ومنك أيتها السماء الحقيقة الإيجابية الثابتة في كل شيء، فأنا وأنت ننفر من هذه الدخيلات المعكرات من هذه الغيوم الكاسحات، فما هي إلا كائنات مختلطة في نوعها يسودها التردد، فلا تعرف أن تلعن بإخلاص ولا أن تبارك بإخلاص، وخير لي أن ألجأ إلى مغارة أو أسقط في هاوية من أن أقف أمامك يا سماء الضياء، وقد عكرت صفاءك الغيوم الكاسحات، ولكم سمر أردانها على آفاقك بسهام البروق الذهبية، ثم أنزل عليها الرعود تهوى

وددت لو أنني قاصفة على مراجل أحشائها أنني أود قرعها بعصا الغيظ؛ لأنها تحجب عني حقائقك أيتها السماء الممتدة بأغوار أنوارها فوق رأسي كما تحجب حقيقتي عنك.

لخير لي أن أسمع هزيم الرعود وولولة العواصف من أن أتنصت إلى مواء هذه الهررة الزحافة المترددة، ففي المجتمع أمثال لهذه الغيوم يسيرون مترددين بخطوات الذئاب، وقد وقفت أشد بغضي عليهم.

على من لا يعرف أن يمنح البركة أن يتعلم إنزال اللعنات ذلك ما ألهمتنيه السماء الصافية مبدأ ينير سمائي كالكواكب في أشد الليالي قتامه

ما دمت فوقي أيتها السماء الصافية المتألقة بالأنوار فإنني لا أنقطع عن منح البركة وإيراد بياني إيجابًا وتأكيداً؛ لأنير بعقيدتي جميع الأغوار المظلمة.

لقد جاهدت طويلا حتى أصبحت مباركا ومؤكداً، وما ناضلت إلا لأحرر ذراعي فأبسطهما للبركة، وتقوم بركتي على الاعتلاء فوق كل شيء كما تعتلي السماء والسقوف المكورة وقباب الأجراس والغبطة الدائمة، فطوبي لمن يبارك هكذا؛ لأن كل الأشياء قد تعمدت من ينبوع الأبدية وما وراء الخير والشر، وما الخير والشر إلا خيالات عابرة وأحزان بليلة وغيوم متراكضة إلى الفناء.

والحق أن من البركة لا من اللعنة أن نعلم بأن فوق كل شيء تمتد سماء الصدفة وسماء البراءة وسماء الحرية وسماء الاضطراب.

إن كلمة الصدفه لأقدم ما في العالم من نسب للأشياء، وقد أرجعت كل الأشياء إلى هذا النسب النبيل فأنقذتها من عبودية المقصد والهدف، وهكذا رفعت الحرية والغبطة السماوية عاليًا ونصبتها كالقباب فوق جميع الأشياء؛ إذ علمت أن ليس من إرادة أبدية تعلو بها لتبسط مقاصدها فوقها.

لقد وضعت حدا لهذه الإرادة بل لهذا الجنون وهذا الاضطراب عندما علمت أن الوقوف عند الحقيقة كان مستحيلا وسيبقى مستحيلا، فما هناك إلا قليل من التعقل.

قبل بزوغ الشمس:

٢

وذرات من الحكمة تتلقفها الكواكب كخمرية امتزحت بالأشياء جميعها ولولا الجنون لما امتزجت بها.

ليس للإنسان أن يعطي من الحكمة إلا قليلا، غير أنني وجدت في كل مكان عقيدة لها سعادتها، وهي تفضيل الرقص على أرجل الصدفة العمياء.

فيا أيتها السماء الممتدة فوق رأسي، أيتها السماء الصافية المتعالية، لقد أصبح كلٌ صفائك فيك قائما على اعتقادي بأن ليس في الكون عنكبة خالدة، وليس فيه من الحكمةً ما تنسجه العناكب، فلتكن مجالاتك أيتها السماء مسرحا لخطرات الصدف الإلهية، أوفلتكن خوانًا يدحرج عليه الآلهة نردهم، فلماذا يعلو أديم وجهك الاحمرار؟ أترى جاء بياني مبهما أم وردت بركتي لك لعنة عليك؟ أم أخجلك أن أنفرد بك فأردت أن أتوارى،وأكف عن الكلام؛ لأن الفجر قد لاح على الآفاق؟.

إن في العالم من الأغوار ما لا يدركه النهار، ومن الأشياء ما يجب كتمانه أمامه، وقد باغتنا النهار، فلنفترق.

أيتها السماء الممتدة فوق رأسي بطهرها واضطرامها، أيتها الغبطة المتجلية قبل بزوغ الشمس، لقد باغتنا النهار فلنفترق.

وأخبث ما رأيت بين هؤلاء الناس تظاهر حاكمهم بفضيلة محكومهم، فلا يزال أولو الأمر فيهم يترنَّمون بتصريف مصدر الخدمه خدم، خدما، خدموا؛ نحن نخدم وويل للسيد الأول بينهم إذا لم يقل إنه أول الخادمين.

لقد ذهب نظري المتجسس، وا أسفاه !يرود مكامن خبثهم فما خفيت عني سعادتهم؛فإذا هي سعادة ذباب يترامى بطنينه إلى زجاج النوافذ تتكسر عليه أشعة الشمس، وما رأيت بين هؤلاء القوم إشفاقًا إلا وتبينت إزاءه ما يوازيه ضعفًا، فتراهم يتعاملون بالإنصاف والعطف كحبوب الرمال تعطف واحدتها على الأخرى.

وما رأيت رجلاً فيهم إلا وهو يدعي القناعة فيما أصاب من نذر السعادة، غير أنه لا يني في قناعته يحدج بعين الشهوة قليلا من السعادة يضيفها إلى ما يملك، وما يطمع هؤلاء الناس إلا بأن يتقي بعضهم شر البعض الآخر، فهم لذلك يلجئون إلى التعامل بالحسنى، أما أنا فلا أرى إلا الخَو ر والجبن في هذه الطريقة، وإن كانوا يعرفونها بالفضيلة فيما بينهم.

وإذا صدف وتخاطب هؤلاء الناس بشيء من الخشونة، فإنني لا أتميز في نبرات صوتهم إلا أثر التهاب الحلق، فإن أقل لفحة تصيب هذه الأعناق تبح أصواتها، وما أشد هؤلاء القوم حين يحتالون ويمكرون !ففي أناملهم كل الرشاقة، ولكن في قبضة يدهم شللا وليس لأصابعهم أن تنطوي على راحتها.

وما الفضيلة في عرفهم إلا ما يولد الضعة والتآلف، وبهذا املبدأ توصلوا إلى جعل الإنسان الذئب كلبًا، بل حتى إلى جعل الإنسان خير الدواجن الخاضعة لتسل إنهم لمغتبطون، إنهم يضحكون قائلين :لقد اتخذنا مقامنا على الحالة الوسطى بين أن يِردون المهالك وبين الخنازير سارحةً لا تبالي.

مصارعي الثيران وما هذه الحالة التي يدعونها اعتدالا إلا حالة انحطاط وخمول.

قبل بزوغ الشمس:

٣

لقد ألقيت إلى هذا الشعب بكلمات كثيرة، فما وسعه إدراك كنهها ولا حفظها، وكل ما بدا منه هو استغرابه ألا أكون أتيت إليه بالمواعظ لمكافحة الفحشاء والرزائل، والحق إنني ما جئت نذيراً يدعو القوم إلى الاحتراس ممن ينشلون الأموال من الجيوب.

لقد استغربوا ألا أكون مستعدا لتنبيه الغافلني عن الحكمة وتسديد التفكير في الحكماء، فكأنهم لا يزالون بحاجة إلى مهرة المعلِّمين تخدش أصواتهم الآذان كأنها صريف أقلام الحجر على اللوحات السوداء.

فإذا صرخت بهم قائلا :أنزلوا لعناتكم على ما فيكم من جبناء الأبالسة الذين لايحلو لهم غير الأنين وضم السواعد إلى الصدور للعبادة هبُّوا منادين بكفر زارا وإلحاده، وارتفعت فوق أصواتهم أصوات من يعلِّمونهم الاستكانة والصبر، فلا أملك نفسي من أن أهمس في آذان هؤلاء المعلمين لأقول لهم : أنا هو زارا الكافر الملحد، ولولا شعوري بالاشمئزاز منهم لكنت أسحقهم سحقا؛ لأنهم أشبه بالقمل لا يدبُّون إلا حيث تبدوَ الحقارة وينتشر الجَرب.

أجل لقد همست في آذان هؤلاء المعلِّيمن قولي إنني أنا زارا الكافر القائل : أرشدوني سربها .إلى من هو أشد كفراً مني لأتمتع بتعاليمه وأنا هو زارا الكافر، فأين أشباهي؟ وما أشباهي إلا من يهبون من ذاتهم لذاتهم إرادة مطرحين الصبر كارهين الاستسلام.

أنا هو زارا الكافر، أنا الصاهر في مرجلي كل ما يُدعى صدفة، فلا أزال به حتى ينضج ليصلح لي غذاء، ولكم رأيت الصدف تتقدم إليَّ كأنها السيد المطاع فترغمها إرادتي على الركوع أمامي خاشعة مسترحمة طالبة إليَّ أن أجد لها مأوى عندي قائلة :ما يلجأ الصديق إلا إلى صديق.

ولكنمملن أوجه الخطاب إذا كانت كلماتي لا تطرق أسماعا تشبه أسماعي؟ غير أنني سأرسل صوتي في الفضاء لتهب به الرياح قائلا :أيها القوم الوضيع، إنك لتزيد حقارة منُ يوم إلى يوم، إنك سائر إلى الذوبان فالاضمحلال، وما يوردك الفناءَ إلا صغيرات فضائلك.

استنجاد:

لا وألف لا إنني أعلم منك، فالجزر السعيدة لا تزال مكانها فاصمت أيها النداب،ما أنت إلا غمامة تمطر على بسمة الصباح وقد بلَّلتني دموعك، ولكنني أنفضها عني وأفزع منك إلى بعيد، أما تراني أعاملك بالحسنى؟ لا تعجب لهذا لأنك نازل في مملكتي.

ها أنذا ذاهب إلى مصدر صوت الاستنجاد في هذا الغاب؛ لأفتش على الإنسان الراقي فلعله معرض للخطر بين الوحوش الضارية، وأنا أحاذر أن يلحق به ضرر في مملكتي،وما أكثر الضواري فيها !.

ما ذهب زارا للسير حتى قهقه العراف ضاحكا وقال :أي زارا، ما أنت إلا مراوغ محتال، إنك تقصد التخلص مني فتفضل مطاردة الوحوش، ولكن هربك لن يجديك شيئاً فلسوف تجدني محتلا غارك عند رجوعك، ستراني متربعاً فيه كحزمة حطب ثقيلة.

فقال زارا وهو سائر نحو الغاب :ليكن ما تريد إن كل ما في غاري هو لك أيضاً لأنك ضيفي، وإذا ما وجدت فيه شيئًا من العسل فلك أن تلحسه لتخفف ما في نفسك من المرارة أيها الدب المزمجر؛ لأننا سنفرح ونطرب سويا هذا المساء لانقضاء هذا اليوم فتشترك معي فى الغناء والرقص دبّا مثقفًا.

أراك تهز رأسك كأنك لا تصدق ما أقول، فاذهب في سبيلك إذن أيها الدب الهرمً ولكن اعلم أنني عراف أنا أيضاً.

ها أنذا ذاهب إلى مصدر صوت الاستنجاد في هذا الغاب؛ لأفتش على الإنسان الراقي فلعله معرض للخطر بين الوحوش الضارية، وأنا أحاذر أن يلحق به ضرر في مملكتي،وما أكثر الضواري فيها !.

العلماء:

وكنت نائما فإذا نعجة تتقدم فتقضم الغار المعقود إكليلا على رأسي، فكانت تعمل أنيابها فيه وتقول :لم يعد زارا من العلماء.

وذهبت بعد ذلك مزدرية متفاخرة، ذلك ما أخبرنيه أحد الأولاد.

أحب أن أستلقي على الأرض حيث يلعب الأطفال تحت الجدار المتهدم، وقد نبتٍ في شقوقه العوسج والشقائق الحمراء، فإنني لم أزل عاملا في عيون الصغار وفي عيون العوسج والشقائق الحمراء؛ لأنها طاهرة حتى في أذيتها.

أنا لم أعد عاملا في نظر النعاج تبارك حظي فهذا ما قُضي به عليَّ، والحقيقة هي أنني هجرت مسكن العلماء فخرجت منه جاذبًا بابه بعنف ورائي

لقد جلست روحي الجائعة طويلا إلى الخوان، وما أنا كالعلماء متطبع على المعرفة كمن اتَّخذ كسر القشور مهنة له، فأنا عاشق الحرية والسير في الهواء الطلق على الأرض الباردة، كما أفضل أن أتوسد جلود الثيران على افتراش أمجاد العلماء وألقابهم.

إن بي من الحماس ومن لهب الفكر ما يقطع عليَّ أنفاسي، فلا يسعني إلا الاندفاع إلى رحب الفضاء هاربًا من الغرف المكسوة بالغبار.

ولكن هؤلاء العلماء يتفيَّئون الظلال فلا يقتحمون السير على المسالك التي تلهبها حرارة الشمس، بل يكتفون بالاستكشاف كالمتفرجين يفتحون أشداقهم وينظرون إلى المارة في الشارع، هكذا يفتح العلماء أشداقهم وينتظرون اتِّقاد شرارة الفكر في أدمغة المفكرين، وإذا ما لمستهم بيدك تطاير الغبار ما حولهم كأنهم أكياس من الحنطة، ولكن لا يظنن أحد أن هذا الغبار المتطاير منهم هو دقيق السنابل الصفراء التي يتشح بها الصيف في زهوه.

إذا ما تظاهر العلماء بالحكمة، فإن حقائقهم وأحكامهم تهزني برعشة البرَداء؛ إذ تنتشر منها روائح املستنقعات، ولكم أسمعتني حكمتهم نقيق الضفادع.

إن لهؤلاء العلماء مهارتهم ولأناملهم لَبَاقَتها، فليس من نسبة بين صراحتي وتعقيدهم، فأناملهم لا تني تغزل وتحيك ناسجة للعقل ما يستره؛ فهم كالساعات إذا ما أحكم ربط رقَّاصها دلت بالضبط على سير الزمان وأسمعتك طقطقة خافتة إنهم يعملون كحجر الرحى فيطحنون كل ما تلقي إليهم من حبوب، وكل منهم يراقب حركة أنامل الآخرين، وجميعهم يتلهون بالنكايات ويترصدون من يتعارج بعلومه، فهم أشبه العناكب في تلصصهم، ولكم رأيتهم يستقطرون سمومهم بكل حذر ساترين أيديهم بقفازات من زجاج، ولهم مهارة خاصة بلعب النرد المزور، ولكم انحنوا فوقه والعرق يتصبب من وجوههم.

لا صلة بيني وبني هؤلاء الناس؛ فإن فضائلهم تبعد عن فضائلي بأكثر مما تبعد عنها أكاذيبهم ونردهم المزور.

وما وجدت مرة بينهم إلا وكنت فوقهم؛ لذلك أبغضني هؤلاء العلماء، فإنهم لايطيقون أن يسمعوا بمرور أي كان فوق رءوسهم، ولذلك وضعوا الأخشاب فوق رءوسهم، وأهالوا فوقها التراب والأقذار ليخنقوا وقع أقدامي، ولم يزل حتى اليوم أكثرهم علماً أقلَّهم إدراكاً لأقوالي.

لقد نصبوا بيني وبينهم حائلاً كل ما في الإنسان من ضعف وضلال، وهم يدعون هذا الحصن لمسكنهم بالسقف المستعار.

ولكني بالرغم من كل هذا لا أزال أمشي فوق رءوسهم وأنا أنشر أفكاري، ولو أنني مشيت على عيوبي فلن أزال ماشيًا فوق جباههم، ذلك لأنه لا مساواة بني البشر، وهذا ما يهتف به العدل، فما أريده أنا لا حق لهم بأن يتناولوه بإرادتهم الشعراء وقال زارا لأحد أتباعه :منذ بدأت أعرف حقيقة الجسد لم تعد الروح روحا في نظري إلا على أضيق مقياس، وهكذا صرت أرى» كل ما لا يفنى «رمزا من الرموز.

ً فأجاب التابع قائلا : لقد قلت هذا من قبل يا زارا، ولكنك أضفت إليه قولك وكثيرًا ما يكذب الشعراء فلماذا قلت هذا؟

فقال زارا :أنت تسأل لماذا، وما أنا ممن يحق عليهم أن يُسألوا ما أنا ابن الأمس وقد ئيه، وهل أنا خزانة تذكارات لأحفظ الأسباب مر زمان طويل على إدراكي أسباب ماالتي بنيت عليها آرائي؟ إنما يكفيني عناء أن أحفظ هذه الآراء نفسها، أفليس في العالم عصافير تشرد من أماكنها، ولكم وجدت في قفصي من طير غريب يرتجف إذا ما أمررتً عليه يدي، ومع ذلك فماذا قال لك زارا يوماً؟ لقد قال إن الشعراء كثيرا ما يكذبون، وهلً كان زارا نفسه إلا واحدا من هؤلاء الشعراء؟ أفتحسب أنه بهذه الصفة قد أعلن الحق؟ وما الذي يُكِرهك على تصديقه؟ فقال التابع :إنني مؤمن بزارا.

أما زارا فهز رأسه وابتسم قائلاً :ليس الإيمان مما يرضيني حتى ولو كان هذاً الإيمان معقودًا عليَّ، ولكن إذا قال إنسان بكل جد :إن الشعراء يكذبون، فإنه ليقول حقا، ولا بد لنا من الكذب ما دام ما نجده من العلم قليلا ولأننا نحن الشعراء نكذب كثيراً من الشعراء بيننا لم يغش شرابه وفي سراديبنا ستقطر السوائل السمومة؟ ولكم فيها من أمور يقصر عن وصفها البيان إن افتقارنا في المعرفة يهيب بنا إلى محبة مساكين العقول، خاصة إلى محبة مسكينات العقول الفتيات فنحن نعود بشهواتنا إلى الأمور التي تتحدث عنها العجائز في السمر، ونقول إن ما نبحث فيه إنما هو قضية المرأة الأبدية.

يخيل لنا أن أمامنا طريقا سويًا يؤدي إلى المعرفة، وأن هذا الطريق لا ينكشف لمن يدركون الأمور بالعلم، فنحن لا نؤمن إلا بالشعب وبحكمته، فالشعراء جميعهم يعتقدون أن الجالس على منحدر جبل مقفر يتنصت إلى السكون يتوصل إلى معرفة ما يحدث بين الأرض والسماء، وإذا هم هزهم الشعور المرهف خيل لهم أن الطبيعة نفسها أصبحت

مغرمة بهم؛ فيرونها تنحني على آذانهم لتلهمهم البيان الساحر والأسرار، فيقفون مباهين بإلهامهم أمام كل كائن يزول.

واأسفاه ان بين الأرض والسماء أمور كثيرة لا يحلم بها إلا الشعراء، وهنالك أمور أخرى كثيرة فوق السماء، فما جميع الآلهة إلا رموز أبدعها الشعراء.

والحق أننا منجذبون أبداً إلى العلياء، إلى مسارح الغيوم فنرسل إليها أكرا منفوخة ملونة ندعوها آلهة وبشراً متفوقين، والحق أنهم من الخفة على ما يجعلهم أهلا لاقتعاد مثل هذه العروش.

الشعراء!

وما نطق زارا بهذا الكلام حتى ثارت نفس تابعه، ولكنه كظم غيظه فسكت وسكت زارا أيضا وغيَّض نظره كأنه يستر أقاصي نفسه، ثم تنفس الصعداء وقال :أنا من الأمس ومن الزمن القديم ولكن فيَّ شيئًا من الغد وبعده ومن الآتي البعيد، فقد أتعبني الشعراء الأقدمون منهم والمجددون، فما هم في نظري إلا رغوة لا صريح تحتها، بل هم أسرة بحار جفت مياهها إن أفكارهم لم تنفذ إلى الأغوار، وقد وقف شعورهم عند أول جُرفها، وخيرما ترى في تأملاتهم قليل من الشهوة وقليل من الضجر، فليست بحورهم إلا مجالات تنزلق على تفاعيلها الأشباح، فهم لم يدركوا شيئًا بعد من القوى الكامنة في النبرات لم يبلغ الشعراء درجة النقاء فهم يعكرون جداولهم؛ ليخدعوا الناس ويوهموهم أنها بعيدة الغور

إنهم يريدون أن يقيموا أنفسهم موفِّقين بين مختلف المعتقدات غير أنهم لا يزالون رجال العمل الناقص السائرين على السبل المتوسطة الحائرة فهم يعكرون المياه بأقذارهم.

وا أسفاه لقد ألقيت شباكي في بحارهم آملا اصطياد خير الأسماك، ولكنني ما سحبت هذه الشباك مرة إلا وقد علق فيها رأس إله قديم، وهكذا كان يجود البحر بحجر عليَّ الجائع ولعل الشعراء أنفسهم خرجوا هم أيضا من البحر وفيهم ولا ريب بعض اللآلئ، فهم أشبه بنوع من المحار الممنع بأصدافه، ولكم وجدت في داخلهم بدل الروح شيئًا من الرغوة المالحة إن الشعراء يقتبسون من البحر غروره، وهل البحر إلا أشد الطواويس الشعراء غرورا؟ فهو حتى أمام أقبح الجواميس يدحرج أمواجه ويبسط أطالس مراوح وأطراف وشاحه المفضض، فيحدجه الجاموس بنظرات الغيظ؛ لأن روحه المقتربة من الشاطئ لا تزال ملتصقة بمعلفه ومرعاه فما يبالي بالجمال وبالبحر وببهاء الطواويس هذا هو المثل ضر به للشعراء، والحق أن فكرهم لطاووس مغرور، بل هو بحر من الغرور، ففكرَ الشاعر يطلب من يشاهده حتى ولو كان المشاهد جاموساً.

لقد أتعبني هذا الفكر وسوف يأتي زمان وهو قريب يتعب فيه هذا الفكر من ذاته

رأيت بعض الشعراء يتحولون عن الشعر، ويوجهون النقمة إلى ما كانوا عليه، ورأيت من يقدمون كفَّ ارة للفكر، وما نشأ هؤلاء املكفِّرون عن الضلال إلا بين الشعراء.

المعرفة الطاهرة:

لقد كنت أرى في عيونكم روح إله أيها الطالبون المعرفة الطاهرة، قبل أن تكشف لي تصنعكم فعرفت أنكم أمهر المتصنعين.

لقد بعد المجال بيني وبينكم فما تميزت فيكم الثعبان القبيح، ولا وصلت إليَّ رائحته الكريهة، وما خطر لي أن أمامي حرباء تتلون بشهواتها، ولكنني عندما اقتربت منكم تبددت الظلمة حولي، وها إن الفجر يغمركم بأنواره فلكل قمر جنوح إلى الغياب في فقه شاحب مذعور، وقد باغته الفجر بأنواره فُي شهوته المرسلة، فكل شمس يتجلى حبها الطاهر في تشوقها إلى الإبداع.

أما ترون الفجر ينسحب على البحر وقد اهاجه الشوق والحنين؟ إنما تشعرون بظمئه في حبه وحر أنفاسه، فكأنه يريد ارتشاف اللجج، وها هي ذي تتعالى نحوه بآلاف نهودها، واللجة نفسها متشوقة إلى وصال كوكب النهار ليريشفها ارتشافًا فتتحول إلى سحب ومسالك أنوار، بل هي نفسها تفنى في النور متحولة إلى نور.

وأنا كوكب النهار أحب الحياة وكل لجة بعيدة الأغوار، تلك هي معرفتي .إنني أجذب كل غور ليتعالى .

النذير:

ظهرت قساوة الفولاذ على سيمائه فقال :لقد كان للرحمة زمانها.أية أهمية لشهواتي ورحمتي، ما أنا طالب سعادة، إن ما أسعى إليه هو المهمة التي وضعتها نصب إرادتي.

والآن وقد جاء الأسد، فقد اقترب زمان أبنائي، أما أنا فقد بلغت النضوج ودنت ساعتي!.

هذا هو الشفق يلوح على صبيحتي وقد طلع نهاري، فأشرقي بأنوارك أيتها الظهيرة العظمى.

هكذا تكلم زارا وهو يبارح مغارته مليئًا بالعزم والقوة كشمس الصباح المنبثقة من وراء الغيوم.

عيد حمار:

١

عند هذا المقطع من المدائح عيل صبر زارا؛ فبدأ ينهق هو أيضاً، واندفع إلى وسط ضيوفه وقد استولى عليهم الجنون صارخا :ماذا تفعلون يا أبناء الناس

وتقدم يرفعهم الواحد بعد الآخر عن الحضيض قائلاً :الويل لكم لو رآكم أحد غيرّ زارا، إذن لحكم الكل عليكم بأنكم في دينكم الجديد من أفظع المجدفين أو من أشد العجائز تخريفًا وجنونًا.

أنت يا رئيس الأحبار كيف تسني لك دون أن تجحد نفسك وأن تعبد حماراً كأنه إله؟! فأجاب الحبر الكبير :عفوك يا زارا، إنني أعرف منك بأمور الله، ومن الحق أن أكونا، تمعن في كلمتي هذه أيهاّ هكذا، وخير لنا أن نعبد الله في حمار من ألا نعبده مطلقًا الصديق العظيم يتضح لك أن فيها كثيرا من الحكمة.

إن من قال إن الله روح قد خطا الخطوة العظمى نحو الجحود، وليس من السهل إصلاح ما تفسده مثل هذه الكلمة في العالم.

إن فؤادي يرقص فرحاً؛ إذ بقي على الأرض شيء يمكننا أن نعبده.

اغفر يا زارا لرئيس أحبار تقي ما يشعر به.

والتفت زارا إلى المسافر والخيال قائلاً :وأنت يا من تدعي الفكر الحر، بل من تتصور إنك فكر حر، كيف تمثِّل هذا الدور الغريب وتتعبد للوثن؟!

إنك تفعل الآن ما لم تفعله بين الغادات السمر ذوات الدلال يا من اتخذ لنفسه عقيدة جديدة

فأجاب المسافر والخيال :الأمر محزن وأنت مصيب، ولكنني عاجز عن الإتيان بأي عمل فإن الإله القديم قد بُعث فقل ما تشاء يا زارا.

إن السبب في هذا كله هو أقبح العاملين؛ فهو باعث الإله ولو قال إنه هو قاتله فليس موت الإله إلا عقيدة لا ترتكز على شيء.

فقال زارا :وأنت أيها الساحر القديم المراوغ ماذا فعلت؟ من سيؤمن بك بعد الآن في أزمنة الحرية هذه إذا كنت تؤمن بمثل هذه الأمور الإلهية.

لقد أتيت حماقة فكيف أقدمت عليها وأنت على ما تعلم من المهارة ؟ !فأجاب الساحر :لقد أصبت فما أتيت إلا حماقة، ولقد كلفتني جهداً كبيراً.

فقال زارا :وأنت يا ضمير العقل، تفكر وضع إصبعك في أنفك، أما يبكتك ضميرك على ما فعلت، أما تدنس فكرك من هذه العبادة ومن هذا البخور المتصاعد؟! فوضع ضمير العقل إصبعه في أنفه وأجاب :إن في هذا المشهد شيئًا يرتاح له ضميري، وقد لا يكون لي الحق فى أن أعبد الله غير أنني أرى أن إلها على هذه الشاكلة يستحق الإيمان.

جب أن يكون الإله خالداً بحسب ما شهد به الأتقياء، فمن كان له مثل هذا الزمان الطويل له أن يمنح نفسه خير الأزمان، وأن يعيش على مهل وبالسخافة التي تحلو له، فيبلغ الهدف الذي يريد ومن له الفكر المتجاوز حده يميل إلى السخافات وإلى الجنون

أفلا ترى يا زارا أنك معر ض بإفراط حكمتك إلى أن تصير حماراً.

أفلا يتجه الحكيم إلى السبل المتعرجة، وهلا تجد في نفسك ما يثبت هذه الحقيقة؟.

ونظر زارا إلى أقبح العاملين فإذا به لم يزل منطرحا على الأرض وهو يقدم للحمار خمرا ليشرب، فقال له :ماذا أنت فاعل؟ لقد تبدلت يا هذا فعينك تشع نوراً، وقد اتشح برد الجلال أصحيح ما يقوله رفاقك؟ أأنت بعثته من الموت؟ وما الذي أهاب بك قبحك إلى إحيائه؟ فهل كنت على خطأ عندما قتلته وألحقته بغابر الزمان؟ .

إنني أراك أنت راجعا إلى الانتباه بعد غفلتك، فماذا فعلت ولماذا هديت نفسك؟ تكلم أيها السر الغامض.

فقال أقبح العاملين :ما أنت إلا لئيم يا زارا، وأنا أسألك فأجب من منا أعلم فيما إذا كان هذا الإله لا يزال حيًّا أم أنه مات حقيقة.

غير أنني أعلم كما علمتني فيما مضى أن من يريد أن يقتل قتلا لا حياة بعده يلجأ إلى سلاح الضحك فالغضب لا يقتل، أما قلت هذا يا زارا أنت المستتر، أنت الهادم بلا غضب والقديس الخطر فما أنت إلا لئيم.

عيد حمار

٢

ودهش زارا لما سمع من أجوبة فاندفع إلى باب غاره، ووقف هنالك يصيح بأشد نبراته:

لماذا تخفون سرائركم أمامي، أيها الطائشون، أما ارتعشت قلوبكم في صدوركم لأنكمً عدتم أطفالا أي من أهل التقى، ففعلتم فعل الأطفال وضممتم أكف الضراعة قائلين أيها الإله الصالح العزيز.

ألا فاخرجوا الآن من غرفة الأطفال، إن مغارتي قد شهدت اليوم جميع ألاعيبهم، اذهبوا وتأملوا خارجا في طيش طفولتكم وفي نبضات قلوبكم. لا ريب في أنكم إذا لم تعودوا أطفالا فلا تدخلون ملكوت السماوات قال هذا ورفع إصبعه نحو السماء.

فقالوا :لا ... لا نريد أن ندخل ملكوت السماوات؛ لأننا وقد أصبحنا رجالا لا نطلب في غير الأرض ملكوتًا.

عيد حمار

٣

واستأنف زارا الخطاب فقال :أي أصدقائي الجدد، أيها الرجال الغريبو الأطوار، أنتم أيها الراقون إنني لأعجب الآن بكم، لقد عاد سروركم إليكم فتوردت وجوهكم، وقد حق لكم كأزهار جديدة أن تعيِّدوا فأقمتم للحمار حفلة؛ إذ أردتم أن تسروا وأن يجيء زارا المرح بجنون شيخوخته لينير أرواحكم.

لا تنسوا هذه الليلة وهذا العيد، أيها الرجال الراقون فقد أبدعتم فيما اخترعتم وماِ يوجد فى مثل هذه الأعياد إلا الناقهون؛ لأنها نذير الشفاء.

فإذا ما احتفلتم بهذا العيد عيد الحمار، فاصنعوا هذا محبة بأنفسكم ومحبة بي،اصنعوا هذا لذكري .

الانتصار على الذات:

ليست إرادة الحق في عرفكم، أيها الحكماء، إلا تلك القوة التي تحفزكم وتضطرم فيكم، تلك هي إرادتكم التي أسميها أنا إرادة تصور الوجود فإنكم تطمحون إلى جعل كل موجود خاضعا لتصوركم، وأنتم تحاذرون بحق أن يكون هذا الوجود قد أحاط به التصور من قبل، فتريدون أن تُخضعوا لإرادتكم كل كائن لتتحكموا فيه بالصقل ليصبح مرآة تنعكس عليها صورة العقل .

هذا ما تطمحون إليه، يا أحكم الحكماء، وتلك هي إرادتكم تجاه القوة والخير والشر وتقدير قيَم الأشياء.

إنكم تريدون خلق عالم يمكن لكم أن تجثوا أمامه، تلك هي نهاية نشوتكم وآخر أمنية لكم، ولكن البسطاء الذين يدعون شعبًا يشبهون نهرا تخوضه أبدا ماخرة تقل الشرائع، وقد جلسن عليها بعظمة وأنزلن على وجوههن الحجاب.

لقد أرسلتم إرادتكم وشرعتكم على نهر الزمان، ولكن إرادة القوة مثلت أمامي وكشفت لي حقيقة الخير والشر في اعتقاد الشعوب.

وهل سواكم، أيها الحكماء، من أنزل بإرادته المتسلطة هذه الشرائع في هذه الماخرةَّ وقد حليتموهن بالجواهر وأسبغتم عليهن أروع الأسماء.

لقد سار النهر يحملهن بانسيابه وسهم املاخرة يشق أمواجه ومن يبالي بالموجة تقاوم عبثًا في إرغائها إزبادها.

إن الخطر الذي يتهدد خيركم وشركم لا يكمن في النهر، أيها الحكماء، بل الخطر كل الخطر في إرادة القوة نفسها؛ لأنها الإرادة الحية الدائمة المبدعة.

إن ما سأقوله عن الحياة سيوضح لكم اعتقادي في الخير والشر عندما أتناول ببياني ما تفعل العادات في الأحياء.

لقد سايرت الكائن الحي على معابره وأشواطه؛ لأتعرف إلى عادته، وعندما كانت الحياة صامتة نصبت أمامها مرآة بألف ضلع؛ لأستنطق عينيها فكلمتني لحاظها.

في كل مكان عثرت فيه على حي طرقت أذني كلمات الطاعة فما من حي يتعالى عنً الخضوع، وعرفت أيضا أن ليس من محكوم في الحياة سوى من لا قبل له بإطاعة نفسه تلك هي عادة كل حى وهذا ما سمعت أخيراً : إن تولي الحكم أصعب من الطاعة؛ لأن الآمر يحمل أثقال جميع الخاضعين له، وكثيرًا ما ترهق هذه الأثقال كواهل الآمرين.

إن في كل أمر خطرا ومجاذفة، وكل مرة يصدر الحي فيها أمر ا يقتحم خطرا.

وإذا ما تحكم الحي في ذاته فإنه يؤدي جزية لسلطانه؛ إذ يصبح قاضيًا ومنفِّها.

وضحية للشرائع التي يستن وتساءلت عن علة هذه الأمور وعن القوة التي ترغم الحي على الانقياد والتحكم فتجعله خاضعا حتى إذا حكم، ولعني توصلت إلى سبر قلب الحياة إلى الصميم، فأصغوا إلى قولي أيها الحكماء

لقد تيقنت وجود إرادة القوة في كل حي، ورأيت الخاضعين أنفسهم يطمحون إلى السيادة؛ لأن في إرادة الخاضع مبدأ سيادة القوي على الضعيف، فإرادة الخاضع تطمح إلى السيادة أيضا لتتحكم فيمن هو أضعف منها، وتلك هي اللذة الوحيدة الباقية لها فلا تتخلى عنها.

وبما أن الأضعف يستسلم للأقوى والأقوى يتمتع بسيادته على هذا الأضعف، فإن الأقوى يعرض نفسه للخطر في سبيل قوته؛ فهو يجاذف بحياته مستهدفًا للأخطار.

إن إرادة القوة كامنة حتى في مجال التضحية والخدمة املتبادلة وبني نظراتً العاشقني؛ لذلك يتجه الأضعف إلى السبل املتوية قاصدا اجتياز الحصن والتربع في قلب الأقوى مستوليًا فيه على قوته.

لقد أودعتني الحياة سرها قائلة :لقد تحتم عليَّ أن أتفوق أبدا على ذاتي وإنكم لتحسبون هذا الاندفاع إرادة إبداع أو غيرزة تحفز بي إلى الهدف الأسمى والأبعد منالاً بعديد جهاته، في حين أن ليس هنالك إلا وجهة واحدة وسر واحد، وإنني لأفضل العدم على التحول عن هذه الوحدة.ً والحق أنكم حيث تشهدون انحدارا وسقوط أوراق من الأدواح، فهنالك تشهدون تضحية الحياة من أجل القوة.

٢

لقد وجب عليَّ أن أكون أنا الجهاد والمستقبل والهدف، وأن أكون في الوقت نفسه الحائل الذي يعترضين في انطلاقي إلى هدفي؛ لذلك لا يعرف الإنسان الطريق المتعرجة التي عليه أن يسلكها إذا هو لم يدرك حقيقة إرادتي.

بدعه، ومهما بلغ حبي له فإن عليَّ أن أنقلب له خصما،مهما كان الشيء الذي أتحول عن حبي وحناني، ذلك ما قضته إرادتي عليَّ.

وأنت، أنت يا من تطلب المعرفة ليس لك من سبيل غير سبيلي، فعليك أن تقتفي أثر إرادتي، وما تقتفي إرادتي إلا آثار إرادة الحق.

ما عثر على الحقيقة من قال بإرادة الحياة؛ لأن مثل هذه الإرادة لا وجود لها، وليس للعدم إرادة كما أن املتمتع بالحياة لا يمكنه أن يطلب الحياة.

ولا إرادة إلا حيث تتجلى حياة، ومع هذا فإن ما أدعو إليه إن هو إلا إرادة القوة لاإرادة الحياة.

إن هنالك أمورا كثيرة يراها الحي أرفع من الحياة نفسها، وما كان ليرى أشياء أفضل من الحياة، لو لم تكن هنالك إرادة القوة.

هذا ما علمتني إياه الحياة يوما، وأنا بهذا التعليم أهتك أسرار قلبكم، أيها الحكماء،فأقول لكم :إنه ليس هنالك من خير دائم وشر دائم؛ لأن على الخير والشر كليهما أن يندفعاً أبدا إلى التفوق والاعتلاء

وأنتم أيها الواضعون للقيم أقدارها بمقاييسكم وموازينكم، وبما تقولونه عن الخيروالشر هل كان لكم أن تفعلوا هذا لو لم تكن لكم إرادة القوة؟ وما تطمحون في أعماق ضمائركم إلا إلى الشهرة والشعور بتأثركم وفيضان أرواحكم .إنكم تجهلون أن في الأمورالتي تخضعونها لتقديركم قوة أعظم من تقديركم تنمو وتتفوق على ذاتها لتحطم غلافهاً وقشورها، فمن أراد أن يكون مبدعا سواء أكان في الخير أم في الشر، فعليه أن يبدأ بهدم ما سبق تقديره وبتحطيمه تحطيما .وهكذا فإن أعظم الشر يبدو جزاء من أعظم الخير،ولكن هذا الخير لم يُعط إدراكه إلا للمبدعني.

لقد حق علينا القول، أيها الحكماء، مهما كلفنا الجهر به فإن الصمت أشد وطأةُ علينا؛ لأن كل حقيقة نكتمها إنما تتحول إلى سم زعاف فينا، فلنحطم الحقائق التي نجهربها ما يمكنها أن تُ ◌َ◌ّحطم فإن هنالك أبنية عديدة يجب علينا أن نرفعها.

الكهنة:

وتمثَّل زارا مرور رهط من الكهنة أمامه، فقال لأتباعه :هؤلاء هم الكهنة، فعليكم وإنَّ كانوا أعدائي أن تمروا أمامهم صامتين، وسيوفكم ساكنة في أغمادها فإن بينهم أبطالا ومن تحملوا شديد العذاب فهم لذلك يريدون أن يعذبوا الآخرين

إنهم لأعداء خطرون، وما من حقد يوازي ما في اتضاعهم من ضغينة، وقد يتعرض من يهاجم إلى تلطيخ نفسه، ولكن بيني وبينهم صلة الدم وأنا أريد أن يبقى دمي مشرفً حتى في دمائهم.

وعاد زارا يتمثل أنهم مروا وانصرفوا، فشعر بألم شديد قاومه لحظة حتى سكن روعه، فقال :إنني أشفق على هؤلاء الكهنة، وأنا لا أزال أنفر منهم، ولكنني تعودتً الإشفاق مرغما نفوري منذ صحبت بني الإنسان، ومع ذلك فأنا أتألم مع الكهنة؛ لأنهم في نظري سجناء يحملون وسم املنبوذين في العالم، وما كبَّ ً لهم بالأصفاد إلا من دعوه مخلصاَ لهم، وما أصفادهم إلا الوصايا الكاذبة والكلمات الوهمية، فليت لهؤلاء من يُخلِّصهم من مخلِّصهم.

لقد لاحت لهؤلاء الناس جزيرة في البحر على حين ثارت عليهم زوبعة؛ فنزلوا إليها فإذا هم على ظهر تنين نائم على العباب.

ً وهل من تنين أشد خطراً على أبناء الحياة من تنني الوصايا والكلمات الوهمية، وقد كمن فيها المقدور طويلا ً حتى حان وقت انتباه التنني؟ وها هو يهب مفترسا جميع من بنوا مساكنهم على ظهره.

انظروا إلى المساكن التي بناها هؤلاء الكهنة، وقد أسموها كنائس وما هي إلا كهوف تنبعث روائح التعفن منها، وهل للروح أن ترتفع إلى مستواها تحت لألاء هذه الأنوار الكاذبة وفي هذا الجو الكثيف، حيث لا يسود إلا عقيدة تَصعد بصعود درجات الهيكل زحفًا على الركب

إنني لأفضل أن أنظر إلى اللحظات الفاحشة من أن أرى هذه العيون أطبقت أجفانها معلنة خشوعها واستغراقها.

من ذا الذي اخترع هذه الكهوف وهذه الدرجات يرقاها النادمون زاحفني، أهي من إيجاد من استحيوا من صفاء السماء فلجئوا إلى الاستتار؟ لن أعود بقلبي لألج مساكن هذا الإله إلا إذا انثملت قبابها، واخترقها نور السماء الصافية لتتكشف عن الشقائق الحمراء النابتة على جدرانها المتهدمة.

لقد أراد هؤلاء الكهنة أن يعيشوا كأشلاء أموات؛ فسربلوا جثثهم بالسواد فإذا هم ألقوا مواعظهم انتشرت منها رائحة اللحود.

إن من يجاور هؤلاء الناس فكأنما هو ساكن على ضفة الأنهار السوداء حيث لا يسمع إلا نقيق الضفادع الحزين.

ليسمعني هؤلاء الناس نشيداً غير هذا النشيد لأمرن نفسي على الاعتقاد بمخلِّصهم؛ إذ لا يلوح لي أن أتْباع هذا المخلص قد ظفروا بالخلاص.

لكم أتمنى أن أراهم عراة، وهل لغير الجمال أن يدعو الناس إلى التوبة، ولكنهم عبارة عن فجائع مستترة لا يسعها أن تجتذب إلى الإيمان أحداً.

والحق أن مخلصي هؤلاء الكهنة نفسهم لم ينحدروا من سماء الحرية، وما وطئوا مسالك المعرفة قط، فما كانت حكمتهم إلا نسيجا ملأته الخروق رقَّعوه بما أوجد جنونهم من آلهة، لقد أغرقتهم حكمتهم في بحرية الإشفاق، فهم كلما زفروا فيها أرسلوا بجثة عظمى تطفو على سطحها.

لقد زعق هؤلاء الرعاة بقطعانهم فمضت متدافعة في فجوة واحدة، وقد علا صراخها كأن التوصل إلى مخارج المستقبل ممتنع من غير هذه الفجوة الضيقة أما والحق ما هؤلاء الرعاة إلا فريق من هذه السائمة، وقد ضاقت عقولهم ورحبت نفوسهم وسرعان ما تصغر العقول إذا كبرت النفوس.

لقد تركوا على كل معبر اجتازته أرجلُهم آثار الدماء؛ إذ كانوا يستلهمون جنونهم ليعلموا الناس أن الدماء تقوم شاهدة للحق، وقد جهلوا أن أفسد شهادة تقوم للحق إنما هي شهادة الدم؛ لأن الدم يقطر سما على أنقى التعاليم فيحولها إلى جنون وإلى أحقاد.

أفتقيمون للحق دليلا من اقتحام أحد الناس للهب في سبيل تعاليمه، وهل لمثل هذا التعليم ما للعقيدة التي تتولد من لهبها نفسه؟ إذا ما تلاقى رأس بارد بقلب.

ولكم وجد على مضطرم نشأت من التقائهما تلك العاصفة التي يدعوها الناس مخلِّ الأرض من رجل أعرق منشأ وأرفع مقاما ممن يدعوهم الشعب مخلصين، وما كان هؤلاء المخلصون إلا عاصفات كاسحات تهب متوالية على الأرض.

إذا ما كنتم تنشدون سبل الحرية، أيها الإخوة، فعليكم أن تنقذوا أنفسكم حتى ممن يفوقون هؤلاء المخلصني عظمة ومجدا، فإن الإنسان المتفوق لم يظهر على الأرض بعد.

لقد حد قت بأعظم رجل وبأحقر رجل عن كثب وهما عاريان فظهرا لعيني متشابهين؛ بل رأيت أعظمهما أشد توغلا في المعائب البشرية من الآخرين.

الفضلاء:

لا ينبه الشعور الغافل إلا الإرعاء والإبراق، وما تكلم الجمال إلا بنبرات هامسة لا تنفذ إلا إلى أشد الأرواح انتباهاً.

أسمعتني عصمتي اليوم ضحكة تعالت فيها قهقهة الجمال السامية، فجمالي يسخربكم أيها الفضلاء؛ إذ سمعته يقول :إنهم يطلبون لفضائلهم ثمنًا.

إنكم تتقاضون ثمن فضيلتكم وتطالبون بالجزاء، أيها الفضلاء، طامحني إلى امتلاك أماكن في السماء، بدلا من أماكن في الأرض، وإلى الظفر بالأبدية بدلا من الدهر الزائل.

إنكم لتحقدون عليَّ؛ لأنني أعلم الناس أن ليس هنالك لا حسيب ولا ثيب، والحق أنني أمتنع عن القول بالثواب، بل أذهب إلى أبعد من هذا فأقول أن ليس للفضيلة ماتجزي به نفسها جميل الجزاء.

إن ما يؤلمني هو أن العقاب والثواب قد دسا دسا في غاية كل أمر، بل حشر حشرا فى هذه النفوس ذاهبة فيها كقرنفي أعماق نفوسكم، أيها الفضلاء، ولكن لكلمتي أن الوعل وكالسكة تشق الأرض لتحرثها .فلتتكشف نفوسكم عن خفاياها أمام النور؛ لأن الحقيقة لن تنفصل عن الضلال فيكم حتى تنطرحوا عراة تحت شعاع الشمس ذلك لأن حقيقة ذاتكم إنما هي أطهر من أن تسمح بتدنسكم بكلمات الانتقام والعقاب والمكافأة والمقابلة بالمثل.

إنكم تحبون فضيلتكم كما تحب الأم طفلها، وهل سمعتم أن أما طلبت مكافأة على عطف الأمومة فيها؟

هل فضيلتكم إلا ذاتكم نفسها وهي أعز ما لكم، وما أمنيتكم إلا أمنية الحلقة التي لا تلتوي وتستدير إلا ليصبح آخرها أولا لها.

إن كل عمل ينشأ عن فضيلتكم إنما هو بمثابة نور كوكب يعروه الانطفاء، فما يزال نوره يخترق مجراه في الأفلاك، وليس من حد ينتهي سيره إليه، وهكذا لن تزال أشعة فضيلتكم سائرة في سبيلها حتى بعد انتهاء عملها وتواريه في عالم النسيان؛ لأن إشعاع الفضيلة مستمر لا يعروه زوال

لتكن فضيلتكم تعبيرا عن ذاتكم وما تلك غريبة عن هذه فلا تحسبوا أنها جلْ هذه هي حقيقة روحكم الكامنة أيها العقلاء، ولكن من الناس من يخيل له أن الفضيلة عبارة عن تشنج تحت السياط الجالدة، ولطالما سمعتم صياح هؤلاء الواهمين.

ومن الناس من يرى الفضيلة في الكسل والرذيلة، وما ينتبه عدلهم إلا عند ما يتثاءب حقدهم وحسدهم، عندئذ يفركون أجفانهم وقد أثقلها النعاس.

من الناس من تشدهم شياطينهم إلى أسفل فكلما تدهوروا على الدركات زادت أحداقهم توهجا وتزايد شوقهم إلى ربهم إن صوت هؤلاء المتدهورين يبلغ آذانكم، أيها الفضلاء، وهم يصيحون :إن كل ما هو خارج عن كياني إنما هو الله وإنما هو الفضيلة.

وهنالك آخرون يتقدمون مثقلين مقرقعين كأنهم عجلات تحمل صخوراً إلى الوادي،وهؤلاء الناس لا ينون يتكلمون عن الفضيلة، وما الفضيلة في عرفهم إلا عبارة عن كابح عجلاتهم.

وهنالك قوم أشبه بالساعات يربط زنبركها فتسمعك تكتكتها، وهم يريدون أن تُدعى حركتهم الآلية فضيلة إنني ألهو بمشاهدة مثل هذه الساعات؛ لأنني ما صادفتها مرة إلا ربطت زنبركها بتهكمي وأكرهتها على تحريك رقاصها

وهنالك المغترون بذرة من العدل ترتفع فيهم على جبل من الدعوى، فتراهم يجدفون على كل شيء إلى أن يغرقوا العالم بظلمهم، وما تخرج كلمة الفضيلة من أفواه هؤلاء الناس إلا وتحسب أنهم يتجشئونها، وإذا قال أحدهم :لقد عدلت فكأنه يقول :انتقمت.

هؤلاء من يريدون أن يفقئوا أعين أعدائهم بفضيلتهم، وما يطلبون من الاعتلاء إلاإسقاط سائر الناس.

وهنالك من يدب إليهم الفساد كأنهم ماء آسن في المستنقعات، فهؤلاء الناس يعلنون أنهم لا ينهشون أحد ا ويتحاشون الالتقاء بالناهشين، فإذا عرض عليهم أي رأي أخذوا به تفاديًا لكل أخذ ورد.

وهنالك عشاق الحركات المعتقدون بأن الفضيلة نوع من الإيمان، فتراهم في كل حين جاثين على ركبهم وقد قبضت إحدى راحتيهما على الأخرى تمجيدا للفضيلة، وما يدرك قلبهم منها شيئًا.

وهنالك من يرون الفضيلة في القول بلزوم الفضيلة، وهم لا يعتقدون إلا بلزوم ردع الشر بالقوة.

وبعض من امتنع عليهم إدراك ما في الإنسان من صفات عليا لا يذكرون الفضيلة إلا عندما ما يحدقون بما فيه من دنايا، وهكذا لا تنشأ فضيلة هؤلاء القوم إلا من عيوب عيونهم

من الناس من يطلب المعرفة وتقويم ما التوى فيه فيدعو هذه النزعة فضيلة، ومنهم م ن يطلب قلب كيانه رأس على عقب فيدعو هذه الرغبة فضيلة أيضاً، وهكذا ترى الجميع يعتقدون بوجود الفضيلة في ناحية من نواحي كيانهم، وتراهم يتجهون إلى معرفة ما فيهم من خير وشر .

غير أن زارا قد جاء إلى جميع هؤلاء المخادعين وإلى جميع هؤلاء المجانين؛ ليقول لهم إنهم لا يعرفون عن الفضيلة شيئًا وأن ليس في وسعهم أن يعرفوها.

ما أتى زارا إلا ليشعركم بأنكم تعبتم من تكرار الأقوال القديمة التي علمكم إياها المخادعون والمجانين، فينفركم من كلمات المكافأة والمقابلة بالمثل والعقاب والانتقام في العدل؛ لتقلعوا عن القول بصلاح الأعمال عند تجردها عن الغايات.

لتكن ذاتكم متجلية في عملكم كما تتجلى الأم في طفلها، وليكن هذا التعبير ما تعرفون الفضيلة به.

والحق أنني انتزعت منكم كثيًرا من أقوالكم وسلبتكم أعز ما تتلهون بمضغه عن الفضيلة؛ لذلك أراكم تزورون كالأطفال، وقد كنتم مثلهم تتسلون بألعابكم على الشاطئ فطغت موجة انتزعتها من بين أيديكم وحملتها إلى العباب، فها أنتم تعولون الآن كهؤلاء الأطفال، غير أن الأمواج ستكر راجعة حاملة إليهم ألعابًا جديدة ناثرة بين أيديهم الأصداف املخططة، وأنتم أيضا أيها الصحاب ستسلون مثلهم حين تأتيكم التعزية ناثرة بين أيديكم الأصداف المخططة.

وكرت الأشهر وتوالت السنون على زارا وهو لا يشعر بها، مع أنها جلَّلت بالبياض ناصيته وَديه.

وفَ وجلس زارا يوما على حجر أمام غاره، وأرسل نظراته إلى بعيد ترود تعاريج الأودية وقد ظهر شيء من أفق البحر عند منتهاها السحيق، وبينما هو مستغرق في تفكيره دارَ حوله نسره وأفعوانه ثم مثلا أمامه قائلني له :علام ترسل نظراتك يا زارا، أتُراك تفتش على سعادتك؟.

فأجاب :ما لي وللسعادة، لقد انقضى الزمان الذي كنت أتوقع السعادة فيه، فماأتشوق الآن إلا إلى أعمالي.

فقال الحيوانان :إنك تتكلم كمن تغلغل الخير فيه، أما أنت عائم على بحيرة من السعادة ينعكس على صفحتها أديم السماء؟ فأجاب زارا وهو يبتسم :لقد أجدتما التشبيه، ولكنكما تعلمان أيضا أن سعادتيً ثقيلة، ولا شبه بينها وبين الأمواج هجوما وتراجعا، فهي تزحمني ولا تبتعد عني وتلتصقُّ بي كأنها الراتنج المذوب.

ودار الحيوانان مرة ثانية حول زارا وعادا يتفرسان به قائلين له :لقد عرفنا السبب إذن في اصفرار لونك واكمداده وتحول لون شعرك إلى لون القنَّب، أفلا ترى أنك غارق في المادة الراتنجية اللزجة وفي شقائك؟ وتضاحك زارا قائلا :والحق أنني جدفت عندما ذكرت املادة الراتنجية، فما حدث لي إلا ما يحدث لكل ثمرة يتداركها النضوج أن العسل هو ما يخثر دمي، ويزيد نفسي استغراقًا في صمتها.

وتقرب النسر والأفعوان من سيدهما وقالا :إن الأمر كما تقول ولكن أفلا تريد اليوم أن تصعد إلى الجبل العالي فالهواء نقي يشعرك بلذة الحياة.

فقال :إنكما تعربان عن مشتهاي فأنا أتوق اليوم إلى تسلق املرتفع، ولكن عليكما أن تتداركا لي عسلا من القفير الذهبي، عسلا أصفر وأبيض من أجوده وأبرده؛ لأنني أريد أن أبذله تقدمة إلى الذرى.

ولما وصل زارا إلى القمة وأطلق للحيوانين سراحهما رأى نفسه منفردا، فابتسم وأدارً لحاظه ما حوله قائلا : لقد تعللت بتقدمة العسل لأتمكن من الانفراد بنفسي فأتكلم حرا على القمة بعيدا عن منازل النساك وحيواناتهم.

طليقً عندما كنت أذكر التضحية كنت أبدد ما وهب لي بألف راحة ، فكيف أجسرأن أدعو هذا العمل اليوم تضحية؟ إنني عندما طلبت العسل لم أطلب سوى طعمة ، فأردت أخذها من القفيرالمذهب الذي تتشوق إلى التلذذ به الأطيار والدببة.

طلبت خير طعمة يستعملها الصائدون على اليابسة وفي البحر، فإن الدنيا عبارة عن غابة تغص بالحيوانات وحديقة يتنعم بها كل صائد وحشي، ولعلها أشبه ببحرزاخر لا قعر له، فهي والحق بحر محتشد بالأسماك على أنواعها وعديد ألوانها مما يثري شهية الآلهة أنفسهم حتى إنهم ليصبحوا صيادين يرمون بشباكهم إلى هذا العالم المليء بالعجائب والغرائب كبريها وصغيرها، وأخص من الدنيا عالم الناس برهم وبحرهم فأنا أرسل في مجالاته شبكتي املذهبة هاتفً ا :انفتحي أيتها الأغوار البشرية

انفتحي واقذفي إليَّ بأسماكك اللامعة، فلسوف أتمكن اليوم بخير طعمة أستهوي بها الأسماك البشرية من اصطياد خيارها، وما هذه الطعمة إلا سعادتي نفسها أنشرها إلى الأبعاد بني املشرق والجنوب والمغرب، وأنظر ما إذا كان العدد الغفري من الأسماك البشرية يتعلمون تذوق سعادتي والاشتباك بها، حتى إذا تغلغلت في حناجرهم طعمتي يضطرون بالأغوار إلى قرب أشر صياد إلى الارتفاع نحو مستواي، وهكذا يرتقي أشد الأسماك تعلقً يصطاد بني الإنسان، وما أنا إلا ذلك الصياد منذ نشأتي وفي أعماق روحي فأنا الجاذب المستهوي المزحزح الرافع والمثقف المعلم .أنا من قال من قبل :يجب عليك أن تصير من أنت .فليرتفع الناس إليَّ الآن لأنني أنتظر الإشارات التي تعلن لي أن زمن نزولي قد حان،فإنني لم أنزل بني الناس بعد كما وجب عليَّ أن أنزل؛ لذلك أنتظر هنا على قمة الجبل.

الرحماء:

لقد بلغني، أيها الصحاب، قول الناس أما ترون زارا يمر بنا كأنه يمر بني قطيع من الحيوانات وكان أولى بهم أن يقولوا :إن من يطلب المعرفة يمر بالناس مروره بالحيوانات.

إن طالب المعرفة يرى الإنسان حيوانًا له وجنتان حمراوان.

ولم يراه هكذا؟ أفليس لأنه كثيرًا ما علته حمرة الخجل؟ هذا ما يقوله طالب المعرفة أيها الصحاب :إن تاريخ الإنسان عار في عار.

ولذلك يفرض الرجل النبيل على نفسه ألا يلحق إهانة بأحد لأنه يستحيي جميع المتأملين.

إنني والحق أكره الرحماء الذين يطلبون الغبطة في رحمتهم، فإذا ما قضي عليَّ بأن أرحم تمنيت أن تُجهل رحمتي وألا أبذلها إلا عن كثب أحب أن أستر وجهي عند إشفاقي وأن أسارع إلى الهرب دون أن أعرف، فتمثلوا بي أيها الصحاب.

ً ليت حظي يسوقني أبد ا حيث ألتقي أمثالكم رجالا لا يتألمون، وفي طاقتهم أن يشاركوني آمالي وولائمي وملذاتي.

لقد قمت بأعمال كثرية في سبيل المتأملني، ولكن كنت أرى أن الأفضل من هذا زيادة معرفتي في تمتعي بسروري فإن الإنسان لم يسر إلا قليلا منذ وجوده، وما من خطيئة حقيقية إلا هذه الخطيئة.

إذا نحن تعلمنا كيف نزيد في مسرتنا فإننا نفقد معرفتنا بالإساءة إلى سوانا وباختراع ما يسبب الآلام.

ذلك ما يدعوني إلى غسل يدي إذا أنا مددتها لمتألم، بل وإلى تطهير روحي أيضاً؛ لأنني أخجل لخجله وتؤلمني مشاهدتي لآلامه، ولأنني جرحت معزة نفسه بلا رحمة عندما مددت له يدي.

إن عظيم الإحسان لا يولِّد الامتنان بل يدعو إلى إيقاد الحقد، وإذا تغلب تافه الإحسان على النسيان فإنه يصبح دودا ناهشا.

لا تقبلوا شيئًا دون احتراس، وحكموا تمييزكم عندما تأخذون، ذلك ما أشير به على من ليس لهم ما يبذلونه للناس.

أما أنا فممن يبذلون العطاء، وأحب أن أعطي الأصدقاء كصديق، أما الأبعدون فليتقدموا من أنفسهم لاقتطاف الأثمار من دوحتي فليس في إقدامهم على الأخذ ما في قبولهم العطاء من مهانة لكرامتهم.

غير أنه من اللازب أن يُقطع دابر المتسولين؛ لأن في الجود عليهم من الكدر ما يوازي كدر انتهارهم وحرمانهم.

وكذلك هو حال الخطاة وأهل الضمائر المضللة؛ فإن تبكيت الضمير يحفز الإنسان إلى النهش وإيقاع الأذى.

وشر من كل هذا الأفكار الحقيرة، وخير للإنسان أن يسيء عملا من أن تستولي المسكنة على تفكيره

إنكم تقولون إن في التفكير الملتوي كثيًرا من الاقتصاد في شرالأعمال وما يستحسن الاقتصاد في مثل هذا.

إن لشر العمل أكلانًا والتهابًا وطفحا كالقروح، فهو حر وصريح؛ لأنه يعلن نفسه داءً كما تعلن القروح، في حين أن الفكرة الدنيئة تختفي كنوامي الفطر، وتظل منتشرة سر في أذن من تملَّكه الوسواس الخناس :إن من الخير أن تدع الوسواس يتعاظم فيك؛ لأن أمامك أنت أيضا سبيلا يوصلك إلى الاعتلاء حتى تودي بالجسم كله.

في الجزر السعيدة:

ها إن التين يتساقط عن أشجاره عطَر النكهة حلو المذاق، وقشوره الحمراء تتشقق بسقوطها، وأنا هو ريح الشمال يهب على هذه الأثمار الناضجة إن تعاليمي تتساقط إليكم أيها الصحاب كمثل هذه الأثمار فتذوقوها الآن عند ظهيرة من أيام الخريف وقدصفت فوقكم السماء.

سرحوا أبصاركم فيما حولكم من خيرات الأرض، ثم مدوا بها إلى آفاق البحر البعيد فليس أجمل لمن فاض رزقه من أن يتطلع إلى الأبعاد.

لقد كان الناس يتلفظون باسم الله عندما كانوا يسرحون أبصارهم على شاسعات البحار، أما الآن فقد تعلمتم الهتاف باسم الإنسان المتفوق

إن الله افتراض وأنا أريد ألا يذهب بكم الافتراض إلى أبعد مما تفترض إرادتكم المبدعة.

أفتستطيعون أن تخلقوا إلها؟ إذن أقلعوا عن ذكر الآلهة جميعا، فليس لكم إلا إيجاد الإنسان المتفوق.

ولعلكم لن تكونوا بنفسكم هذا الإنسان، ولكن في وسعكم أن تصبحوا آباء وأجدادا له، فليكن هذا التحول خير ما تعملون.

إن الله افتراض وأنا أريد ألا يتجاوز بكم الافتراض حدود التصور، فهل تستطيعون أن تتصوروا إلها؟ فاعرفوا من هذا أن واجبكم هو طلب الحقيقة فلا تطمحوا إلى ما لا يبلغه تصور الإنسان وبصره وحسه، أمسكوا بتصوركم كيلا يتجاوز حدود حواسكم.

يتحتم عليكم أن تبدءوا بخلق ما كنتم تسمونه عالما من قبل؛ فيتكون عالمكم من تفكيركم وتصوركم وإرادتكم ومحبتكم وعندئذ تبلغون السعادة يا من تطلبون المعرفة،

وكيف تطيقون الحياة إذا لم يكن لكم هذا الرجاء؟ على من يطلب المعرفة ألا يتورط في ما يريده العقل من المعمات.

لسوف أفتح لكم قلبي فلا تخفى عنكم خافية فيه، فأقول لكم :لو كان هنالك.

الأمنية العظمى:

أي نفسي !لقد علمتك أن تقولي كلمة اليوم كما تتلفظني بكلمتيأمس وما قبله وأن ترقصي فوق كل مندثر أينما كان.

أي نفسي !لقد حررتك من كل قيد خفي وطهرتك من الأدران، وأقصيت عنك العناكبوكل نور يخالطه ظلام.

أي نفسي !لقد نفضت عنك صغائر حيائك وكمينات فضائلك، وأقنعتك بالخروج عارية أمام عني الشمس.

لقد نفخت عاصفة الفكر على بحرك املضطرب، وجلوت الغيوم السوداء من آفاقك،وقضيت فيك على الإثم القاتل.

أي نفسي، لقد أوليتك الحق بأن تقولي لا كما تقول العاصفة، وأن تقولي نعم كما تقول صافيات الآفاق، فأصبحت هادئة كالنور يجتاز العواصف النافيات المانعات.

طني بها على ما هو كائن وعلى ما لم يتكون أي نفسي، لقد أطلقت لك الحرية تتسلَّ بعد، فما شعرت نفس بمثل ما تشعرين من ملذات آتي الزمان.

أي نفسي، لقد علمتك أن تحتقري احتقارا لا ينخر كالسوس، علمتك الاحتقار الذاهب إلى أقصى المحبة أو إلى أقصى التحقير

أصبحت أي نفسي، لقد علمتك الإقناع حتى خضعت الأسباب والمقدمات لماَ كالشمس تُقنع البحار بأن تتعالى إلى مدارها.

أي نفسي، لقد نزعت منك كل خضوع وخنوع ومتابعة واستعباد حتى رأيتك سائدة لكل شقاء، ومتحكمة في الدهر لأنك أنت هي المقدور.

أي نفسي، لقد منحتك أسماء جديدة، ومتعتك بألعاب متنوعة فدعوتك المقدور ومحيط المحيط وقطب الزمان ومئذنة الآفاق.

أي نفسي، لقد أغدقت الحكمة كلها على مملكتك الأرضية، وأترعت كئوسها بخمرة المعرفة المعتقة منذ أقدم العصور.

أي نفسي، لقد غمرتك بجميع الأنوار والظلمات، وكل ما في الكون من سكنات وشهوات، فرأيتك تنمين أمامي كما تنمو الجفنة في الكروم.

أي نفسي، ما أنت الآن إلا دالية في الكرمة أثقلك جنيك، ونهدت أثداؤك عناقيد يلوح سمرتها النضار، لقد أرهقتك السعادة الكامنة فيك فأنت صابرة خجولة من صبرك.

أي نفسي، ليس في الكون من نفس أشد منك حبًا ورحابة وحنانًا، فأين يتقارب الماضي والمستقبل إن لم يتقاربا في مجالك.

أي نفسي، لقد وهبتك كل ما ملكت يدي، والآن أراك تبتسمين قائلة :على أي من كلينا حقت كلمة الشكران؟

أفليس على الواهب أن يشكر من تفضل بقبول هبته؟ وهل العطاء إلا حاجة في نفس من أعطوا، والأخذ إلا إشفاق في نفس الآخذين؟

أي نفسي، إنني أدرك مغزى ابتسامتك ومعنى شجونك، فأنت الآن تمدين راحات إقبالك مترعة بشهوة العطاء، وتمدين أبصارك على البحار املزبدة وقد ابتسم في عينيك صفاء السماء.

من له أن يرد دموعه عن الفيضان، إذا لاحت له ابتسامتك يا نفسي؟ إن ما في هذه البسمة من العطف والحنان ليستهوي املائكة للبكاء.

إن عطفك وقد تجاوز حده يمتنع عن النواح والعويل في حين أن ابتسامتك تتشوق إلى البكاء ونحُرك يتهدج بالنحيب.

إنك تتناجني قائلة :إن كل دمعة فيها أنني وفي كل أنني شكاية؛ ولذلك تفضلين الابتسام على الجهر بما تتحملين من خيراتك، ومن شوق يهز جوارحك ارتعاش الكرمة تتوق إلى مقاطع القاطفين.

الوصايا القديمة والوصايا الجديدة:

أفهمتهم يا إخوتي هذه الكلمة، وما قلته لكم أولا عن الإنسان الأخير؟أفما اتضح لكم أن الخطر الأكبر المهدد مستقبل الإنسانية إنما هو كامن في مبادئ أهل الصلاح وأهل العدل.

هيا !حطموا الصالحين والعادلين.

وعساكم تدركون معنى هذه الكلمة أيضا.

أراكم تذهبون بددا من حولي، أراكم ترتعشون فكأن كلمتي هذه أدخلت الرعب إلى قلوبكم.

أي إخوتي، إنني ما دفعت بسفينة الإنسان نحو الغمر إلا عندما أهبت بكم إلى تحطيم الألواح وإسقاط الصالحين، وها إن الرعب الأعظم يستولي على من دفعت إلى اجتياز الغمرَ فقد غارت عيناه وحكمه دوار البحار.

لقد أراكم أهل الصلاح وجهات الأمور الخادعة، وعللوكم بحالات أمن كاذب، وكنتم واجهتم أكاذيبهم وأنتم أطفال فما انقطعتم عن الالتجاء إليها.

لقد شوهوا كل شيء وأفسدوه حتى في أصوله

ولكن من اكتشف الإنسان لم يفته اكتشاف مستقبل الإنسانية، فكونوا لي أيها الإخوة البحارة الشجعان المجالدين، وهيا بنا إلى الأمام نشق عباب البحر مقتحمين أمواجه الصاخبة، تعلَّموا السير على الوجهة المستقيمة فإن كثيرين يحتاجون إلى الاقتداء بكم.

البحر هائج وفي البحر كل شيء، فإلى الأمام أيتها العزائم، عزائم البحارة القدماء.

ما يهمنا ما يدور بنا، إننا ننشر الشراع قاصدين وطن أبنائنا ما وراء الغمر حيث ترغي وتزبد أشواقنا الهائجات.

قال الفحم يوما للماس :من أين لك هذه الصلابة؟ أما نحن نسيبان.

وأنا أقول لكم :أفما أنتم إخوتي، فمن أين جاءكم هذا الخَور؟.

لم هذه الليونة لم هذا الميعان؟ أين توكيد الذات في قلبكم وأين غارت سطور مقدراتكم فلا تلوح في أحداقكم؟.

إذا أنتم اطرحتم العزم الحاسم فكيف تتوقعون الظفر يوما إلى جانبي؟ وكيف يتسنى لكم أن تشاركوني بالإبداع إذا لم يكن لعزمكم لمعان الجراز ومضاؤه؟

هل يكون المبدع إلا صلبًا شديدا؟ وهل من غبطة لكم أعظم من أن تطبعوا يدكم على صفحات القرون فترتسم عليها كارتسامها على قطعة من الشمع؟

إنها لأعظم غبطة أن يكتب الإنسان على إرادة ألوف الأجيال والأجيال أقوى من الصلب وأسمى شرفًا؛ أن أصلب الأشياء أشرفها.

إنني أعلق فوق رءوسكم لوح هذه الوصية :اتصفوا بالصلابة وتشددوا.

◌ْ أي ◌ّ◌ٍ إرادتي، لقد آن لنا أن نضع حدا لكل الصغائر، وما لي من مطلب سواك؛ لأنك وحدك سؤلي ومقصدي أنقذيني من كل انتصار حقير.

وأنت أيتها الصدفة التي أدعوها مقدراتي، أنت القائمة في ذاتي فوق ذاتي احفظيني وأعدي للعظائم نفسي.

احتفظي أيتها الإرادة للخاتمة بآخر عظمة فيك، كيلا يهي عزمك عند نوالك الظفر؛ لأن ليس من أحد لا يسقط عندما يبلغ الانتصار.

وا أسفاه !أية عني لم يغشاها الظلام في سكرة الظفر، سكرة الغسق، واأسفاه !أية قدم لم تتعثر ولم تتحول عن مسلكها ساعة الانتصار.

إنني أعد نفسي لأكون ناضجا للظهرية العظمى، فألقاها صلبًا ألانتْه النار للانطباع، وغمامة تتمخض بالبروق، وضرعا يتفجر بدره.

أريد أن أهيِّئ ذاتي وصميم إرادتي فأصبح كالقوس ألتوي شوقًا لاحتضان سهمه،وكالسهم يطري شوقًا نحو كوكبه

أريد أن أكون الكوكب المتألق بأنواره في الظهرية العظمى، وقد هزته الغبطة والسهم السماوي يخترقه ليفنيه.

أريد أن أتحول شمسا وإرادة شمس لا تتزعزع، فأكون مهيًّأ للاندثار في أفق الانتصار.

هذا ما أطمح إليه، فلنضع حدا يا إرادتي لكل الصغائر، أنت مقصدي، فاحفظيني للظفر الأعظم.

النقاهة:

١

وما كانت مضت أيام طويلة على عودة زارا واستقراره في غاره، حتى هب يوما من رقاده كالفاقد الرشد، وأخذ يصيح ويعربد مشيًرا إلى مرقده كأن عليه شخصا غريبًا يحاول طرده، وساد القلق حيوانَي زارا؛ فدارا حوله وحكم الرعب جميع الحيوانات ، فإذا هي تدب وتزحف وتتطاير هاربة إلى بعيد.

وبقي زارا في موقفه قائلا :هيا !انهضي أيتها الفكرة الرائعة المنبثقة من أعماق ذاتيً؛ لقد كنت لك فجرا وأعلنت انجلاءك كالديك الصائح، وأنت لا تزالين منطرحة كالتين،افتحي أذنيك واسمعي؛ لأنني أريد أن تطلقي صوتك أنت، انهضي فإن هنا من الصواعقً حتى القبور أن تصيخ سمعاً

افركي أجفانك واسمعي بعينيك ما أقول لك، فإن صوتي يهب النظر حتىمملن ولدوا ، فإذا ما انتبهت مرة فلن يعاودك الرقاد؛ لأنني ما تعودت إيقاظ الجدود الأقدمين عمياناً لأسمح لهم بالرجوع إلى نومهم العميق.

أراك تتحركين وتتثاءبين، فانهضي وتكلمي، إن زارا يدعوك، إن من يهيب بك للنهوض إنما هو الكافر زارا.

أنا هو زارا مؤكد الحياة، مؤكد الألم، مؤكد الدائرة الأبدية، أدعوك يا أعمق فكرة بين أفكاري يا لابتهاجي !إنني أراك قادمة، فها أنذا أسمع صوت هاويتي لقد نفضت نحو النورآخر أغواري.

يا لسروري !تقدمي إليَّ هاتي يدك.

لا ..لا ... أرجعيها ... يا للكراهة ... ويا لشقائي!

وما نطق زارا بهذه الكلمات حتى سقط على الأرض كامليت، وطالت غيبوبته حتى إذا ثاب إليه روعه حكمه ارتعاش شديد، وشحب وجهه وانطرح سبعة أيام على فراشه لا يتناول طعاما ولا شرابًا، وكان تابعاه من الحيوانات لا يبارحانه، ولكن نسره كان يذهب في طلب الغذاء ويعود حتى كدس أنواع البقول والفاكهة حول المرقد، وطرح أمامه نعجتنين

اختطفهما بكل عناء من القطعان السارحة وقد نام عنها رعاتها

وبعد سبعة أيام جلس زارا على مرقده وأخذ تفاحة ينشق نكهتها، فخيل لحيوانيه أن الزمن قد حان فقالا له :لقد مرت سبعة أيام يا زارا، وأنت مثقل الأجفان أما آن لك أن تنهض، اخرج من غارك فإن كل شيء يتشوق إليك؛ فالهواء يهب بالعطور نحوك والغدران تتسارع إلى لقياك، وكل شيء يتوق إلى معالجتك وشفائك.

هل أتاك يقين جديد، فأرهقك بثقله وفعلت خمريتُه فعلها فيك؟ فقد رأيناك ساكنً كالعجين المنتفخ باختماره، وشعرنا بروحك تتدفق من جنبيك.

شدد عزمي بالإصغاء إلى هذه فأجاب زارا :اذهبا في ثرثرتكما، يا حيواني ودعاني الروح إن الثرثرة لتبسط العالم كله أمامي كحديقة مترامية الأطراف.

إن العذوبة كلها كامنة في الكلمات والأصوات، فما هي إلا جسور من الوهم ممدودة بين الكائنات المنفصلة إلى الأبد.

لكل نفس عالمها فهي تجد في كل نفس أخرى عالماً آخر، وكلما ازداد التشابه بينً الأشياء ازداد خداع السراب بينها، وأصعب المآزق اجتيازاً أضيقها.

إنني لا أدرك كيف يمكن أن يوجد شيء ليس فيَّ أنا؛ لأن نفي الذات ممتنع، غير أن جميع الأصوات تنسينا هذه الحقيقة وخير لنا أن نتمكن من نسيانها

ما أعطيت الأسماء والأصوات إلا لتشديد عزم الإنسان، وهل اللغة إلا جنون له لذته؟ أما ترى الإنسان يرقص بيانه على كل شيء.

ما ألذ الكلمات وما أحلى خداع الأصوات !فإنها ترقص حبنا على جميع ما في قوس قزح من الألوان.

فأجاب الحيوانان قائلَين :إن من له عقليتنا يرى الأشياء متراقصة لنفسها؛ لأن كل الأشياء تتقدم إلى مسرح الوجود فتتصافح وتضحك وتنسحب ثم تعود.

الكل يذهب والكل يرجع وعجلة الكون تدور إلى الأبد، كل شيء يموت، وكل شيء يعود فتنور أزهاره ودوائر الوجود لا انتهاء لها.

تتحطم الأشياء فتتبدد، ثم تعود فتلتئم لتجديد بناء الوجود، يتفرق الشمل على وداع،فإذا بعده تسليم فحلقة الكون أمينة لذاتها إلى الأبد.

إن الوجود يبدأ في كل لحظة، فعلى محورهنا تنفتح دوائر الأجواء هنالك فالمحورمرتكز في كل مكان وطريق الأبدية كله تعاريج.

وعاد زارا إلى ابتسامه قائلا : يا لطيشكما !إنكما تعلمان جيداً ما وجب أن يتم في سبعة أيام، وياللمسخ الذي زحف إلى داخل عنقي ليكتم أنفاسي، غير أنني قضمت عنقه بأسناني فقطعت رأسه ولفظته إلى بعيد، فأتيتما تعيدانه إلى نصابه

أنا الآن متعب مما قضمت ولفظت، ولا أزال مريضاً من إجهاضي.

لقد شهدتما كل هذا، فهل أردتما التلذذ بأشد أوجاعي أسوة بالناس؟ والإنسان أقسى حيوان في الوجود؛ لأنه لا يجد ارتياحا على الأرض إلا بمشاهدة المآسي ومصارعة الثيران والصلب، وما تمتع بلذة الجنان على أرضه إلا يوم اخترع الجحيم.

إذا ما صرخ رجل عظيم سارع صغير إلى نجدته والحسد يكاد يدلي لسانه من فمه،ولكنه يسمي هذا الحسد رحمة وإشفاقًا.

خص منهم الشعراء بأي بيان ملتهب يشكون الدهرُانظر إلى صغار الناس واَ وتصاريفه، وإذا ما أصغيت إلى هذا الأنين الشاكي فلا يفوتنَّك أن تنصت لنبرات اللذة في كل شكوى.

إن الحياة تقول لمن يشكو، وهي تتحكم فيه بغمزة من عينيها :إنك عاشقي فانتظرني لحظة لأتفرغ لك.

ما يقسو حيوان على نفسه قساوة الإنسان، فإذا ما سمعت أنين من يدعون أنهم مرتكبو آثام وحَملة صلبان وتائبون فتنصت إلى أنينهم وشكواهم تسمع فيها شهقات الشهوة المتلذذة.

وهل أقصد أنا الآن بما أقول أن أشكو الإنسان؟ أي نسري وأفعواني، إن الشر الأعظم ضروري للخير الأعظم بين الناس هذا ما تعلَّمته وما تعلَّمت سواه حتى الآن.

إن الشر الأعظم لخير ما في قوة الإنسان؛ لأنه الحجر الأشد صلابة لنحت المبدع، وعلى الإنسان أن يتكامل في خيره وفي شره.

لأذهب مفتشاً عما إذا كان الإنسان شريراً، بل وقفت لم أحمل على عاتقي صليباً هاتفاً بما لم يهتف سواي بمثله فقلت :يا للأسف !أن يكون أعظم شر في الإنسان وأعظم خير فيه لا يتجاوزان هذه الصغارة.

إن هذا الاحتقار العظيم للناس هو الثعبان الذي تغلغل في حلقي، فكاد يخنقني كما كاد يخنقني أيضًا ما أنبأ به العراف إذ قال :كل الأشياء متساوية ولا شيء يستحق العناء،فالمعرفة تخنق طلابها.

وهكذا رأيت الغس ق ينسحب متعارجا أمامي، وسمعت صوتًا حزينًا متعبًا كأنه نبرات سكران يراوده الموت يقول لي :سيعود دور ا فدور ا إلى الأبد الإنسان الذي يرهقك؛الإنسان الصغير.

ذلك كان حزني المتعارج غسقًا طال انسحابه؛ فأورثني الأرق ورأيت أرض البشرِّ تستحيل أمامي إلى مغارة اتسع صدرها ضاما إليه كل حي، فلاح لي كل شيء ركام أقذاروأكوام عظام وردوم قرون .بها

وقد حكم عليه ذهب زفريي يجول بني املدافن متراميًا على لحود الناس ملتصقً إلا يغادرها؛ فبات هنالك منتحبً ًا يشكو ويردد ليلا ً ونهارا : وا أسفاه إن الإنسان سيعود، سيعود الإنسان الصغير دور ا فدورا إلى الأبد.

ولقد رأيت الناس من قبل، رأيت كبيرهم وصغيرهم، فما أشبه الأكبر بالأصغر فيهم فكلهم مستغرق في بشريته.

ما أصغر الأكبر بني الناس !ويا للشقاء في أن يعود الصغار أبد ا .إن هذا ما يرهقني من الوجود.

واندفع زارا يردد قوله :يا للكراهة ... يا للكراهة، وهو يتنهد ويرتعش متذكرا داءه وأوجاعه.

وقاطعه نسره وأفعوانه قائلني :توقف عن الكلام، أيها الناقه، اخرج من هنا واذهب إلى حيث تنتظرك الدنيا في حدائقها، إلى الورود والنحل والحمام، وقف عند أسراب الأطيار املترنمة لتتعلَّم أناشيدها، وما أجدر الناقهني بالإنشاد !فإن املتمتعني بالعافية يتكلمون وإذا هم تغنوا فبغير ما يتغنى به الناقهون.

فقال زارا :اسكتا أيها الأحمقان أراكما عرفتما السلوى التي أوجدتها لنفسي في سبعة أيام، ولسوف أعود إلى الإنشاد الذي أوجدته للسلوى فيكون لي منه الشفاء، أفتريد ان أن أعدل عن هذا أيضا

فصاح الحيوانان :انقطع عن الكلام أنسيت أنك ناقه؟ أعد قيثارة جديدة لنفسك، القديمة إنشاد ا جديدا.

فما تجاري القيثارةُ در أطلق أغنيتك، يا زارا، ولتذهب داوية كالعواصف، أشف نفسك بها لتنهض بما قُ لك وما قدر لأحد قبلك.

إن حيوانيك يعرفان من أنت، يا زارا، وما ستكون، فما أنت إلا النبي املعلن تكرار عودة الأشياء إلى الأبد، وهذا ما قدر عليك القيام به منذ الآن :أن تكون أول من ينشر هذا التعليم وكفاك بهذا العمل علة وأخطارا.

ما غرب عنا تعليمك يا زارا، فأنت تقول بأن جميع الأشياء تعود أبدا، ونحن معها عائدون وبأننا و جدنا من قبل مرار ا لا عداد لها ومعنا جميع الأشياء أيضا.

أنت تقول بالسنة العظمى املتكررة، وهي كالساعة الرملية تنقلب كلما فرغ أعلاهاً ليعود أدناها إلى الانصباب مجددا، وهكذا تتشابه السنوات كلها بإجمالها وتفصيلها كما نعود نحن مشابهني لأنفسنا إجمالا وتفصيلا في هذه السنة العظمى.

إذا ما شئت أن تموت الآن يا زارا، فإننا نعلم ما ستناجي به نفسك، ولكن نسرك وأفعوانك يرجوانك ألا تضع حدا لحياتك الآن

إذا أنت عزمت على الرحيل، فإنك لتدفع بزفرة الارتياح لا بأنني الألم؛ إذ تطرح عن ر ك الثقيل وكربتك املضنية، قائلا :ها أنذا أموت وأتوارىء عاتقك وأنت الصلب الجلود وقْ وعما قليل أصبح عدما، فإن الأرواح تفنى كما تفنى الجسوم، غير أن شبكة العلل الدائرة.

بي ستعود يوماً فتخلقني مجدداً، فما أنا إلا جزء عن علل العودة الأبدية لكل شيء.

سأعود بعودة هذه الشمس وهذه الأرض، ومعي هذا النسر وهذا الأفعوان سأعودَ لا لحياة جديدة ولا لحياة أفضل ولا لحياة مشابهة، بل إنني سأعود أبداً إلى هذه الحياةً بعينها إجمالاً وتفصيلاً ، فأقول أيضاً بعودة جميع الأشياء تكراراً وأبداً، وأبشر أيضاً.

الجزء الرابع

الأناشيد

نشيد البداية والنهاية، الألف والياء:

١

أنا العراف الممتلئ بالروح الكاشفة الذاهب صعدا على السلسلة المتعالية بين بحرين،السائر بين ما مضى وما سيأتي كغمامة كثيفة متملصة من جميع الأعماق الخانقة والمعادية لكل متعب ليس له أن يحيا، وليس له أن يموت.

أنا تلك الغمامة المِعَّدة صدرها المظلم للمعات الأنوار المنقذة، المتمخضة بالبرق المثبتة الضاحكة مما تثبت، أنا الغمامة الحاملة للصواعق الكاشفة، ويالسعد من تمخض بمثل هذه الصواعق !ولكنه ملزم بأن يلتصق طويلا بالذروة كما تلتصق الغمامة المثقلة؛ إذً عليه أن يشعل يوما أنوار مستقبل الزمان.

كيف لا أحن إلى الأبدية؟ !وكيف لا أضطرم شوقًا إلى خاتم الزواج إلى دائرة الدوائرحيث يصبح الانتهاء عودة إلى الابتداء؟!ما لأبنائي إلا المرأة التي أحبها؛ لأنني أحبكُ.

إنني لم أجد حتى اليوم امرأة أريدها أما لأبنائي إلا المرأة التي أحبها؛ لأنني أحبك أيتها الأبدية.

٢

إذا كنت تهجمت بغضبي على القبور فانتهكت حرمتها، ونبذت قصيًّا معالم الحدود، وألقيت بألواح الشرائع فحطمتها على مهاوي الأغوار.

وإذا كنت بسخريتي نثرت الكلمات المتداعية، وهببت كالريح أكسح نسيج العناكب، وأطهر مغاور الموت المتعفنة القديمة.

وإذا كنت جلست مرحا مسرورا حيث دفنت آلهة الأزمان المنصرمة لأبارك العالم وأغمره بالحب قرب أنصاب من افتروا عليه، فما ذلك إلا لأنني أتوق إلى رؤية المعابدُ ومدافن الآلهة عندما تخترق عين السماء الصافية قبابها المحطمة، فأجس على الركام المتهدمة كالعشب الأخضر والشقائق الحمراء.

فكيف لا أحن إلى الأبدية ولا أضطرم شوقًا إلى خاتم الزواج !إلى دائرة الدوائر حيث يصبح الانتهاء عودة إلى الابتداء.

إنني لم أجد حتى اليوم امرأة أريدها أما لأبنائي إلا المرأة التي أحبها؛ لأنني أحبك أيتها الأبدية.

إنني أحبك أيتها الأبدية:

٣

إذا كانت هبَّت عليَّ نسمة من نسمات الإبداع الإلهية التي تكره حتى الصدف العمياء على الدوران راقصة كتراقص الكواكب في الأفلاك.

إذا كنت ضحكت بقهقهة البرق المبدع يصحبه إرعاء العمل.

وإذا كنت تراشقت الزهر مع الآلهة على نرد الأرض حتى ارتجفت الأرض، وتشققت قاذفة لهاث النار في الأجواء، فما ذلك إلا لأن الأرض نرد إلهي يرتعش لوقع الكلمات المبدعة الجديدة ولتساقط الأزهار الإلهية.

فكيف لا أحن إلى الأبدية، ولا أضطرم شوقًا إلى خاتم الزواج، إلى دائرة الدوائر حيث يصبح الانتهاء عودةً إلى الابتداء.

إنني لم أجد حتى اليوم امرأة أريدها أما لأبنائي إلا املرأة التي أحبها، لأنني أحبك أيتها الأبدية.

إنني أحبك أيتها الأبدية

٤

إذا كنت كرعت ما في هذه الكأس من دواء تمازجت جميع العقاقري فيه، وإذا كنت مددتً يدي فضممت الأبعد إلى الأدنى وجمعت بين النار والتفكير، وبين المسرات والأحزان مازجاً أقبح الأشياء بأحسنها.

وإذا كنت أنا ذرة مفتدية في بحر الرمال أعمل على مزج الأشياء في كأس العقاقيرِ، فما ذلك إلا لأن في الوجود ملحاً يلتحم به الخير مع الشر، وما الشر إلا أحد التوابل التي تزبد الكأس فترغي طفاحا.

إنني لم أجد حتى اليوم امرأة أريدها أما لأبنائي إلا المرأة التي أحبها؛ لأنني أحبك أيتها الأبدية.

إنني أحبك أيتها الأبدية

٥

إذا كنت أحببت البحر وكل ما يشبه البحر وما اشتد هيامي به إلا عند مقاومته لي بزوابعه،وإذا كنت أحمل في نفسي غبطة المستكشف، الغبطة التي تدفع بالشراع إلى المجاهل وتملأ رو اد البحار حبور

وإذا كنت قد صرخت في حبوري :لقد توارت أواخر الشواطئ عنٍ عياني، فتحطمت بتواريها آخر حلقة من قيودي، فها أنذا الآن في وسط المدى الفسيح

الصاخب بعيدا عن توالي الأمكنة والأزمان، فهيًّا بنا، يا قلبي الهرم إلى الأمام! أواه !كيف لا أتوق إلى الأبدية وأضطرم شوقًا إلى خاتم الزواج، إلى دائرة الدوائر حتى يصبح الانتهاء عودة إلى الابتداء.

إنني لم أجد حتى اليوم امرأة أريدها أما لأبنائي إلا المرأة التي أحبها؛ لأنني أحبك أيتها الأبدية.

إنني أحبك أيتها الأبدية

٦

إذا ما كانت فضيلتي فضيلة الراقصين، وإذا كنت كثيريًا ما رقصت مأخوذًا بإشعاع الزمرد والنضار وإذا كان شري شرا ضاحكا يأنس إلى حقول الزنابق وأغصان الورود، فذلك لأن كل ما هو شرير يتحد بالضحك ولكنه يتحد مبرر ا ومحررا بغبطته نفسها.

إن الألف والياء عندي هما أن تتحول كل كثافة إلى لطافة فيصبح كل ثقيل خفيفً وكل جسم راقصا وكل فكر طائرا، والحق أن في هذا كل بداية وكل نهاية

فكيف لا أتوق إلى الأبدية وأضطرم شوقًا إلى خاتم الزواج، إلى دائرة الدوائر حيث يصبح الانتهاء ابتداء.

إنني لم أجد حتى اليوم امرأة أريدها أما لأبنائي إلا المرأة التي أحبها؛ لأنني أحبك أيتها الأبدية.

إنني أحبك أيتها الأبدية

٧

وإذا ما كنت بسطت فوقي سماوات يسودها السكون، وأطلقت جناحي في مجالات سماواتي، وإذا ما كنت سبحت في أعماق مدى الأنوار فملكت حكمة الطيور في حريتي، فما ذلك إلا لأن حكمة الطيور تقول :ليس في الكون فوق ولا تحت، ألق بنفسك هنا أوهناك،اذهب إلى الأمام أو تراجع إلى الوراء ما دمت خفيفً ا، أطلق صوتك بالتغيرد ولا تتكلم بعد، أفليس التكلم شيمة أهل الكثافة والثقل، وهل يتصاعد كل قول إلا نحو الخفيف اللطيف،ِّغرد ولا تتكلم بعد.

أواه !كيف لا أحن إلى الأبدية، وأضطرم شوقًا إلى خاتم الزواج، إلى دائرة الدوائر حيث يصبح الانتهاء ابتداء.

إنني لم أجد حتى اليوم امرأة أريدها أما لأبنائي إلا المرأة التي أحبها؛ لأنني أحبك أيتها الأبدية.

إنني أحبك أيتها الأبدية... !

أين تجلى الجنون في الأرض بأشد مما تجلى بين المشفقين، بل أي ضرر لحق بالناس أشد من الضرر الناشئ عن جنون الرحماء، ويل لكل محب ليس في محبته ربوة لا يبلغها إشفاقهم قال لي الشيطان يوما :إن للرب جحيماً هو جحيم محبته للناس وقد سمعت هذا الشيطان يقول أخيرا :لقد مات الإله وما أماته غير رحمته.

نشيد الثمل:

١

وبينما كان يتكلم خرجوا الواحد تلو الآخر إلى الهواء الطلق وقبض زارا على ذراع أقبح العاملين، وخرج به ليريه مشاهد الليل والشلالات المتدفقة قرب غاره مفضضة بشعاع القمر، وأمام هذه الشلالات وقف جميع هؤلاء الشيوخ وقد تسرب العزاء إلى قلوبهم فشدد عزائمهم، وكان كل منهم معجباً بذاته، وقال زارا في نفسه، لكم تشوقني رؤية هؤلاء الراقين الآن.

وعندئذ وقع أغرب حادث شهده القوم طوال يومهم؛ إذ رأوا أقبح العاملين يهدرً مفتشاً على كلمات لبيانه، فإذا به يتناول مسألة خطيرة ذهبت تهز أحشاء السامعين.

قال :أيها الأصحاب، هذه لأول مرة أحيا فيها الحياة كلها بيوم واحد، فقد كفاني هذا العيد بصحبة زارا لأتعلم محبة الأرض، فيمكنني الآن أن أقول للموت : أهذه هي الحياة؟ إذن أعدني إليها مرة أخرى.

أفلا تريدون أيها الأصحاب أن تقولوا للموت ما أقوله له أهذه هي الحياة إذن أعدنا إليها من أجل محبة زارا مرة أخرى.

هكذا تكلم أقبح العاملين وكان الليل قد قارب الانتصاف.

وأحس الرجال الراقون عندئذ بأنهم تحولوا عما كانوا عليه، وقاربوا الشفاء وعلموا أن زارا قد بدل من حالهم فأقبلوا عليه يلثمون راحتيه حبّا واحتراماً فضحك بعضهم وبكى البعض الآخر، وكان الساحر القديم يرقص طربًا، ولعله كان مأخوذًا بالسكر، على ما ينقله بعض الرواة، ولكنه ولا ريب كان ثالما من حياته الجديدة بعد أن تخلى عن حياة التراخي والكسل، وقال بعض الرواة : إن الحمار نفسه بدأ يرقص متأثرا مما سقاه أقبح العاملين، وقد لا يكون الحمار استسلم للرقص في ذلك المساء فليس للأمر أهمية ما دامت الحوادث الجسام التي وقعت حينذاك تفوت ما لرقص الحمار من شأن .إن من آيات زارا قوله : وأية أهمية لهذا

٢

وعندما نطق أقبح العاملني بما ذكرنا كان زارا في حالة اضطراب شديد؛ إذ انعقد لسانه وارتجفت ركبتاه وتماوت نظره، ومن يدري ما كان يدور حينذاك في خلده، فكأنه كان ويتحفز للطيران، وقد شخص إلى الأبعاد مطلاً من الذروة عليٍ يذهب بفكره مدا وجزرً بحريين أو سائراً كغمام كثيف بين المدبر والمقبل من الزمان.

وأحاط الراقون بزارا يسندونه بسواعدهم إلى أن ثاب رشده إليه فدفع عنه القوم المسارعين إلى تمجيده دون أن يقول شيئًا، ولكنه شخص كما يسمع صوتًا، فوضع سبَّابته على شفتيه وصرخ :تعالوا...

وساد الصمت ودوت من بعيد رنَّة جرس، فتنصت زارا ومن معه، ثم عاد يقول وقد وضع سبابته على شفتيه ثانية :تعالوا ... تعالوا ... لقد اقترب نصف الليل.

وتغيرت نبرات صوته، ولكنه ظل في موقفه.

وعاد السكوت يثقل على الكل حتى على الحمار والنسر والأفعوان والغار والقمر الباهت والليل نفسه.

ورفع زارا سبابته للمرة الثالثة إلى شفتيه وقال :تعالوا ... تعالوا ... هيا فقد دنت الساعة، هيا بنا إلى الليل

٣

أيها الرجال الراقون لقد انتصف الليل، ولسوف أ سر إليكم بما أسره إليَّ الجرس القديم في رنينه.

سأناجيكم بالرهبة والإخلاص الذين ناجاني بهما جرس نصف الليل القديم البالغ من العمر ما لا يبلغ الإنسان الفرد.

لقد عد هذا الجرس من قلوب آبائكم نبضاتها فهو يزفر ساعة نصف الليل زفيرا، ويرسلها ضحكا في قلب الظلام.

نصتوا !إن من الأشياء ما لا تُعلن في نور النهار أما في هذه الساعة وقد اعتل الهواء، وسكنت ضوضاء قلوبكم فإن الأشياء تتناجى وتتفاهم وتتسلل إلى أرواح السمر فيمتد بها ويطول، فاسمعوا زفير ساعة الليل وضحكها في أحلامها.

أفلا تسمعها أنت تناجيك برهبة وإخلاص، أفلا تسمع ما تقول ساعة نصف الليل ِفي قَدمها وعمقها؟

أيها الإنسان كن على حذر!

٤

ويل لي !أين تسر ب الزمان؟ أما وقعت في آبار لا قعر لها.

لقد نامت الدنيا، ويلاه إنني أسمع هرير الكلب، وأرى لمعان القمر، إنني لأفضل الموت على أن أبوح لكم بما يعتقده فؤادي عن نصف الليل.لقد مت وقُضي أمري !لماذا تمدين نسيجك حولي أيتها العنكبة، أتطلبين دما؟ ويلاه لقد تساقطت الأنداء ودنت الساعة، الساعة التي سأرتجف فيها بردا وأتحول منها إلى جليد، الساعة التي تسأل وتسأل ولا تكف عن السؤال قائلة :من سيجرؤ على هذا؟ من سيكون سيد العالم،

من يرضى ويريد أن يهتف بالأنهار كبريها وصغريها، سريي على ما أقرر لك.

لقد دنت الساعة أيها الإنسان الراقي، فكن على حذر إن هذا الخطاب موجه إلى مرهفات الأسماع، إلى أسماعك.

ماذا يقول نصف الليل في أعماقه؟

٥

إنني محمول إلى هنالك، وروحي ترقص في كل يوم !من سيكون سيد العالم يا ترى؟ لقد نور القمر وسكن الهواء، وا أسفاه، هل تسنى لكم أن ترتفعوا بطريانكم، لقدً رقصتم ولكن الساق ليست جناحا.

أيها المجيدون في رقصكم، لقد انقضى زمن الحبور فاستحال الخمر إلى خمرية، لقد فرغت الكئوس وعلت همسات القبور.

إنكم لم تبلغوا الأعالي في طيرانكم لذلك تنادي القبور :أنقذوا الأموات، لماذا طال بنا الليل؟ فهل أسكرنا شعاع القمر؟.

فيا أيها الراقون أنقذوا القبور، ما لكم لا تُنهضون الأموات، كفى الديدان ما رعت!لقد دنت الساعة.

لا يزال الجرس يدوي برنينه فالقلب يزفر زفرات الاحتقار، إن سوس القلب ينخر شغافه.

ويلاه !ما أعمق هذا العالم.

٦

احب نغمات أوتارك كأنها تتعالى من بعيد ومن الزمان المنصرم عن أيتها القيثارة !لكم أ ضفاف نهر الغرام.

ما أنت أيها الجرس إلا هذه القيثارة المشجية فلكم قرعت قلبك الأحزان، أحزان الآباء والأجداد والسلفاء الأقدمني، حتى أنضجت دعوتك الأزمان فغدت كالخريف المذهب وكقلبي المنفرد، فأصبح صوتك كلاما والعالم نفسه قد نضج كالعناقيد لوحها الاسمرار بحبوره .فهو يريد أن يموت مكفّ أما تنشقون يا رجال الرقي عبيراً يضوع خفيا، إن هو إلا عبير الأبد، رائحة خمرة السعادة المعتَّقة، السعادة الثاملة بشوقها إلى الموت المطلقة إنشادها في نصف الليل قائلة:

إن العالم عميق، إن العالم أعمق مما كان يظن النهار.

٧

كمل عالمي، دعني أيها النهار الأحمق دعني ... دعني، إنني أطهر من أن تمسني يدك وقد العبوس الثقيل، أفليست ساعة نصف الليل أشد منك إشراقًا؟ يجب على الأطهار أن يسودوا العالم وهم المجهولون الأقوياء تكمن فيهم أرواح نصف الليل المشعة بأنوار أعمق وأصفى من أنوار النهار.أيها النهار، إنك حولي وتراود سعادتي؛ لأنك تجد فيَّ أنا المنفرد ينبوع كنوز لا تفنى.

أنت تطلبني، أيها العالم، وما أنا بالعالمي ولا بالديني ولا بالإلهي، ما أثقلك أيها النهار وما أثقلك أيها العالم!.

لتذهب أيديكما على هدى، لتذهب قابضة على سعادة أعمق وشقاء أعمق، لتذهب مستولية على أحد الآلهة ولتدعني وشأني.

أيها النهار، إن سعادتي عميقة وشقائي عميق، ولكنني لست إلها ولست حتى جحيمٍ إله، وما أعمق أوجاع العالم!

٨

أيها العالم الغريب، إن أوجاع الإله أعمق من أوجاعك فاقبض على أوجاع الإله ودعني وشأني، فما أنا إلا قيثارة تفيض عذوبة وسحرا.

أنا قيثارة نصف الليل، أنا جرس لا يفهم أحد بيانه وعليه أن ينطق أمام الصم،وأنتم أيها الراقون لا تفهمون ما أقول.

لقد قُضي الأمر وتوارى الشباب مع الظهرية والعصر، فحان وقت المساء وأقبل الليل ونصف الليل، وهذا الكلب وهذا الريح كلاهما يعوي.

وهل الريح إلا كلب يئن ويعوي، فيا لصوت الريح من زفري وضحك وحشرجة عند انتصاف الليل

إنها لشاعرة سكرى تجاوزت حدود النشوة وطال سهدها، هذه الساعة القديمة تداعب أوجاعها عند نصف الليل وتداعب أيضا مسراتها،والمسرة عند اشتداد الألم تفوق الألم شدةً وعمقًا.

٩

لماذا تمتدحينني، أيتها الكرمة، أفما قطعت جفنتك بقساوة؛ فقطرت دما فما لثنائك يتجه إلى قسوتي الثاملة؟

أسمعك تقولني :كل شيء بلغ كماله ونضوجه يطلب املوت تبارك منجل الكرام، فمايتمسك بالحياة إلا ما لم يبلغ النضوج بعد.

إن الألم يقول لنفسه مر وانقض، ولكن املتألم يطلب الحياة قاصدا أن ينضج ويصبح مرحا مليئًا بالشهوات متشوقًا إلى الأبعد والأعلى والأشد صفاء، فكل من يتحمل العذاب يصيح أريد ورثة لي، إنما مقصدي هو أولادي لا أنا في حين أن المسرة لا تطلب ورثة ولا أولاداً لا تقصد المسرة إلا ذاتها ولا تتشوق إلا إلى الخلود، إلى عودة الأشياء بعد عبورها وإلى كل ما يشبه ذاته مستقراً إلى الأبد.

يقول الألم :انحطم يا هذا، اقطر دما أيها القلب اذهبي أيتها الساق وتطاير أيها الجناح بعيدا نحو الأعالي فما أنت إلا آلام وأوجاع فهيا إذن يا قلبي الهرم ما دامت الآلام تقول لك مر وانته

١٠

أيها الرجال الراقون ما تراكم تحسبونني؟ أنبي أنا أم متوهم أم ثامل أم معبر أحلام أم جرس يدوي في نصف الليل؟ أأنا ندى أم بخور من الأبدية؟ أما سمعتم؟ أفما شعرتم بأن عالمي قد اكتمل؟ إن نصف الليل هو الظهرية أيضا.

إن الألم لذة واللعنة بركة والليل شمس مشرقة.

ابتعدوا كيلا يقال عنكم أيضا إن الحكيم مجنون.

إذا كنتم أحسستم بفرح فقد أحسستم أيضا بجميع الأتراح، فجميع الأشياء متسلسلة متداخلة متعاشقة.

أما اشتهيتم أن تعود المرة مرتين فهتفتم ارتياحا للذة لحين من الدهر ولطرفة عين؟ إنكم بهذا التمني وددتم لو تعود الأشياء جميعها متسلسلة متداخلة متعاشقة، وهكذاأحببتم العالم، أيها الخالدون، فكان حبكم أبديًا لا نهاية له قلتم للآلام أن تنقضي ولكنكم دعوتموها لتعود؛ لأن كل لذة تطلب الخلود.

١١

إن اللذات تطلب الخلود لكل شيء، فتريد عسلا وخمرا وساعة ثاملة في نصف الليل، تريدً قبورا وتريد الدموع تنسكب مؤاسية على القبور والشمس الجانحة بنورها الذهبي إلى الغروب.

وأي شيء لا تتشوق اللذة إليه؟ !فهي أشد ظمأ وجوعا من الألم وفيها ما ليس فيه من روعة وأسرار، فاللذة تطلب ذاتها وتنهش ذاتها، فهي إرادة تناضل في حلقة مفرغة، تريدا وتريد بغضا، تتمتع بالسعة فتجود وتقذف بما تبذل، تتسول تسولا لتهب نفسها وتشكر من يأخذها، فهي تشتهي أن تُقابل بالبغضاء.

اللذة المتمتعة تشتهي الأوجاع والاحتراق في الجحيم والعار وكل ما عراه التشويه،فهي تلتهب بظمأ الحياة، وما خفيت عنكم الحياةُ في هذا العالم.

إن اللذة الثائرة السعيدة تشتاقكم أيها الراقون، وتحن إلى آلامكم أيها الفاشلون؛ لأن اللذة الأبدية تتشوق أبدا إلى كل محاولة فاشلة، فهي تطلب ذاتها إذ تطلب الألم.

انحطم أيها القلب فأنت اللذة وأنت الألم.

تعلموا هذا أيها الراقون :إن اللذة تطلب الخلود.

١٢

أتعلمتم نشيدي الآن !أأدركتم مغزاه؟

هيا إذن أيها الرجال الراقون، ترنموا بهذا النشيد، فهو نشيدي وعنوانه مرة أخرى ومعناه مدى الأبد.

تغنوا جميعا بنشيد زارا أيها الإنسان، كن على حذر ماذا يقول نصف الليل؟ لقد استسلمت طويلا للوسن وها أنذا انتبه من رقادي إن العالم جد عميق فهو أعمق مما يعتقد النهار وآلامه عميقة واللذة أعمق من الآلام يقول الألم : مر يا هذا وانقض ولكن ليس من لذة لا تطلب الخلود خلودا لا نهاية له!.

نشيد الليل:

لقد أرخى الليل سدوله فتعالى خرير المياه المتدفقة، ولنفسي أيضا ينبوعها المتفجر.

لقد أرخى الليل سدوله فتعالت الأناشيد من أفواه جميع المغرمين، وما روحي إلا نشيد من هذه الأناشيد إن في داخلي قوة ثائرة تريد إطلاق صوتها، وهي شوق إلى الحب بيانه بيان المغرمين أنا نور وليتني كنت ظلاماً، وما قُضي عليَّ بالعزلة والانفراد إلا لأنني عت بالأنوار.

ولو أنني كنت ظلاماً، لكان لي أن أرسل بركتي إليك أيتها النجوم المتألقة تلفَّ كصغيرات الحباحب في السماء فأتمتع بما تذرين عليَّ من شعاع غير أنني أحيا بأنواري فأتشر ب اللهب المندلع من ذاتي وقد حرمت لذة الآخذين، وقد خطر لي مرارا أن في السرقة من اللذة ما ليس في الأخذ.

إن يدي لا تقف عن البذل، وذلك هو فقري فأنا أنظر أبدا إلى العيون يملؤها الانتظار وإلى الليالي تلهبها الأشواق، وذلك هو الحسد الذي يقض مضجعي.

يا لشقاء الواهبين يا لظلمة شمسي ويا لشوقي إلى الاشتياق ويا لشدة المجاعة في شبعي.

إنهم يأخذون ما أهبهم، ولكنني أبقى بعيدا عن أرواحهم فإن بين الباذل والآخذ هوة عميقة، ولعل أقرب الأغوار قعرا أصعبها ردماً.

إن نوعا من الجوع ينشأ في أحشائي فيحفزني إلى إيلام من أرسل إليهم أنواري، فأتوق إلى سلب من أغدق عليهم هباتي، وهكذا أتعطش إلى إيقاع الأذية فأرد يدي بعد أن أكون مددتها، وأتردد تردد الشلال في تدفقه نحو مراميه. إن مثل هذا الانتقام يراود عظمتي، ومثل هذا المكر ينشأ من عزلتي.

لقد فقدت السعادة في العطاء لوفرة ما أعطيت، وقد زهقت فضيلتي من فسهاُ ومن جودها إن من يستمر على بذل الهبات مهدد بفقد الحياء، ولا بد أن تتصلب راحته ويتصلب قلبه

لم تعد مآقي تذوق الدموع على خجل المسترحمين، وها إن يدي قست حتى امتنع عليها أن تشعر بارتعاش الأيدي إذا امتلأت.

أين هي دموع عيني وأين رقة قلبي، فيا لوحدة جميع الواهبين ويا لصمت كل متلفع بالسناء.

إن شموسا لا عداد لها تدور في قفار الأجواء مخاطبة بإشعاعها لبدات الظلام، وأنا وحدي محروم من حديث هذه الشموس وبيانها.

ويلاه !أية علاقة يمكن أن تربط الأنوار بالأجرام املنرية من نفسها؟ فإن الأنوار تمر عليها وهي تحدجها بلفتات الجفاء وتمضي ذاهبة في سبيلها، وهكذا تسري جميع الشموس في أجوائها نافرة من كل جرم منري باردة لا تحس أخواتها بحرارتها.

إن الشموس تندفع كالعاصفات في أبراجها متبعة ما اختطته إرادتها الجبارة، وفي ذلك كتمان حرارتها وبرودتها .هل غيرك أيتها الأجرام امللفعة بظلام الليل من يخلق حرارة من اللمعان؟ أنت وحدك ترضعني أفاويق القوة من أثداء النور.

ويلاه إن الصقيع يدور بي ويدي تحترق من لفحات الجليد، فأنا مشتعل بسعار لا يطفئ أواره غير عطشكم، لقد سادت الظلمة فلماذا قضي عليَّ أن أكون نورا منفرداً متعطشا إلى الظلام؟لقد سادت الظلمة فتدفقت كالجداول أشواقي، وهي تريد أن تهتف بما تضمر

لقد أرخى الليل سدوله، فتعالى خرير المياه المتدفقة ولنفسي أيضا ينبوعها المتفجر.

لقد أرخى الليل سدوله فتعالت الأناشيد من أفواه جميع المغرمين، وما روحي إلا نشيد من هذه الأناشيد.

نشيد الرقص:

ومر زارا بالغاب يوما ومعه صحبه فاكتشف وهو يفتش عن ينبوع مرجا منبسطاً بينً الأشجار والأدغال، وكان هنالك رهط من الصبايا يرقصن بعيداً عن أعين الرقباء، وإذ لمحن القادم وعرفنه توقفن عن الرقص، ولكن زارا اقترب منهن وخاطبهن قائلا : داومن على رقصكن، أيتها الآنسات الجميلات، فما القادم بمزعج للفرحين وما هو بعدو للصبايا . أنا من يدافع عن الله أمام الشيطان، وما الشيطان إلا الروح الثقيل، فهل يسعني أن أكون عدوا لما فيكن من بهاء ورشاقة وخفة روح؟

وهل لي أن أكون عدوا للرقص الإلهي ترسمه مثل هذه الأقدام الضوامر الرشيقات...؟لا ريب في أنني غابة اشتبكت فيها قاتمات الأشجار، وساد الحلك على أرجائها،ا تحف بجانبيها ولكن من يقتحم ظلماتي بلا خوف ليجدن تحت سرواتي الرهيبات طرقً الورود، وليجدن أيضا الإله الصغير الذي تشتاقه الصبايا منطرحا بسكون قرب الينبوع وقد أغمض عينيه

لقد نام في وقت الظهيرة، هذا الإله المتراخي، ولعله سعى طويلا ليصطاد من الفراشات عددا كبيرًا.

لا يكدركن مني أيتها الراقصات الجميلات تأديبي لهذا الإله الصغير، ولعله يصيح ويبكي ولكنه إله يجلب المسرة حتى في بكائه، فلسوف أقتاده إليكن والدموع سائلة على خديه ليطلب إليكن أن ترقِّصنه، وإذا ما رقص فسأرافقه أنا بإنشادي فما تجيء نغماتي إلا هزيجا أصفع به الروح الثقيل، روح الشيطان المتعالي الذي يقول الناس إنه يسود العالم.

وهذه هي الأغنية التي رفع زارا صوته بها بينما كان كوبيدون إله الحب يرقص مع الصبايا الفاتنات :لقد حد قت يوما في عينيك ، أيتها الحياة، فحسبتني هويت إلى غور بعيد القرار،غير أنك سحبتني بشابك من ذهب وأطلقت قهقهة ساخرة عندما قلت إن غدرك لا قرار له، وأجبتني :هذا ما تقوله الأسماك جميعها، فهي إذ تعجز عن سبرالأغوار تحسبها لا قرار لها، وهل أنا إلا المتقلِّبة النفور؟ وهل أنا إلا امرأةٌ وامرأة لا فضيلة لها، لقد تقول الناس كثيرًا عن صفاتي، ولكنهم أجمعوا على أنني غير المتناهية، المليئة بالأسرار.

أيها الناس، إنكم ترون فضائلكم فيَّ، فأنتم لا قبل لكم بإدراك شيء آخر

غيرها أيها الفضلاء هذا ما كانت تقهقه به في سخريتها تلك الحياة، غير أنني لا أثق بها، ولا أصدق ضحكها عندما تهجو نفسها.

وناجيت يوماً حكمتي النفورة فقالت لي غاضبة :إنك تطلب الحياة وتشتاقها وتحبها، وذلك ما يحفز بك إلى بذل الثناء عليها.

ولولا أنني تمالكت نفسي لكنت رددت بعنف على حكمتي، وأعلنت الحقيقة لها وهي تغاضبني، وهل من جواب أشد وقعا على الحكمة من أن تهتك سرائرها.

ما أحب شيئًا من صميم الفؤاد إلا الحياة، ولا يبلغ حبي لها أشده إلا حين أكرهها، وإذا ما أنا اندفعت إلى الحكمة، وأغرقت في الالتجاء إليها فما ذلك إلا لأنها تبالغ بتذكيري بالحياة، فإن للحكمة عيني الحياة ولها ابتسامتها، بل لها أيضا شابكها المذهب، فما حيلتي بهما إذا تشابهنا إلى هذا الحد؟ وعندما سألتني الحياة عن الحكمة أجبتها :هي الحكمة يشتهيها الإنسان بكل قوته ولا يشبع منها، فهو يحدق فيها ليتبني وجهها من وراء القناع ويمد أصابعه بين فرجات شباكها متسائلا عن جمالها وما يدريه ما هو هذا الجمال، ومع هذا فإن أقدم الأسماك لا تنفك عن الانجذاب إلى طعمة شباكها فهي متقلبة شديدة المراس، ولكم رأيتها تعض على شفتها وتسرح شعرها، ولعلها شريرة ومخادعة، بل لعل لها صفات المرأة بأجمعها فهي لا تبلغ أبعد مداها في اجتذاب القلوب إلا عندما تهجو ذاتها

وبعد أن قلت هذا عن الحكمة للحياة، مرت على شفتيها ابتسامة شريرة،وغيَضت من جفنيها قائلة :عمن تتكلم ... لعلك تتكلم عني أنا ... وهل للإنسان أن يعلن مثل هذه الأمور بوجه من تعنيه حتى ولو كان محقا فما قولك الآن في حكمتك يا هذا... ؟وفتحت الحياة المحبوبة عينيها فحسبتني عدت إلى التدهور في الهاوية البعيدة القرار.

هذا ما تغنَّى به زارا وما انتهى الرقص وتوارت الصبايا عن أبصاره حتى تملكه حزن عميق فقال :لقد اختفت الشمس وترطب املرج وقد بدأ الغاب يرسل لفحاته الياردات إن شيئا مجهولا يدور حولي ويحدجني قائلا : ألم تزل على قيد الحياة يا زارا؟ وملاذا أنت حي بعد؟ وما هي فائدة هذه الحياة؟ ما هو مصدرك وإلى أين مصيرك أفليس من الجنون أن تبقى في الحياة؟

إنما هو الغسق فاغفروا لي شجوني لقد جاء ويلاه أيها الصحاب، إن ما تناجى فيَّ المساء فاغفروا لي قدوم المساء ...

نشيد القبور:

هنالك جزيرة القبور، جزيرة الصمت والسكون، وهنالك أيضا أجداث شبابي، فلأحملن إليها إكليلا من الأزاهر الخالدات.

بهذا ناجيت نفسي، فقررت أن أقتحم الغمر.

يا لصور الشباب وأشباح أحلامه، يا للحظات الغرام !يا لأويقات الحياة الإلهية !لقد تراميتسريعا إلى الزوال، فأصبحت أستعرض ذكرياتك كما أستعرض خيال الأحبة الراقدين في القبور.

إن نفحات الطيب تهب منك يا أعز المضيَعات فتروح عن قلبي وتستقطر مدامعيً إنها لنفحات تستنبض قلب العائم وحيداً على العباب.

أنا المنفرد أراني أغنى الناس وأجدرهم بالغبطة؛ لأنك كنت لي يوما أيتها الذكريات ولم أزل أنا لك، فقولي لي :علام تساقطت ثمراتك الذهبية عن أغصانها؟ِ ا لغرامك الذي أورثتنيه يا أيام الشباب، وبذكرك تنور فضائلي بعد إنني لم أزل منبتً وحشتها بعديد ألوانها الزاهية.

وا أسفاه، ما كان أولاك بألا تفارقينني أيتها الأيام الساحرات، فقد اقتربت إليَّ وإلى شهواتي لا كأطيار يسودها الذعر بل كأطيار تستأنس بالواثق بنفسه.

أجل لقد كنت معدة مثلي للبقاء على العهد إلى الأبد، يا أويقات الشباب، وليس لي أن أدعوك خائنة وقد وصفتك بالأويقات الإلهية لقد مررت سر اعا أيتها الأويقات الهاربات وما هربت مني ولا أنا هربت منك، فما أنا مسئول ولا أنت أيضا عن خيانتك وعن خيانتي

لقد أماتوك طلبًا لقتلي يا أطيار آمالي، وصوبت الشرور سهامها نحوك لتصل مخضبةً بالدماء إلى قلبي فأصابت هذه السهام مقتلا مني؛ لأنك كنت أعز شيء لدي، بل كنت كل ما أملك، لذلك قُضي عليك بالذبول في صباك والزوال قبل أوانك.

لقد صِّوبت السهام إليك وأنت أنعم من الحرير، وأضعف من ابتسامة تمحوها نظرة قاسية.

فليسمع أعدائي ما أقول :إن القتل أخف جرما من جنايتكم عليَّ، فقد سلبتموني ما لا قبل لي بالاستعاضة عنه بشيء، ذلك ما أقوله لكم أيها الأعداء، أما قتلتم أحلام شبابي وحلتم دون إتياني بمعجزاتي؟ لقد سلبتم مني تفكيري، وهأنذا أحمل هذا الإكليلَ لتذكاره حاملا معه لعنتي لكم أيها الأعداء؛ لأنكم قصرتم مدى أبديتي فانقطعت كأنها صوت ينقطع في الزمهرير تحت جنح الظلام فما تسنى لي أن أنظر إلى هذه الأبدية إلا ملحا؛ لأنها توارت عني بطرفة عين.

وأتت ساعة ناجتني فيها طهارتي قائلة :يجب أن تكون جميع الكائنات إلهية، وأنتِ أرسلت إليَّ الأشباح المدنسة، يا أيام الشباب، فانقضت تلك السانحة وعادت حكمة الشباب تقول لي يجب أن تكون جميع الأيام مقدسة في نظري وما هذه الكلمة إلا كلمة الحكمة المرحة، وعندئذ أتيتم أيها الأعداء فحولتم ليالي راحتي إلى أرق وهموم، فأين توارت هذه الحكمة المرحة؟لقد كنت فيما مضى أتوقع السعادة فأرسلتم على طريقي بومة مروعة مشئومةًّ؟ فتبددت أماني العذَاب

نذرت يوما أن أرجع عن كل كراهة، فحولتم كل ما حولي إلى قروح، فأين مضت مخلصات نذوري الطاهرات؟.

لقد مررت على سبيل السعادة كفيف البصر، فرميتم على طريق الأعمى كوما من الأقذار؛ فأصبحت كارها للطريق القديم الذي تلمسته، وعندما توصلت إلى القيام بأصعب أعمالي، عندما تمكنت من الاحتفال بالانتصارات التي تغلبت فيها على ذاتي أهبتم بمن يحبونني إلى الهتاف قائلين أنني أوقعت بهم أشد الآلام.

والحق أنكم لم تنقطعوا عن تشريد خير العاملات في قفري وتحويل جناها إلى علقم مرير، ولكم أرسلتم إلى إحساني أشد التسولين إلحاحا، ودفعتم أهل القحة ليطوفوا بإشفاقي، وهكذا نلتم من فضيلتي وهي ممنعة بإيمانها.

وكنت كلما قدمت أقدس ما عندي محرقة للتضحية تسارعون في تقواكم إلى إحراق أدسم ذبائحكم؛ لتتصاعد أبخرة شحمها مدنسةً خير ما قدست.

وطمحت يوما إلى الرقص متعاليًا بفني إلى ما وراء السبع الطباق، فأفسدتم عليَّ أعز المنشدين لدي، فرفع عقيرته بأفظع الأناشيد وقرع أسماعي بنغمات الأبواق الحزينة الباكية.

لقد كنت قاتلا أيها المنشد البريء، إذا غدوت آلة في يد الغدر، فقضت نغماتك على خشوعي بينما كنت أتهيأ للقيام بأروع رقصي.

ما أنا بالمعبر عن أسمى المعاني بالرموز إلا عندما أدور راقصا؛ لذلك عجزت أعضائي رتج عليَّ وامتنع عليَّ أن أبوح بسر آمالي لقد ماتت

عن رسم أروع الرموز بحركاتها، أحلام شبابي وفقدت معانيها المعزيات.

إنني لأعجب لتحملي هذه الصدمات، وأعجب لصبري على ما فتحت فيَّ من جراح، فكيف أمكن لروحي أن تُبعث من مثل هذه القبور؟

أجل إن فيَّ شيئًا لا تنال منه السهام مقتلا ، ولا قبَل لأحد بدفنه؛ لأنه يزحزح الصخور عنه فتتحطم، وما هذا الشيء إلا إرادتي، والإرادة تجتاز مراحل السنين صامتة لا يعتريها تحول وتغير إن إرادتي قديمة لا تني تدفع قدمي إلى السير فهي القوة المتصلبة المتعالية عن الفناء.

ليس فيَّ من عضو لا يصاب إلا قدمي السائرة إلى الأمام تدفعها هذه الإرادة الثابتة الصامدة المتجلدة، التي تخترق المدافن دون أن تنطرح تحت لحودها.

إن فيك وحدك يا إرادتي يصمد ما لا تبدده أيام الشباب، فأنت لا تزالني حية وفتية تملؤك الآمال، تجلسني على ركام المدافن وقد طبع الزمان عليها قبلاته الصفراء إنك لن تزالي أيتها الإرادة هد امة لجميع القبور، فسلام عليك يا إرادتي؛ لأنه لا بعث إلا حيث تكون القبور

أجل إن فيَّشيئًا لا تنال منه السهام مقتلا ، ولا قبَل لأحد بدفنه؛ لأنه يزحزح الصخور عنه فتتحطم، وما هذا الشيء إلا إرادتي، والإرادة تجتاز مراحل السنين صامتة لا يعتريها تحول وتغير إن إرادتي قديمة لا تني تدفع قدمي إلى السير فهي القوة المتصلبة المتعالية عن الفناء.

ليس فيَّ من عضو لا يصاب إلا قدمي السائرة إلى الأمام تدفعها هذه الإرادة الثابتة الصامدة المتجلدة، التي تخترق المدافن دون أن تنطرح تحت لحودها.

إن فيك وحدك يا إرادتي يصمد ما لا تبدده أيام الشباب، فأنت لا تزالني حية وفتية تملؤك الآمال، تجلسني على ركام المدافن وقد طبع الزمان عليها قبلاته الصفراء إنك لن تزالي أيتها الإرادة هد امة لجميع القبور، فسلام عليك يا إرادتي؛ لأنه لا بعث إلا حيث تكون القبور.

الفهرس